أفكار بصوت هادئ

سعدي يوسف

مؤسسة الأبحاث العربية

سعدي يوسف
أفكار بصوت هادئ

أفكار بصوت هادئ

سعدي يوسف

أفكار بصوت هادئ

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت - لبنان

* سعدي يوسف: أفكار بصوت هادىء.
* الطبعة الأولى، ١٩٨٧.

* جميع الحقوق محفوظة ولا يجوز إعادة النشر بأية طريقة إلا بموافقة خطية مسبقة من:

* الناشر: **مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.**

ص. ب ١٣/٥٠٥٧ (شوران)، بيروت - لبنان.
هاتف ٨١٠٠٥٥/٦، تلكس ٢٠٦٣٩، دلتا - لبنان.

— IAR (RAWAFID) Ltd.

P. O. Box 7047, Nicosia, Cyprus

Tel. (357) 2- 452670, TLx, 5223 Rawafid - Cy.

* حقوق النشر مرخص بها قانونياً بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بين المؤسسة والمؤلف.

* تصميم الغلاف: **نجاح طاهر.**

* الصف والماكيت (تنضيد الأحرف): **المجموعة الطباعية (ناصر عاصي).**

كلمتان

أميل أحياناً إلى القول بأننا نحن العرب، نخطب، ولا نتخاطب. وإن كان هذا الأمر شراً في السياسة كلّفتنا عواقبُه رَهَقاً، فإنه في الثقافة لشرٌّ مستطيرٌ. ذلك لأن للثقافة قطبين أساسيين يكادان يتساويان، ويظلان يتخاطبان، هما القائل والقارىء.

لقد مضى زمن التخاطب في السياسة، بل لم نكد نعرفه. ولم يعد للديمقراطية من معنى تثيره إلا خارج جغرافيتنا، جغرافية الروح، لطول ما نأت الديمقراطية عن جغرافية التراب.

وللسياسة عدواها. وغالباً ما ترغم الناس على لبوس ما لا يُلبَس. وهكذا، في الثقافة أيضاً، صرنا نخطب، ولا نتخاطب.

صرنا نقطع ولا نجمع. وبدلاً من القول الجامع آثرنا القول القاطع، وصدَّقنا، بسبب من عدوى السياسة، أن القول كالسيف، فصرنا سيّافين على رقابنا نحن.

قد يخالف المرء أخاه في أمرٍ أو تفصيل أمرٍ. هذه سنّة طبيعة وسنن عقل. لكننا صرنا نخشى الخلاف، بسببٍ من خشيةِ الحاكمِ الخلافَ، هذه الخشيةِ التي أورِثناها، فسرتْ في عروقنا سريان الدم، حتى لكأننا - نحن المحكومين - حكّامٌ.

■

صحيحٌ أنه ليس عليك أن تكون في القطب الجنوبي كي تعرف أن هناك جليداً. لكني أجد ـ ربما بسبب حرفة الشعر التي لا ترى التعبير عن الشأن العام إلا نابعاً من الشأن الخاص ـ الحديثَ عما لامستُه وعرفته عن كثب، أكثر قدرةً على إقناعي وإقناع سواي. إنني أتجنب التعميم قدر استطاعتي. وأفكاري ليست سوى نقاط انطلاق.

■

في هذا الكتاب، أفكار بصوت هادىء.
أفكارٌ تعتمد ما يجمعنا منطَلقاً: في الاتفاق والاختلاف.

وأفكارٌ تحتفي بما جمعَنا: تلك المعارك التي خضناها عبر السنوات كائنةً ما كانت نتائجها.

وأفكارٌ تدعو إلى أن نقتفي ما ثبّتناه من أثر يُؤْثَر.

وإن كانت اهتمامات هذه الأفكار، وسيعة الدائرة، متفرقة، فليكن للكتاب فضلُ أنه جمع ما تفرَّق.

نيسان، ١٩٨٧

س . ي

في العمل الثقافي

الإبحار نحو الجزر الأخرى

محاولة بسام أبو شريف المخلصة (الثوري - ١٣/ ٧/ ١٩٨٥) في توجيه خطاب ثقافي من أجل «لملمة اللغة الخاصة» وبدء «حوار جاد عميق» بين المثقفين الفلسطينيين حول مستقبل القضية والشعب والثورة، هذه المحاولة وجدت نفسها، منذ البداية، مكللة بشروط الماضي الذهبية (أهو ماض حقاً؟).

يرسم بسام أبو شريف الصورة الواقعية الكالحة لما يجري في الضفة والقطاع من انتهاش وقضم، وفي القدس من تشويه، وفي المخيمات من تقتيل، وفي سجون العدو ومعتقلاته من عسف، ثم ينظر إلى الواقع العربي حيث «العيون العربية تراقب، والحدود تتحول إلى سدود»، ويتساءل تساؤلاً مريراً: «هل نبكي ديمقراطيتنا أم حريتنا المفقودة؟».

في مقابل الصورة الكالحة، تتقدم صورة الماضي الذهبي، يتقدم المثقفون الفلسطينيون الذين «رسموا جميعاً لغة جديدة في هذا الوطن، هي لغة الديمقراطية في إناء الثورة الوطنية الديمقراطية، والتزموا جميعاً بميثاق وطني للثقافة غير مكتوب. ودب حماس غني عمق الثقافة الوطنية وأفسح المجال أمام مزيد من الإبداع. وكان الإبداع الأكبر ذلك الموقف الصلب من الديمقراطية وحرية التعبير عن الرأي. فكم من كاتب أو شاعر أو رسام أو موسيقي اختلف مع موقف سياسي هناوموقف سياسي هنالك، فعبر عن رأيه

ودافع عنه دون أن يشكل هذا صراعاً خارجاً عن الميثاق غير المكتوب، وفي الحالات القليلة التي تعرضت لها الديمقراطية في الساحة الثقافية الفلسطينية لممارسات ذوي العقليات المتخلفة والمعارضة لحرية التعبير عن الرأي، وقف المثقفون صفاً واحداً دفاعاً عن المبدأ، ودفاعاً عن أي مثقف تعرض لممارسات بعيدة عن الديمقراطية. وتجلت وحدة المثقفين الفلسطينيين أثناء غزو لبنان وحصار بيروت، فكانوا في الطليعة، يدافعون عن الثورة والقضية والشعب».

■

بعد هاتين الصورتين، يتقدم بسام أبو شريف ببرنامج عمل ذي ست نقاط:

- لملمة اللغة الخاصة، وبدء حوار حول مستقبل القضية والشعب والثورة.
- بدء حوار حول دور الثقافة الفلسطينية في مواجهة الهجمة الأمريكية الاسرائيلية الرجعية.
- تعبئة الجماهير.
- تفعيل دور المثقفين في إعادة الوحدة إلى صفوف الشعب.
- العمل على إلغاء اتفاق عمان.
- إعادة مكانة المثقف الفلسطيني عربياً ودولياً إلى ما كانت عليه.

■

حين تساءل محمود درويش في أحد أعداد «الكرمل»: لغة حوار أم لغة اغتيال؟، كان يشير بالضبط إلى تلك «اللغة الجديدة التي تزدهر تجارتها هذه الأيام»، هذه «اللغة» تتسم بسمات غير خاصة، أعني أنها تشير ولا تعبر، تحيل إلى مؤشرات ولا تعبر عن مواقف. انها لصيقة بغير كاتبها، مجردة إلا من تعميم افتراضي، خاضعة لمؤشرات من خارجها، بل من خارج العملية

اللغوية التي هي في الأساس حوار على أرضية من الوعي والتاريخ، تختلف في تدرجها وتصعيدها، ولا تختلف في جوهرها. انها لغة غير منضبطة، لغة مرتهنة بالنزوة والأمر، لا بالرؤية والاختيار. وهي لغة غير عقلانية، مليئة بحماسات قابلة للمناقشة في كل تفصيل. هذه العوامل وسواها تجعل من «اللغة الجديدة التي تزدهر تجارتها هذه الأيام» انموذجاً للركاكة والفظاظة ومجانبة الوعي. ولهذا فهي «لغة» من جانب واحد، غير قادرة على الاتصال لأنها عاجزة عن الايصال. ومن هنا لا يمكن لها أن تغدو لغة حوار، خاصة إذا كان الحوار بمستوى «القضية والشعب والثورة». ثمت، إذن، دعوة إلى لغة لحوار مسؤول أو لغة مسؤولة لحوار. وفي رأيي أن هذا الأمر يستدعي شرطين، أولهما التوصل إلى منبر رصين للحوار، ملتقى أو مجلة، بحيث تضمن رصانة المنبر المرجوة، اللغة المسؤولة التي نحن بحاجة ماسة إليها. والشرط الثاني هو ضمان المشاركة الواسعة للمثقفين الفلسطينيين الأكثر خبرة في المسؤولية والابداع، والذين تحملوا ـ عبر سنين ـ أعباء واضحة في الحركة الثقافية الفلسطينية «مهما تلونت مشاربهم الفكرية» مع اعتبار نأيهم بأنفسهم عن رطانة «الكرنفال».

اليوم، وبعد مرور ثلاثة أعوام على مأثرة بيروت، يحس المثقفون الفلسطينيون، أكثر من سواهم، ومع سواهم، بالخسارات المؤلمة التي تعرضوا لها، وعرضوا، بسببها، الثقافة الوطنية الديمقراطية في الوطن العربي، إلى تيسير ما نشاهده من احتلال الثقافة الرجعية مواقع ما كانت هذه الثقافة لتحلم بأنها ستحتلها يوماً، وتتحكم بها، وإلى ما نشهده من اختلال فظيع في ميزان المعركة الثقافية لصالح قوى الرجعية والظلام، سواء في هذه الساحة العربية بكاملها، أو المساحات التي تحتلها ثقافة هذا البلد أو ذاك ضمن الساحة العربية، وليست فلسطين استثناء.

■

لقد كان من المعالم البارزة للثورة الفلسطينية، اهتمامها بالمعركة الثقافية، وبقدر ما مثلت هذه الصورة طليعة مسلحة في حركة

التحرر الوطني العربية، مثلت كذلك طليعة في الثقافة الوطنية الديمقراطية العربية، وبالنظر للظرف الثقافي الثوري الذي أنتجته الثورة الفلسطينية، أمكن لحركة المثقفين الفلسطينيين أن تكون القلب من عملية جذب واستقطاب واسعة، للجماهير، فلسطينية، وعربية، وللمثقفين الوطنيين الديمقراطيين على امتداد الأرض العربية.

هذا التلاحم العميق في الحركة الثقافية الوطنية الديمقراطية (وقلبها الفلسطيني) استطاع لسنوات طوال أن يكون الأمثولة للصديق، وأن يغدو الحاجز أمام العدو الاستعماري الصهيوني الرجعي وتدفقه الاعلامي، والدرع الذي يحمي المثقفين الوطنيين الديمقراطيين من العسف والمطاردة والطرد.

ان مراجعة سريعة للمطبوع الفلسطيني، كتاباً أو مجلة، كفيلة بمنح الحديث عن هذا التلاحم ملموسيته العزيزة.

ولا بد من الاشارة هنا، إلى أن المثقفين الوطنيين الديمقراطيين العرب، من الماء إلى الماء، وضعوا الثقافة الفلسطينية موضع القلب أيضاً، حرصاً، واعتزازاً، وتقويماً، وتقديماً.

وليسوا قلائل أولئك المبدعون الذين جعلوا فلسطين رايتهم الأولى.

كان من نتيج هذا كله، نهوض ثقافي وطني ديمقراطي، واسع المدى، وشجاع، مؤمن بحرية التعبير، وكرامة الرأي، وحصانة الابداع والمبدع.

هذا النهوض استطاع الوقوف فعلاً، أمام العدو الاستعماري الصهيوني الرجعي وتدفقه الاعلامي، ووكلائه في المنطقة، من كتاب ودور نشر ومجلات، ومراكز أبحاث ومعلومات.

■

ممدوح عدوان في الدامور، محمود درويش في صور، أمل دنقل في دمشق، والشقيف آخر مهرجان للشعر العربي.

حدث هذا... قبل التاريخ؟

أستعيد هنا ورقة من مذكراتي اللبنانية، كتبتها يوم ٢/ ٨/ ١٩٨٢:

قد يصلكم هذا النداء متأخراً، بل جد متأخر. فالآلة العسكرية الصهيونية ـ الأمريكية تزيد من أحكام قبضتها على الكيلومترات المربعة القليلة التي نحيا فيها، سوية، مع المقاتلين في سبيل الحرية، المدافعين عن بيروت، وعن المثل النبيلة التي ظلت تلهم بني الإنسان قروناً وقروناً.

وأمس في الأول من شهر آب (قمة عطلاتكم الصيفية) ظلت ستون طائرة اسرائيلية تقصفنا بالقنابل والصواريخ اثنتي عشرة ساعة متواصلة، ومعها كانت المدافع (الهويتزر أيضاً)... ولقد نزلت على كيلومتراتنا القليلة مائتا ألف قذيفة، وبلغت غارات الطائرات مائتي غارة، وتهدمت منطقة كاملة من العاصمة بيروت تهديماً تاماً. ان هذه المنطقة أيها الأخوة الكتاب تضم مقرات اتحادات أدبية وفنية وصحافية وأروقة ومتاحف للفن التشكيلي، ومسارح، ومكتبات، ومطابع، وصحفاً ومجلات ودور نشر عريقة، انها، باختصار، البؤرة التي استطاعت الثقافة العربية الحديثة أن تكونها بعد جهود مضنية وتضحيات مريرة في هذه المنطقة حيث يعيش الكتاب العرب التقدميون ويعملون، وبينهم كتاب من مختلف أنحاء العالم العربي اختاروا هذا المكان لأنهم اختاروا الحرية، ووجدوا أنفسهم في موقعهم الطبيعي إلى جانب المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. لقد ذكر زملاء لكم في نداء نشرته صحيفة «لوموند» أن الثروات الثقافية الفلسطينية واللبنانية مهددة بالتدمير في بيروت. ان فيما قالوه، الحقيقة.

■

أنا أتفق تماماً، بل أحن، مع بسام أبو شريف، إلى الماضي الذهبي، حيث المفرق الشامخ عالياً بين الصواعق وخطوط القذائف والريح والمطر.. اتفق تماماً معه، بل أحن إلى بؤرة ظلت عصية حتى على مائتي ألف قذيفة في يوم واحد...

لكنه الاقتلاع. وبعد الاقتلاع يغدو البحث عن الجذور في البقعة ذاتها

كاللاجدوى، في الغالب. من الصعب، أن نلملم الآن، ألسنة ظلت تعلك «اللغة الجديدة التي تزدهر تجارتها هذه الأيام»، حتى لم تعد تعرف لغة سواها.

فلنبحث، إذن، عمن رفضوا تلك اللغة. وهم كثر.

وليس إلا واحداً منهم ذلك الصديق الذي رآه بسام من بين الأمواج ينادي بيده قائلاً: بالإمكان الابحار نحو الجزر الأخرى!

أجل... بالامكان الابحار.

متى نخطو الخطوة الأولى؟

يتساءل غسان مطر في «الكفاح العربي» : لماذا يمنع «خريف الغضب»؟ ومن الذي يمنعه؟ ثم يتابع تساؤله: «قبل (خريف الغضب) صدر (البحث عن الذات) لأنور السادات، سيرة ومواقف، فتجندت الصحف والاذاعات العربية والغربية لتمجيد المؤلف، وكتابة التاريخ وفق (الحقائق المقدسة) التي يرويها السادات في كتابه، وتهافتت دور النشر العربية والغربية على ترجمة الكتاب وطبعه وتوزيعه، دون أن يتساءل أحد عن صحة الرأي ودقة المعلومات وصحة الروايات . . فلماذا اعتبر (البحث عن الذات) كتاباً موحى به، واعتبر (خريف الغضب) كتاباً كافراً حاقداً؟ لماذا يحق لأنور السادات أن يكتب التاريخ وفق قناعاته ومصالحه حتى ولو شوه وحذف وأضاف، ولماذا لا يحق لهيكل أن يسجل رأيه، خصوصاً إذا كان هذا الرأي يعارض أحياناً ويناقض أحياناً أخرى ما رآه السادات وما رواه؟». لكأن غسان مطر يتمثل ببيت الجواهري:

يا دجلة الخير قد هانت مطامحنا حتى لادنى طماح غير مضمون

إن الصورة لكالحة إلى هذا الحد الذي يقبل فيه غسان مطر برواج كتاب السادات مقابل مطمح واحد هو أن يحق لهيكل تسجيل رأيه ونشره بين الناس.

هل نحن ديمقراطيون إلى هذه الدرجة، أم تراها النوافذ والمنافذ مغلقة حتى الاحكام بحيث نعتبر أي ضوء يتسلل نصراً باهراً؟

لقد امتنعت صحف، ومنعت أخرى، عن الاستمرار في نشر «خريف الغضب»، وأرغمت «الأهالي» على التوقف عن النشر، ولم يبق من صحف الوطن العربي إلا اثنتان تواصلان العملية هما «السفير» اللبنانية، و «الوطن» الكويتية. ونحن نعلم تماماً عدد الدول العربية التي لا تدخلها «السفير» اللبنانية، أما «الوطن» فربما تعرضت بسبب «خريف الغضب» إلى غضب العديد من أجهزة الرقابة التي تحسن «التنسيق» فيما بينها أكثر مما ينبغي. وحتى لو صدر «خريف الغضب» كتاباً، فلن يكون مصيره أفضل من مصير صحيفة تولت نشره مسلسلاً. هكذا يحرم المواطن العربي ـ ببساطة كابوسية ـ جزءاً قريباً من تاريخه ما يزال فاعلاً في عملية الحاضر. ان حكاماً عديدين ـ صنعوا بطريقة مماثلة لصنع السادات ـ قد نجوا من حكم المماثلة القاسي الذي سوف يتوصل إليه القارىء لو أتيح له الاطلاع على كتاب محمد حسنين هيكل.

قرأت لكاتب الصفحة الأخيرة من «النهار العربي والدولي» شتائم مقذعة موجهة إلى مؤلف «خريف الغضب»، وكانت الشتيمة الأكثر تردداً وقرباً لدى الكاتب هي «نابش القبور»، كأن أنور السادات قد دفن حقاً، وكأن سياساته ليست هي المتبعة، فعلاً، في جوانب أساسية من التحرك «العربي»...

لكني لم أفاجأ بكاتب الصفحة الأخيرة وهو يشتم محمد حسنين هيكل، فقد دأب صاحبنا على متابعة الشتيمة وتوزيعها حتى طالت أولئك المهجرين اللبنانيين الذين التجأوا إلى أبنية متداعية ببيروت هرباً من قوات الاحتلال الصهيوني... بل أولئك الذين بنوا لهم أكواخاً في ضواحي المدينة يأوون إليها مع أطفالهم بعد أن دك الطيران الاسرائيلي منازلهم البيروتية. ومن يدري، لعل مشنقة «حديقة الصنائع» أغرت هذا الكاتب المتحمس لعقوبة الاعدام بنصب مشانق إلى مدى البصر كي يتدلى من حبالها الوطنيون اللبنانيون...

وسط هذا كله، نفهم لماذا يطالب غسان مطر بالمساواة بين أنور السادات ومحمد حسنين هيكل، ولو في قضايا تتعلق بحقوق الإنسان: حرية الرأي والنشر مثلاً!

ماذا بإمكان المرء أن يفعل، إذن، داخل هذه الخيمة الحديدية؟

حمداً لله . . . فثمت دار نشر لندنية!

■

في الحوار الحيوي الممتع الذي يدور الآن في صحافة دمشق، قضايا تتصل مباشرة بما قدمته. انه حوار لم تشهد مثله دمشق منذ عهد بعيد، وهو حوار ساخن يشترك فيه مثقفون سوريون وفلسطينيون وعرب على أرضية حرة من الاجتهاد واختلاف الرأي، ومن بين الذين اشتركوا في هذا الحوار: حنا مينه ود. فيصل دراج و د. هاني الراهب و د. عبد الرزاق عيد وغالب هلسا، وقد تجتذب الدائرة الساخنة أسماء أخرى. قلت: ثمت قضايا في الحوار تتصل مباشرة بما قدمته، أي باختناق الكتاب العربي وكاتبه. يقول غالب هلسا مشيراً إلى زمن سعيد مضى:

«ابتداء من عشرينات هذا القرن حتى خمسيناته، كان السوق العربي مفتوحاً ـ بهذا القدر أو ذاك ـ لكتب طه حسين والعقاد والحكيم وغيرهم. كانت المجلة التي يصدرها أحمد حسن الزيات (الرسالة) مقروءة في المنطقة العربية كلها.

وحتى الستينات كانت أسماء الأدباء العرب معروفة على امتداد الوطن العربي، فماذا حدث؟ ان الأديب العربي يعلم الآن أنه إذا لم يكتب ضمن مواصفات معينة فإن ثلاثة أرباع السوق العربية مغلق أمامه. ان سياسة تسويق الكتاب أصبحت سياسة ثابتة للحكومات العربية، فهي تمنع (لأسباب أمنية) آلاف الكتب العربية من التداول في سوقها، لأن هذه الحكومات تعتقد أن الشعب الذي تسيطر عليه هو ملكها، بل ان حياته هبة منها.

وحتى نتأكد أن هذا الوضع مقصور على الكتاب فإن المشكلات التي

يواجهها الكتاب تختلف عن المشكلات التي تواجهها السلع الأخرى. لم نسمع أن تجار البطاطا والبصل والرقيق الأبيض والخمور يواجهون مشكلة كهذه».

ما العمل اذن؟

لقد دعا كل من د. فيصل دراج وحنا مينه إلى تسليع الكتاب، أو اعترفا بأن الكتاب سلعة. لكن السؤال هو: من سيكون القائم على تسويق السلعة؟

هل المجتمع العربي متجه إلى أن يكون برجوازياً ذا ليبرالية معينة تحل مسألة تسويق الكتاب؟، أم انه سيظل - إلى زمن طويل - ذا بنى متخلفة وحكومات تابعة و/ أو متسلطة بدرجة أو بأخرى؟ يعود غالب هلسا ليجيب: «لا أعتقد أن البرجوازية قادرة أو راغبة في القيام بهذا الدور. ان منحى تطور البرجوازية العربية هو التحول من برجوازية منتجة إلى رأسمالية طفيلية تنتعش عبر رأسمالية الدولة. لم يعد هناك حلول صالحة غير الحلول الجذرية، فما هو الدور الذي يمكن أن يقوم به الأديب العربي؟ هو أن يخوض المعركة السياسية، معركة الديمقراطية والعقلانية بأفق الحل الجذري، حتى يحقق بعض الحلول لمشكلة تسليع الكتاب، إلى أن يتحقق الهدف الجذري».

■

المشكلة قائمة حقاً، بكل تفصيلاتها القاتمة، وآفاقها الغائمة.

ويظل علينا نحن الكتاب التقدميين البحث عن أشكال نضالية أكثر تطوراً وتنوعاً ونحن نخوض «معركة الديمقراطية والعقلانية».

ومن أجل الديمقراطية والعقلانية، علينا أن نكون، نحن، أولاً وبالأساس، ديمقراطيين وعقلانيين.

والديمقراطية، في الثقافة، لها تجلياتها، كالديمقراطية في السياسة التي لها تجلياتها أيضاً.

ثمت تمايز نوعي بين تجليات الديمقراطية في الثقافة، والديمقراطية في

السياسة. ان الاحتكام إلى «الاستراتيجيا» في الثقافة والابداع، أوضح كثيراً من الاحتكام إلى «الاستراتيجيا» في السياسة.

أترى الأمر راجعاً إلى اتصال المسعى الابداعي، اتصالاً أوثق، بعالم المثل؟ الأن «الأخلاق» في العملية الفنية ذاتها، أساس لا يمكن تجاوزه إلا بحدوث خلل في العملية المعنية؟

ألهذا السبب، ألهذا الاحتراز، ألهذا الخطر، قال أفلاطون: الأخلاق أولاً ثم السياسة؟

وفي الصبوات السياسية العظمى في تاريخ البشرية... ألم يتحقق الدمج المرجو بين الأخلاق والسياسة؟

لكن الصبوات السياسية العظمى نادرة.

والمهم المهم أن تظل ملهماً، ونبعاً للدرس والدروس والتجارب.

■

قلت: من أجل الديمقراطية والعقلانية، علينا أن نكون، نحن، أولاً وبالأساس، ديمقراطيين وعقلانيين.

والديمقراطية تعني فيما أرى: الرأي، والرأي الآخر (أتحدث في الثقافة!).

الانتماءات ليست شهادات استثناء هنا.

فالأفكار لا تغدو مشروعاً إلا بالعمل التنافسي.

وما من امرىء (في الثقافة) يحمل، مفتاح الكون وحده.

لقد مضى زمن الصكوك. والفكرة الحديثة ليست كنيسة.

العقلانية تعني، فيما أرى: المعاينة.

وأقصد بالمعاينة هنا، قراءة الواقع، والتوصل إلى ثمار معرفية من هذه القراءة.

اللاعقلانية هي التعالي بالوهم على الواقع .

وأحياناً قد تكون فكرة علمية معينة (حين ينأى حاملها عن الواقع) عينة من اللاعقلانية .

■

أفكر فيما يمكن للكتاب التقدميين أن يفعلوه في هذا الزمن الصعب .

الا يمكن أن تنبثق ، من الشتات الهشيم ، نواة صلبة ، قوامها عدد محدود من الكتاب المناضلين لتكون البشير بأننا لم نفقد طاقاتنا بعد ، وبأننا قادرون على وضع هذه الطاقات في المسعى الجليل من أجل الحرية والديمقراطية والابداع ؟

ألا يمكن لهذه النواة الصلبة ، أن تجمع حولها ، كل من لم يطأطىء بعد ، رأسه؟

كل من لم تفسده ، بعد ، أذرع الاخطبوط الاعلامي البترو ـ دولاري؟

كل من لا يزال مؤمناً بـ «أخلاق» العملية الابداعية؟

ألا يمكن لهذه النواة الصلبة ، أن تكون أداة جذب للأجيال الشابة ، قبل أن يجهز الأخطبوط على احتياطي ثقافة الأمة؟

■

الأشكال النضالية مفتوحة .

لكن . . . متى نخطو الخطوة ، الأولى؟

الجبهة الثقافية التقدمية

في الثاني من آب (أغسطس) ١٩٨٢، كتبت نداء إلى كتاب العالم، نشرته مجلة «الحرية» بتاريخ ٩/ ٨/ ١٩٨٢.

ومما جاء في هذا النداء:

في هذه المنطقة، أيها الأخوة الكتاب، يعيش الكتاب العرب ويعملون، وبينهم كتاب من مختلف أنحاء العالم العربي، اختاروا هذا المكان لأنهم اختاروا الحرية، ووجدوا أنفسهم في موقعهم الطبيعي إلى جانب المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. لقد ذكر زملاء لكم في نداء نشرته صحيفة «لوموند» أن الثروات الثقافية الفلسطينية واللبنانية مهددة بالتدمير في بيروت. ان فيما قالوه، الحقيقة.

■

اليوم، وبعد مرور عام على الاجتياح الاسرائيلي، أرى ما ذكرته الصحيفة الفرنسية قد تحقق بشكل أو بآخر.

فالمؤسسات الثقافية الفلسطينية لم يعد لها موضع في بيروت، بل لقد حرم عملها تحريماً بموجب اتفاقيات شولتز، وأنتم تعرفون ما جرى لمركز الأبحاث التي يتمتع بـ «حصانة» مفترضة.

والمؤسسات الثقافية الوطنية اللبنانية تخوض نضالاً صعباً للغاية، وتضطر

إلى تقليص أنشطتها، والاعتراف القسري بحالة طوارىء شديدة الوطأة، كما أن ممثلي الثقافة الوطنية اللبنانية ونشطاءها يشعرون بالانكماش المتزايد لمساحة الحركة المتاحة، وبالمقابل، نرى الثقافة الرجعية ومؤسساتها تنال الدعم والتشجيع، وتحظى بالتمويل والتطبيل، وتتجلى في أشكال عجيبة غريبة تجمع بين الكوزموبوليتية واللاهوتية والمحلية الضيقة والطائفية والفاشية والخيانة.

أما المثقفون العرب الوطنيون، ومثقفو العالم المتعاطفون مع مطامحنا الثورية، فلم يعد باستطاعتهم حتى زيارة الأرض اللبنانية عبر ممرات خاضعة لمراقبة السلطة. وليس مصير باولا كروتشياني سوى مثال لما يتهدد هؤلاء المثقفين الأوروبيين.

ان تهمة «الارهاب» لم تعد موجهة إلى الفلسطينيين وحدهم، ما دام المصطلح مرادفاً لمعاداة الصهيونية. لقد اتسعت الدائرة إلى حد مذهل.

هكذا تريد أوساط عربية وغربية، وتريد «اسرائيل» أن تسلب الشعب اللبناني ولبنان، ذلك الدور المرموق الذي شهدناه منذ نصف قرن، دور الرئة التي يدخلها من الأوكسجين ما يفوق العالم العربي كله.

ان عملاً دائباً في هذا الاتجاه، منظماً، ويومياً، كالذي نلحظه الآن، كفيل بإضافة عنصر آخر خطير إلى عناصر عملية التفكيك، تفكيك الأمة، والوعي بالأمة. واستلاب الضمير الثقافي الذي ظل يوحدها قروناً وقرونا.

ان مركزة المجهود الثقافي العربي في بيروت ليست ظاهرة تراكم تجاري في الجوهر. فالعديد العديد من المجلات ودور النشر التي كانت تعمل هناك هي مرتبطة بمجهود سياسي لحركات وأحزاب كثيرة، وأن عدداً، غير قليل من تلك المجلات ودور النشر هي في حقيقتها منافذ لفكر يساري استطاع بنضاله أن يتوصل إلى منبر عملي.

لقد كانت بيروت الثقافية محاصرة قبل الحصار الصهيوني بفترة طويلة نسبياً.

وكانت دور النشر التقدمية تعاني من اغلاق متواتر للأسواق في وجهها، اغلاق اتخذ صوراً مختلفة تمتد بين المنع الصريح والتلكؤ في الدفع . . . بل لقد وصل الأمر إلى الاغتيال والتهديد بالاغتيال .

أبإمكاننا، إذن، الفصل بين الحصار السياسي/ العسكري، والحصار الثقافي؟

وهل بمقدور أحد أن يتصور عودة لبنانية إلى عنفوان النشر الثقافي على أسس تجارية محض؟ أسس غير سياسية؟

في رأيي أن ثمت عودة في لبنان إلى النشاط في ميدان النشر، وعلى أسس سياسية أيضاً، لكنها مناقضة في عمومها للأسس السياسية السابقة التي قامت عليها عملية النشر والازدهار الثقافي سابقاً. نقول سابقاً، ونحن مجروحو الأفئدة. ويظل لنا أن نقول، بالمباهاة كلها، والفخر كله، ان لنا زملاء ورفاقاً وأشقاء يناضلون في الأرض اللبنانية نضالاً شاقاً، ويؤكدون، يومياً، خياراتهم العميقة الحاسمة في وطن حر ديمقراطي موحد، وطن يرفد الثقافة العربية بالجديد والمثمر والمكافح. واننا لنسمعهم، ونقرأ كلماتهم الشجاعة، ونمحضهم الوفاء والعرفان. . . هؤلاء الزملاء والرفاق والأشقاء سيظلون يناضلون في ظروف شاقة.

■

وإذا كانت المؤسسات الثقافية الفلسطينية قد رحلت مع رحيل المقاتلين أو بعدهم بقليل، فإنها ـ حتى اليوم ـ لم تجد الأرض التي تطمئن إليها بعد. فالمجلة المركزية لمنظمة التحرير، فلسطين الثورة والمجلة المركزية لاتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين، الكرمل، تصدران خارج الأرض العربية، في قبرص. والمثقفون الفلسطينيون الذين جمعتهم يوماً المؤسسات الثقافية والاعلامية والسياسية الفلسطينية، عادوا مرة أخرى إلى الشتات وما يماثله. . . انهم في القارتين الأوروبية والأمريكية، وفي هذا الوطن العربي الممزق شعوباً وقبائل وطوائف. لم يعد المثقفون الفلسطينيون ذوي فاعلية

موحدة مثلما كانوا. انهم يفقدون من وزنهم قليلاً أو كثيراً. . . (أرخميدس أيضاً!).

هنا، نجد عزاءنا في نضال مثقفي الداخل كذلك.

قد يتبادر إلى الذهن اعتراض على حالة فقدان الوزن التي ذكرتها. وربما كان من أسباب هذا الاعتراض ما نراه ونسمع عنه من أنشطة إعلامية وندوات في أوروبا وآسيا وأمريكا، ومن معارض صور ورسوم في مكان أو آخر. حقاً. . . أن ثمت أنشطة، لكنها أنشطة علاقة لا فاعلية ثقافة. أنشطة انتفاع لا ارتفاع.

هل حقق العدو ضربته في الميدان الثقافي الفلسطيني؟

حتى الآن. . . لم تستوعب ضربته.

والخطوات المضادة لآثار الضربة لم تنطلق، بعد، في سبيل واضح. ثمت بدايات، وأفكار، وتطبيقات جنينية.

وهنا أيضاً، حين نربط الثقافي بالسياسي، نتفهم كثيراً العوامل التي سببت هذا البطء في الخطوات المضادة لآثار الضربة، وندرك ـ كما أدركنا في لبنان أن الثقافة الوطنية الفلسطينية ـ كالثقافة الوطنية اللبنانية ـ غرض يرمى.

■

ارتباطاً مع حركة المقاومة الفلسطينية، منذ ولادتها، واعتماداً على قوة الحركة الوطنية اللبنانية ونفوذها الثقافي والاعلامي، نشأ جيل من المثقفين العرب مختلف عن أجيال سابقة. إذ استمد قوة استمرار ودفع هائلة من الواقع الفلسطيني/ اللبناني. كتبت في عدد كانون أول ١٩٨٢ من مجلة «الطريق» أن: المقاومة الفلسطينية، حتى ونحن بعيدون عنها في أقطارنا، كانت تشكل حصانتنا الأخيرة من أدواء تتهددنا، وأوضار تحاصرنا. كان عنادنا في وجه القمع والفظاظة بضعة من عنادها. وهي ملتجأنا الكريم حين يلح العسف ويستشرس. أجيال من المثقفين العرب أقامت ارتكازها وتوازنها الصعب على جذع المقاومة. . . لقد انقذت المقاومة الفلسطينية هذه

الأجيال من المستنقع المحيط، وضمنت لها إمكان الابداع والاستمرار والحفاظ على علو الجبين وكرامة الفرد الحر، فماذا نفعل الآن؟.

■

إذن، نحن أمام صورة ما بعد الاجتياح.

الخطر يتهدد الثقافة الوطنية اللبنانية، والفلسطينية، وأولئك المثقفين العرب الذين ارتبطوا بتلاحم الثقافتين.

■

لكن ثمت خطراً لا يجري الحديث عنه، لأنه دائم، محيط، داخل، متداخل... وهو خطر الأنظمة العميلة و/ أو المتسلطة على الثقافة العربية هذه الأنظمة التي تمارس - بصورة يومية مألوفة - عداءها وقمعها لكل نبض صحي في الثقافة العربية.

ويغدو من «فولكلور» الكلام، تفصيل ما فعلته وتفعله هذه الأنظمة، وما يتعرض له المثقفون العرب، في ظلها الثقيل، من عسف وعنت وشبه إبادة روحية.

■

هذه الأنظمة المرتبطة في الذهن بكل ما هو معاد للثقافة والحرية وحقوق الإنسان، لم تعد قادرة - إلا بالشراء - على اجتذاب المثقفين، حتى هؤلاء «يحترقون» سريعاً كالهشيم في النار، فلا يعود لهم ذلك الأثر المرجو، وتلك الكلمة المسموعة. لهذا لجأت الأجهزة السرية التابعة للأنظمة المعنية إلى خطط جديدة، أخذت تتضح بداياتها في باريس ولندن وبعض المعاهد والمراكز الأمريكية. ان الأجهزة السرية تدفع إلى الواجهة بعدد من المثقفين «اليساريين»، أو الذين كانوا مرتبطين يوماً ما بحركات ثورية ثم نكصوا، تدفعهم إلى الواجهة، وتمنحهم «حرية» إصدار بيانات ضد قمع غامض، غير مشخص، مجرد من الزمان والمكان، بيانات تساوي بين الضحية والجلاد،

وتدعو إلى «تجمع» ليبرالي في الظاهر، في محاولة لإخلاء الساحة الثقافية من بقايا المتمردين، وشراذم المنادين بالثورة، الذين لم يدخلوا، بعد، «بيت الطاعة». . ومن المؤسف أن يدخل في هذه الخطة الممولة جيداً، أناس كنا نكن لهم، إلى وقت قريب، احتراماً ما.

من أطروحات الواجهة الممولة قولها بالنص تقريباً: ان المعارضة ليست أقل مسؤولية عما نحن فيه من الأنظمة!.

أي سماء إلهية، إذن، تحدرت منها هذه المجموعة أو المجموعات المقيمة سعيدة، في باريس ولندن والولايات المتحدة الأمريكية؟

■

في أوضاع كالتي نحن فيها، يلحق الشلل بالاتحادات الثقافية المجازة، أو تلحق تماماً بأجهزة اعلام الأنظمة، والأجهزة السرية المختلفة... وإذا استطاع اتحادان ـ مثلاً ـ أن يداورا ويناورا كي يحفظا ماء الوجه، فإنهما غير مستطيعين أن ينهضا بالمهمات الكفاحية التي ينبغي أن ينهضا بها، دفاعاً عن الحرية، وشجبا للظلم والقهر.

■

وسط هذه العتمة المحيطة، والخطر المتزايد على الحركة الثقافية المناضلة، وسط إغراءات البترو ـ دولار، ومناهضة الثورة باسم الثورة، محاربة المعارضة باسم المعارضة.

وسط الشتات، ومحاولة فرض اللاجدوى.

ومن أجل موقف أكثر وحدة وصراحة وفاعلية، تأتي الدعوة إلى:

الجبهة الثقافية التقدمية.

وسوف يكون من النافع، بل الضروري، تبادل الرأي، بمختلف السبل، حول الطرق المثلى لبلورتها في صيغة عملية.

الجبهة الثقافية التقدمية أيضاً

للخروج من العتمة، من حالة الشتات واللاجدوى، ومن أجل حركة ثقافية تقدمية أكثر حرية وصراحة وفاعلية، جاء المقترح بالعمل على بناء «الجبهة الثقافية التقدمية». وليس إسهاباً في هذا المجال أن يورد المرء مزيداً من الضرورات التي تستدعي بناء هذه الجبهة المنتظرة. ما دام الأمر مطروحاً لنقاش عام.

● اتساع القمع والتجهيل

مع التردي المستمر لإمكانات الفعل لدى قوى التغيير، واستيلاء عناصر منتهية تاريخياً على السلطة في بعض البلدان العربية، وبغية تمهيد السبل وإخلاء الساحة أمام الموكب الأمريكي وحلفائه، تستمر منذ أكثر من عشر سنين إجراءات منسقة إزاء الثقافة الوطنية، بلغت درجة التنسيق فيها مستوى السياسة الثقافية في هذه البلدان. لا حاجة إلى تكرار أن هذه الاجراءات معادية للثقافة الوطنية. لكن ثمت حاجة حقيقية إلى أن نذكر أن الاجراءات المذكورة لم يسبق لها مثيل حتى في فترة الحكم الاستعماري المباشر، والحكم الاستعماري غير المباشر (الوصاية، الانتداب . . . الخ). لقد نفي محمود سامي البارودي، مثلاً، لكن . . . هل قام أحد بإحصاء عدد المثقفين المصريين المنفيين الآن؟

انني لم أذكر إلا جانباً واحداً مما تتعرض له الثقافة مجسداً فيما يتعرض له

المثقفون. ولو أسهب المرء في الحديث لاضطر إلى كتابة «طبائع الاستبداد» من جديد.

ومع القمع المنهجي لممثلي الثقافة الوطنية، تنتظم منهجية تجهيل الناس، فحواجز الكتاب صارت من التعدد والتنوع بحيث لا يتخطاها حتى أمهر الحواة. بل لقد غدا الكتاب السلعة الوحيدة التي تحرم مباشرة حين يدخل المسافر بلداً. ان الكتاب يصادر رأساً، وبلا أخذ ورد، بينما تتسرب أشرطة البورنو وشحنات المخدرات كالماء بين الأصابع. هكذا تغلق حدود البلد بالشمع الأسود، ويتعرض الناس داخل هذه الحدود إلى عملية تجهيل واسعة تريد أن تبقيهم خارج الوعي... خارج التاريخ. ان الحاكم المنتهي تاريخياً، يريد أن يضع محكوميه بمنأى عن العملية التاريخية. يريد أن يظل خالد الحكم على أناس خالدي المحكومية.

الأمر محزن، والأشد مبعثة على الحزن أن سياسة التجهيل الواسعة التي استمرت هذه السنين الطويلة، قد فعلت فعلها بدرجة أو بأخرى، وسوف نكون مخطئين إذا تصورنا أن الناس سيرحبون بكتبنا ترحيباً صارخاً لو سمح لها باجتياز الحواجز ولو مرة واحدة... من يضمن لنا أن أناساً لن يتنادوا لجمع كتبنا وإحراقها في الساحة العامة؟

ألم نقرأ «بلد العميان»؟

لا أريد المبالغة. لكنني في الوقت ذاته لا أريد الاستكانة إلى الوهم، ان الاستخلاصات القاسية هي نتيج واقع قاس لا نملك إلا الاعتراف به وبنتيجه. هذه الاستخلاصات ذاتها هي التي تمنحنا القدرة على اختيار الأساليب النضالية المناسبة، وهي التي تجعلنا نفرق بين الثوري وغير الثوري فيما نفعله ونقدم عليه. أنه لأسى فادح أن يكون بيننا حتى الآن من يعتقد بإمكان إصلاح الحالة في هذا البلد المغلق أو ذاك عن طريق تخفيف الحواجز، أو التسلل إلى مكتب وكيل وزارة، أو التودد سياسياً من أجل التمرد ثقافياً!

كل الأمثلة التي نتذكرها تقول بالغلبة السياسية...

● **تردي الوضع المهني والاجتماعي**

المثقف العربي بين اختيارين : إما أن يرضى بشظف العيش والابتعاد عن دائرة النشاط الثقافي المتاح . أو أن يبيع ضميره للاعلام الرجعي وأجهزته فيحصل على ما تلقيه هذه الأجهزة من فتات . وينشغل بالدوامة الكبيرة للنشاط الاعلامي الرجعي وأذرع أخطبوطه الكثيرة .

هذان الخياران صحيحان . نظرياً ، إلى حد ما .

لكن التطبيق حقق سيادة الخيار الثاني على الأول . فالاعلام الرجعي الذي يموله البترو ـ دولار جيداً ، بل تمويلاً خارقاً تجاوز حتى مقاييس الكلفة الأوروبية البرجوازية . هذا الاعلام وضع أمامه هدفاً واضحاً ، هو شراء أكبر عدد ممكن من الكادر الثقافي العربي ، بغض النظر عن الانتماء أو الميل ، ما دام هذا الكادر المشترى سوف يكون منفذاً لخطط الأجهزة الخاصة . . . وما دامت عملية الشراء سوف تحقق النزيف المرجو ، الذي يحرم الثقافة الوطنية من تطورها الطبيعي . ويقضي على احتياطيها : البشري والفكري ، ويجعل من الانقطاع عن الأسس التقدمية لهذه الثقافة أمراً واقعاً .

فإذا حرمت طه حسين وأحمد أمين وسلامه موسى مثلاً ، وحرمت حسين مروة وأدونيس وعبدالله العروي . . . واشتريت ـ أي قطعت ـ ما يسمى «القمة النامية» . في النبات ، استطعت أن تلحق بعملية التطور الثقافي ضرراً فادحاً يبلغ حد الخلل الفعلي .

■

● تشتت المثقفين التقدميين

كان بإمكان المثقفين التقدميين أن يقولوا أشياء ، أو يفعلوا شيئاً .

لم يتشتتوا هذا التشتت الذي نراه . فهم إما في اتحادات محلية أو منظمات مهنية خاضعة في مواقفها لضغوط ومعادلات غاية في القسوة . أو أن الواحد منهم يحارب وحيداً حربه الخاصة في زمن لا يكنّ لدون كيشوت

(الفارس الوحيد) احتراماً كبيراً. أحياناً نحس بانتفاضات الطيور الجريحة. في هذا المكان أو ذاك، في باريس، أو الرباط، في مجلات صغيرة أو نشرات بالرونيو يصدرها مثقفون مصريون في تجمعات محدودة هنا وهناك. تمتد من المدن العربية حتى مقاهي استكهولم. لكن هذه الانتفاضات، انتفاضات الطيور الجريحة، تظل في محدوديتها، ما دامت لا تجد الهواء الذي يساعدها في النماء والتطور ومغالبة المصاعب والمتاعب. كما أن المجموعات الصغيرة، بوسائلها المحدودة، وخبرتها القليلة، قد تغدو هدفاً سهلاً للأجهزة الرجعية، في محاولة القضاء عليها، شراء، أو قمعاً، وحتى اغتيالاً، وفي ممارسة الضغوط على سلطات الدول التي يقيم فيها أفراد المجموعات المذكورة.

كما أن الأجهزة الخاصة للأنظمة الرجعية، تستغل معارضة مجموعة ما لنظام معين. فتحاول عن طريق نظام آخر، رجعي أيضاً، أن تدفع هذه المجموعة إلى مصالحة أو موالاة النظام الآخر الذي لا يختلف في توجهه وجوهره عن النظام الأول الذي تعارضه المجموعة المذكورة.

ان ثمت أمثلة غير قليلة في هذا المجال.

ولا سبيل إلى درء الخطر إلا بخطوة عملية أساسية تضع البديل السليم لتشتت المثقفين التقدميين.

■

● **حالة اتحادات الكتاب العرب**

قد يقول قائل ان نسبة كبيرة من المثقفين العرب منضمون إلى اتحادات للأدباء والكتاب العرب، وهي اتحادات مؤسسة في معظم البلدان العربية، وتحظى بالدعم والتأييد من السلطات المعنية، وتعقد اجتماعات ومؤتمرات، محلية وعربية، وتصدر بيانات... الخ.

لكننا نعلم جميعاً مدى الضغوط التي تتعرض لها هذه الاتحادات، ونعلم

جميعاً أن الدعم المادي الذي تقدمه السلطات، تدفع الاتحادات ثمنهَ باهظاً من حريتها، وإمكان حركتها، وقدرتها على إبداء وجهة نظر مخالفة، قليلاً أو كثيراً، لممارسات هذه السلطات في الميدان الثقافي. أو ميدان الحريات الديمقراطية.

حتى الآن لم يصدر اتحاد محلي، أو مؤتمر للأدباء العرب، قائمة، أية قائمة بأسماء المعتقلين والممنوعين والمنفيين من المثقفين العرب. بل لم يجر احتجاج ملموس واضح على منع كتّاب أو كتب، أو صحف، أو مجلات، حتى المجلات التي تصدرها الاتحادات ذاتها.

■

● الحاجة إلى مركز

كانت بيروت - بالرغم من وجود الأمانة العامة لاتحاد الأدباء العرب - المركز الحقيقي للحركة الثقافية العربية، الأكثر حرية. والأقل تكبيلاً بالقيود.

ومع أن بيروت ذاتها كانت «مرتعاً» للأجهزة السرية للأنظمة. إلا أن هذا المرتع لم يكن بالخصوبة التي تتمناها هذه الأجهزة. أولاً بسبب طبيعة المثقفين المتواجدين في الساحة اللبنانية - الفلسطينية، وثانياً لامتلاك الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، السلاح، الذي تستطيع به أن تردع هذه الأجهزة، وأن توجه إليها ضربات، موجعة أحياناً.

كما أن بيروت، باعتبارها مركزاً إعلامياً مفتوحاً، كانت قادرة على تحويل عمليات الأجهزة إلى فضيحة عالمية فعلاً، وهذا ما تتحاشاه الأنظمة الرجعية وأجهزتها، وتتفاداه إلا في الضرورة القصوى.

أما الآن، وقد افتقد المركز، فإن الحاجة إلى مثله تبرز بإلحاح واضح وضروري. إذ ليس من المعقول أن تترك حركة ثقافية واسعة، تمثل ضمير الأمة، وتوحد مقاومتها، وتدرأ عنها انهيار القيم، وهجمة العدو... ليس من المعقول أن تترك هكذا، ضحية سهلة، في مهب الريح.

من أجل هذا أيضاً. . .
من أجل بلورة مركز جديد للتنسيق والفعل . . .
من أجل الحفاظ على ما أنجزناه والاعداد لما ننجزه وسننجزه . . .
من أجل هذا كله . . .
يكون لـ «الجبهة الثقافية التقدمية» عنوانها الكبير وعنفوانها المرتقب .

الجبهة الثقافية التقدمية . . . ثالثاً

أية صيغة عملية يمكن أن تتخذها هذه الجبهة؟ ما دائرة أنشطتها؟ كيف تبدأ؟ وكيف تتسع؟ أية مساحة للإتساع، وأي سقف للارتفاع؟

وهناك أسئلة كثيرة أخرى لا بد أن تجد طريقها إذا أراد أحد أن يقلب الأمر على وجوهه، ربما استعداداً للانتقال من دورة القول إلى دائرة الفعل.

وما دامت المسألة مطروحة للنقاش العام، فإنني أود الاسهام في هذا النقاش أيضاً، متناولاً «الصيغة العملية» للجبهة الثقافية التقدمية المنتظرة:

● توسيع النقاش

حين بدأت «الثوري» تنشر هذه الاسهامات المتصلة بـ «الجبهة»، كان من المفضل أن يتقدم عدد من المثقفين بآرائهم إغناء للموضوع، واستمراراً في إحيائه، وحيويته، وتثبيتاً له أمام المهتمين جميعاً. ان الوقت ما يزال مناسباً، بل منتظراً إسهامات جديدة، تؤكد مبالاتنا، وسعينا إلى إطار جديد للعمل.

ومن المفيد أن تقوم المنابر التقدمية في الوطن العربي بدورها في هذا المجال، أولاً كي لا يقتصر الأمر على صحافة بلد واحد، وثانياً كي يسهم مثقفون من بلدان عربية (مختلفة الظروف) في هذا النقاش، سعياً وراء تصور واقعي للنشاط المقبل. وثالثاً كي يكون التحضير لتأسيس الجبهة عملاً

ديمقراطياً واسعاً، أمام الأنظار الشاخصة، لا خلف الأبواب المغلقة.

وفي رأيي أن مدى نقاش مثل هذا ينبغي ألا يكون محدداً محدوداً بصيغة واحدة، هي صيغة النشر الصحافي، إذ من الممكن للهيئات الثقافية وتجمعات المثقفين أن تعقد لقاءات وندوات مفتوحة تتناول الموضوع بالتدقيق والتفصيل، بغية التوصل إلى نتائج ملموسة تعيننا جميعاً في بلوغ التصور المطلوب.

● نشاط الجبهة

في مقالين سابقين، كنت أشرت إلى الضرورات التي تجعل من قيام هذه الجبهة واجباً عربياً ملحاً. ولست أجد أي لزوم لتكرار ما كتبته أو تلخيصه.

ما يهمني، الآن، هو تقديم تصوري لنشاط الجبهة وآفاق هذا النشاط.

أرى أن هذا النشاط سيكون ذا جانبين:

جانب ثقافي، وآخر سياسي عام.

يغطي الجانب الثقافي مساحة واسعة، ذات أشكال عمل متنوعة، بدءاً من الدفاع عن حرية الفكر (منظمة عفو عربية)، حتى إصدار المطبوعات المختلفة وإقامة الأنشطة الثقافية الأخرى، في المنطقة العربية وخارجها.

أما الجانب السياسي العام، فيشدد على متطلبات المعركة وظروفها التي تزداد صعوبة وتعقيداً مع الأيام.

ان الجبهة الثقافية التقدمية قادرة على القيام بدور فاعل في المسعى السياسي التقدمي العام الذي يوحد الجماهير العربية حول أهداف واضحة. وقد تكون هذه الجبهة أقل حاجة إلى التلميح، وأكثر قدرة على التصريح، بسبب من تكوينها نفسه، وطابعها التوحيدي، وبسبب من أنها ستكون ذات ارتباطات مدروسة جيداً، بحيث لا تغدو هذه الارتباطات عقبة أمام حركتها وتحريكها في أحد الأيام.

لكن كيف يكتسب عمل المنظمة السياسي مصداقيته؟ لقد بذلت مساع

سابقة من أجل التوصل إلى نداء عام (مؤتمر الشعب العربي مثلاً) . . . إلا أن هذه المساعي أخفقت لأسباب واضحة، من بينها طبيعة الارتباطات، والتساهل في الحيثيات.

ان الجبهة المنتظرة لن تكون تركيبة تلفيقية. وهذا أمر ينبغي التشدد فيه حتى الحد الأقصى.

● كيف يبدأ العمل؟

بعد أن تستكمل النقاشات شوطاً كبيراً، وتتضح أمام المهتمين والناس عموماً، أهداف الجبهة، وأساليب عملها.

بعد أن يخرج الأمر عن حدود المفاجأة والسرعة العصبية واللفلفة . . . بعد أن تكتسب المنطلقات مشروعية الاعتراف.

بعد هذا وغيره، يجري تكوين نواة أساسية صلبة، من عدد محدود من الشخصيات الثقافية ذات الوزن والتأثير والتضحية، لتأخذ على عاتقها مهمة الدعوة إلى تأسيس الجبهة، وإعداد بيانها، ومن ثم الاعلان عن تأسيسها. وتظل هذه النواة الأساسية تقوم بدور أساس في الاعداد للأنشطة المقبلة، وفي بلورة الهيكل التنظيمي للجبهة، بصبر وأناة، حتى يكون هذا الهيكل متناسباً والواقع الفعلي لنمو الجبهة وتطورها.

نحن لسنا بحاجة إلى أن نضيف ركاماً على ركام. نحن لا نريد أن نلحق هذه الجبهة بالعديد من الصيغ التي ولدت ميتة، وكانت أدوات تفريق لا تجميع، وبنى ذات أساس واه، وعلائق مشوشة مشوهة.

أعتقد أن العمل المتواضع الدؤوب سوف يجيب عن هذه الأسئلة. ونحن لا نملك طائرات، ولسنا قادرين على استئجار طائرات نشحنها بالهتافين والمرتزقة . . .

نحن لا نملك إلا طاقة واحدة. طاقة النضال. وهي القادرة على صنع المعجزات مع أن ما نريده ليس معجزة بأي حال.

● **إلى من تتوجه الجبهة أولاً؟**

تتوجه الجبهة أولاً إلى المثقفين. ففي هذه المرحلة من تطورنا الاقتصادي والاجتماعي يكون للمثقفين ثقل نوعي واضح... وهذا الثقل جلي، لدى الرجعيين والتقدميين، داخل التنظيمات، الرجعي منها والتقدمي، وفي مجمل العملية الاجتماعية.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن هذه الجبهة «ثقافية تقدمية» يكون هذا التوجه طبيعياً جداً، وبعيداً عن أية حساسية ممكنة.

لكننا لا نتوجه في أول الأمر إلى المثقفين جميعاً. إننا نبحث عن النوعية. نبحث أولاً عن مثقفين صمدوا بوجه الطغيان، والعنت، ونالوا اعتراف الناس وشهادتهم. نبحث عن مثقفين رفضوا أن يبيعوا ضمائرهم للرجعيين. مثقفين وقفوا ضد المؤسسات الثقافية الاستعمارية. مثقفين لم يتورطوا باضطهاد المثقفين التقدميين.. مثقفين لم يكونوا حواة أو لاعبين على حبال السرك.

وإلى هذا كله، ومع هذا كله، نضع شرطنا، وهو أن يكونوا مثقفين حقاً.

قد يقال رأي يتضمن اقتصار عضوية الجبهة على المبدعين. ربما كان من دوافع هذا الرأي تحصين الجبهة إزاء الكم المختلط والادعاء.

لكني أرى أن الأخذ به سوف يفرض عزلة معينة على جبهة نريدها واسعة، قادرة على التأثير الواسع، مستفيدة من تنوع اختصاصات أعضائها من أجل النهوض بمهماتها التي ستكون شديدة التنوع.

فلو افترضنا أن جانباً من نشاط الجبهة سيكون في «منظمة عفو عربية»، فإن مثل هذه المنظمة لا بد أن تضم حقوقيين وأطباء ونقابيين وعلماء...

إلا أن الجبهة، في خطواتها الأولى، ينبغي أن تدقق التدقيق كله في القبول، وأن تطبق التطبيق كله، شروطها الواضحة.

● كيف تتسع الجبهة؟

تتسع الجبهة، باديء ذي بدء، عن طريق الانضمام الفردي.

وفي مجرى نشاطها ومعاركها سوف تكتسب هويتها وعمقها. تكتسب علائق جديدة تبلورها حركتها هي في المجتمع، وحركة المجتمع نفسه.

آنذاك يكون لاتساعها طابع نوعي. أي قد يكون الانضواء تحت لوائها غير فردي.

من الممكن مثلاً أن تنضم إليها اتحادات أدبية وثقافية وجماعات علمية ومهنية.. لكنها لا تريد أن تفقد طابعها الثقافي. لا تريد أن تكون حزباً سياسياً، أو واجهة لحزب. انها ملك حركة التحرر العربي كلها، تتحمل مسؤوليتها أمام هذه الحركة، لا أمام حزب معين، مع أنها ستضم - بالتأكيد - أفراداً وممثلي اتحادات وجماعات ذات علاقة بهذا الحزب أو ذاك.

وكيف تتسع الجبهة أيضاً؟

تتسع الجبهة في خضم معاركها. أي انها تتسع باتساع دائرة أنشطتها. فإذا اعتبرنا إصدار البيانات شكلاً متواضعاً من الأشكال النضالية، فإن القيام بتظاهرة - مثلاً - سوف يضفي على أنشطة الجبهة عنصراً جديداً يفتح لها آفاقاً جديدة، وكذلك نجاح الجبهة في إقامة علائق عالمية، أو تنظيم الندوات والحلقات الدراسية والاحتجاجات، ونشر المطبوعات... الخ.

ان الأساس الديمقراطي لتكوين الجبهة، وهو أساس تنبغي المحافظة عليه، ذو قدرة كامنة مستمرة على إبداع منافذ متجددة لأنشطة الجبهة، وهو الذي سيظل يضمن حيويتها، والتصاقها بالناس، وتناول المشكلات الأكثر إلحاحاً.

ان الجوهر الديمقراطي لبنية الجبهة وعملها هو الذي سيصونها من التشوش، ويمنح أنشطتها ومواقفها المصداقية المطلوبة.

● والآن . . . ماذا نفعل؟

لا أعتبر إسهاماتي الثلاثة في الدعوة إلى «الجبهة الثقافية التقدمية» صرخة في فلاة، أو صيحة في واد لا تعود إلا بالصدى على من أطلقها. فهذه الدعوة لم تأت تململاً أو ضيقاً. إذ سبقتها اتصالات ومشاورات مع عدد من المثقفين العرب البارزين، القادرين على تحمل المسؤولية في هذا الوقت بالذات، وهم فعلاً يتحملونها في هذه الأيام الصعبة.

ولست أفضح سراً حين أذكر أن الاتصالات بدأت منذ عام وأكثر قليلاً، وأن هذه الاتصالات لم تنقطع، وإن لم تتخذ الوتيرة المطلوبة. وكان من المقرر أن تتكثف المشاورات في أواسط يونيو الماضي لولا تعقيدات برزت في الساحة العربية أدت إلى تأجيل هذه المشاورات.

أما الآن، فقد اكتسبت الاتصالات طابعاً أكثر عملية.

لكنني أؤكد ـ ثانية ـ أهمية استمرار النقاش في موضوع «الجبهة» أهمية أن يظل الموضوع قائماً، مغتنياً مع وجهات النظر والآراء المتبادلة. ففي مشروع ديمقراطي كبير مثل هذا يتحمل المثقفون التقدميون جميعاً مسؤولية العمل من أجله، وإنجاحه، والسير به قدماً.

■

أما زال بعضنا يتذكر «مؤتمر الخريجين» في أواسط الخمسينات؟

لقد كان الهجوم الاستعماري الصهيوني في ذروته . . .

وقد أدى «مؤتمر الخريجين» دوراً مرموقاً في التصدي لهذا الهجوم.

الجبهة الثقافية الديمقراطية

يدرك المثقفون العرب الوطنيون، على اختلاف اتجاهاتهم وإيديولوجياتهم، مدى الخطر الذي يتهدد الثقافة الوطنية والحرية: حرية الفكر والابداع والبحث العلمي، هذا الخطر المندفع في انقضاضه الذي يتوج بنادق المحتلين من أمريكيين واسرائيليين، كما يتوج بنادق الرجعية العربية التي أتقنت الهجوم على الديمقراطية منذ عقود.

ان قضية الديمقراطية تحضر الآن ـ خصوصاً الآن ـ كل القضايا التي نذهب من أجلها إلى خنادق الحياة.

المعركة من أجل الديمقراطية تعني ـ توا ـ معركة التحرر الوطني، ومعركة التحرر الاجتماعي، وتعني ـ توا ـ القتال من أجل حرية الابداع، إبداع الكلمة الحرة، والفن الحر، والفكر الحر، والحب الحر، والفرح الحر، والحزن الحر أيضاً.

نحن الآن في صورة ما بعد الاجتياح... في صورة الاجتياح المستمر.. لكل مكاسب حركة التحرر العربي منذ الحرب العالمية الثانية حتى أوائل السبعينات.

والخطر لم يعد يتهدد الثقافة الوطنية اللبنانية وحدها، أو الثقافة الفلسطينية وحدها، بل هو يتهدد الآن مجمل المنجز الثقافي العربي. هذا

الأمر كفيل بإضافة عنصر جديد خطير إلى عناصر عملية التفكيك، تفكيك الأمة، والوعي بالأمة، واستلاب الضمير الثقافي الذي ظل يوحدها قروناً وقرونا. وهنا يتضافر المسعى الاستعماري والمسعى الرجعي. فالأنظمة تمارس ـ بصورة يومية مألوفة ـ عداءها وقمعها لكل نبض صحي في الثقافة العربية.

ويغدو من «فولكلور» الكلام، تفصيل ما فعلته وتفعله هذه الأنظمة، وما يتعرض له المثقفون العرب، في ظلها الثقيل من عسف وعنت وشبه إبادة جسدية وروحية.

ومع القمع المنهجي، المتعدد الأشكال، للثقافة الوطنية، وممثلي الثقافة الوطنية، تنتظم منهجية تجهيل الناس، فحواجز الكتاب صارت من التعدد والتنوع بحيث لا يتخطاها حتى أمهر الحواة، بل لقد غدا الكتاب السلعة الوحيدة التي تحرم مباشرة حين يدخل المسافر بلداً. هكذا تغلق حدود البلد بالشمع الأسود، ويتعرض الناس داخل هذه الحدود إلى عملية تجهيل واسعة تريد أن تبقيهم خارج الوعي، خارج التاريخ.

ان الحاكم المنتهي تاريخياً يريد أن يضع محكوميه بمنأى عن العملية التاريخية. يريد أن يظل خالد الحكم على أناس خالدي المحكومية. والمثقف العربي بين خيارين: اما أن يرضى بشظف العيش والابتعاد عن دائرة النشاط الثقافي المتاح، أو أن يبيع ضميره للاعلام الرجعي وأجهزته، فيحصل على ما تلقيه هذه الأجهزة من فتات، وينشغل بالدوامة الكبيرة للنشاط الاعلامي الرجعي وأذرع أخطبوطه الكثيرة. وما دامت الحال هكذا، فإن من الاستهانة أن نترك الأمور تجري على هذه الصورة، بدون أن نبذل جهداً منظماً نضالياً للحيلولة دون الانتصار النهائي للخطة الرجعية في الميدان الثقافي التي هي جزء من الخطة الرجعية في الميدان العام.

كان بإمكان المثقفين أن يقولوا أشياء، أو يفعلوا شيئاً، لو لم يتشتتوا هذا التشتت. ولا سبيل إلى معالجة الأمر إلا بخطوة عملية أساسية تضع البديل

السليم لتشتت المثقفين .

كانت بيروت المركز الحقيقي للحركة الثقافية العربية ، الأكثر حرية ، والأقل تكبيلاً بالقيود . أما الآن وقد افتقد المركز ، فإن الحاجة إلى مثله تبرز بإلحاح واضح وضروري . إذ ليس من المعقول أن تترك حركة ثقافية واسعة ، تمثل ضمير الأمة ، وتوحد مقاومتها ، وتدرأ عنها انهيار القيم وهجمة العدو ، ليس من المعقول أن تترك هكذا ، ضحية سهلة ، في مهب الريح .

■

كل ما تقدم تم تداوله في نقاشات ولقاءات لعدد من الأدباء العرب ذوي الصوت المسموع نخبوياً وجماهيرياً ، كما تناولته الصحافة في بيروت ودمشق وعدن ، وما زال يحظى باهتمام ، ومتابعة .

وقد أسفرت النقاشات واللقاءات عن ضرورة العمل على تكوين «الجبهة الثقافية الديمقراطية» .

ان المثقفين الوطنيين ، والديمقراطيين ، والتقدميين ، مهتمون بولادة الجبهة . هذا ما بدا واضحاً في اللقاءات . لكننا لسنا بحاجة إلى أن نضيف ركاماً إلى ركام ، نحن لا نريد أن نلحق هذه الجبهة بالعديد من الصيغ التي ولدت ميتة ، وكانت أدوات تفريق لا تجميع ، وبنى ذات أساس واه ، وعلائق مشوشة مشوهة .

نحن نريد أن نبني بما تبقى من طاقاتنا الحية ، هذه الجبهة المنتظرة . ونحن لا نملك إلا طاقة واحدة ، طاقة النضال ، وهي القادرة على صنع المعجزات ، مع أن ما نريده ليس معجزة بأي حال .

أي نشاط تقوم به الجبهة ، وما آفاقه؟

أظهرت المداولات والاتصالات أن نشاط الجبهة سيغطي الجانب الثقافي مساحة واسعة ، ذات أشكال عمل متنوعة بدءاً من الدفاع عن حرية الفكر والحريات العامة (منظمة عفو عربية) حتى إصدار المطبوعات وإقامة الأنشطة .

ان الجبهة الثقافية الديمقراطية قادرة على القيام بدور فاعل في المسعى الوطني العام الذي يوحد الجماهير العربية حول أهداف واضحة. وقد تكون هذه الجبهة أقل حاجة إلى التلميح، وأكثر قدرة على التصريح.

لكن الجبهة ليست حزباً سياسياً، أو واجهة حزب. إنها جبهة مستقلة، تتحمل مسؤوليتها أمام ضمائر المثقفين أنفسهم، لا أمام حزب معين، مع أنها ستضم - بالتأكيد - أفراداً من اتحادات وجماعات ذات علاقة بهذا الحزب أو ذاك.

ان الأساس الديمقراطي لتكوين الجبهة، وهو أساس تنبغي المحافظة عليه، ذو قدرة كامنة مستمرة على إبداع منافذ متجددة لأنشطة الجبهة، وهو الذي سيظل يضمن حيويتها، والتصاقها بالناس، وتناول المشكلات الأكثر إلحاحاً. ان الجوهر الديمقراطي لبنية الجبهة وعملها هو الذي سيصونها من التشوش، ويمنح أنشطتها ومواقفها المصداقية المطلوبة.

من هنا جرى التأكيد في المداولات واللقاءات على ضرورة أن تكون البنية التنظيمية للجبهة منفتحة غير تقليدية وأن يكون الانضمام إليها طوعياً، والالتزام إزاءها التزام فكر لا تنظيم. فالجبهة ليست إتحاداً. انها تجمع ديمقراطي حر متفتح مفتوح.

آمل في أن نستطيع الاستمرار في بحث تأسيس «الجبهة الثقافية الديمقراطية»، سواء عن طريق المراسلة، أو اللقاء الممكن.

مع التقدير.

سعدي يوسف

المثقف وحقوق الإنسان

خير الرأي رأي الخير

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

«بلغني أن أبا المنتصر الفقيه، يعرض بي في الأسواق ومظان العامة ومضايف القوم، ويلومني أشد الملام، ويستعدي علي الكبير الصغير، وأمس قال في سوق الحدادين انه سيسير إلى القصر مع جمع من أتباعه، منطلقاً من سوق الحدادين، ماراً ببيوت الدهماء من الأعراب وعلوج الديلم، وربما سار وراءه الآلاف».

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك: «وما الذي يبغيه أبو المنتصر الفقيه؟».

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: «ألا تذكر اسماعيل الكاتب؟ لقد أمرت بسجنه منذ عامين، بسبب كتابه الذي ظل الوراقون ينسخونه ويبيعونه عاماً كاملاً حتى لم يبق ورق في المدينة، بل حتى ناداني أناس وأنا في موكبي بالنمرود، وأنت تعلم أنه جعل عنوان كتابه «النمرود والحدود»، يتكلم فيه عن سياسة الملك، وآداب السلطان، وأن السلطان يقام عليه الحد إذا ما أساء الأدب، وعبث بالسياسة، وطغى على الرعية، فالسلطان يمسخ إذ ذاك نمروداً، كما يقول هذا الكاتب اسماعيل».

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك: «إنني أذكر الرجل، أيها الملك الهمام،

لكني كنت مسافراً حين أمرت أيها الملك بسجنه. ولو كنت معك لأشرت إليك بغير ما أمرت، والأمر لك على أي حال».

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: وما تراه الآن؟

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك: «تفك قيده، أيها الملك الهمام، وتطلقه من أساره، وتبعث إلى أبي المنتصر الفقيه ليصحبه وهو خارج من السجن، فتقطع دابر فتنة، وتسن خير سنة. دع الكتاب يكتبون، والوراقين ينسخون ويبيعون، فما أنت بالنمرود، ولا اسماعيل الكاتب بالعدو اللدود. أيها الملك الهمام، حصن الثغور، وأغلق الأبواب، وأطلق الألباب، ولينطلق سعاتك ودعاتك، يبصرون الناس بأمرهم، ويعدونهم ليوم الشدة والعدة، فإن تركتهم غافلين لم تغن الثغور والأبواب شيئاً، فالسلاح بأهله، والثغر بجنده، والباب بحماته، فإن فعلت هذا رأيت أبا المنتصر الفقيه واسماعيل الكاتب ساعيين داعيين مع السعاة والدعاة».

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: خير الرأي، رأي الخير.

■

مشروع وثيقة عن حقوق الإنسان

بين يدي مشروع وثيقة من بين هذه الوثائق العديدة التي تمد أعناقها، على استحياء حيناً، وبتحد حيناً آخر، في أرجاء الوطن العربي، وخارجه وهي معنية بحقوق الإنسان في المنطقة، وبدور المثقفين في المدافعة عن هذه الحقوق والتثبت القانوني من خروقاتها السائدة، ووضع المخالفات أمام الرأي العام، العربي والعالمي، والدعوة إلى ممارسة الديمقراطية والفصل بين الدعاوى والادعاءات العريضة من جهة، وبين الموقف الفعلي من ممارسة الديمقراطية.

■

يقول مشروع الوثيقة:

«توشك كلمة المثقفين العرب أن تلتقي على أن احترام حقوق الإنسان الأساسية قيمة عليا في مستوى المبادىء، وضرورة عملية لنجاح أي مسعى

يستهدف تحرير الوطن والارتقاء بالأمة . ولكن تلك الكلمة لم تنفذ بعد إلى الناس، ناهيك عن الاستقرار في ضمائرهم . ونعلم جميعاً أن الفكر لا يغير الواقع إلا حين يتحمس له سواد الناس» .

هل يكتفي المثقف بإطلاق خطابه؟ بل هل تنتهي مسؤوليته بإطلاق هذا الخطاب؟

يقول مشروع الوثيقة :

«لا بد أن نحدد مسؤوليتنا كمثقفين عن افتقاد المصداقية التي تعاني منه الدعوة لاحترام حقوق الإنسان العربي . حقاً أن تغيير الواقع المشين لا يتم إلا بنضال القوى الاجتماعية والأحزاب السياسية والمنظمات النقابية التي تمثلها، ومع ذلك ، فنحن ـ كمثقفين ـ مسؤولون مرتين ، مرة من حيث أننا أهل الفكر والتعبير، ومرة لأن أعداداً كبيرة منا تنخرط في نضال الأحزاب السياسية والمنظمات المهنية والجمعيات العلمية والمؤسسات التعليمية والثقافية ، وإذا كان التغيير فوق طاقتنا ، فإن التأثير هو صميم مهنتنا . ومن هذا المنطلق يصبح السؤال : ما أثر ممارستنا اليومية في حصر تأثير دعوتنا لاحترام حقوق الإنسان؟ ويجب أن نقر بشجاعة وصدق بأن كثيراً من تلك الممارسات يتناقض تماماً مع ما ندعو إليه . ولهذا لا يصدقنا الناس» .

هل من أمثلة لتلك الممارسات؟

● مثقف يتحدث عن حقوق الإنسان ويؤيد في الوقت ذاته ، علناً، أو ضمناً، السلطات القامعة .

● مثقف يتحدث عن هدر حقوق الإنسان في قطره ، ويتعاون مع نظام قطر آخر له ذات السجل من العدوان على حقوق الإنسان .

■

الدعوة بالملموس

بخلاف الكثير من الوثائق ذات الاهتمام المماثل ، ينص مشروع الوثيقة الجديدة على دعوة بالملموس هي :

«الامتناع عن المشاركة في أي عمل ثقافي أو سياسي ينظمه أو يموله نظام عربي يصادر وينتهك الحقوق الأساسية للإنسان العربي. وينصرف ذلك إلى المشاركة في المؤتمرات والندوات، والعمل مع مؤسسات (البحوث والدراسات). والكتابة في الصحف والمجلات... وغير ذلك من الأعمال التي تمثل نشاطات خارجية لذلك النظام، والتي تساهم مشاركة المثقفين فيها في إعطاء نوع من الشرعية لذلك النظام».

تحدد الوثيقة خمس ممارسات قمعية تنبغي ملاحقتها بالتوثيق والادانة، والممارسات هي:

١ ـ اعتقال من يخالفون النظام في الرأي أو محاكمتهم بقوانين استثنائية وأمام محاكم غير عادية ومعاقبتهم بالسجن أو مصادرة مورد الرزق من عمل أو مال.

٢ ـ إسقاط الجنسية أو سحب جواز السفر بدون حكم من القضاء العادي في جريمة غير سياسية.

٣ ـ انتهاك حرمة المنازل، والعدوان الهمجي على الأشخاص بمعرفة مأجوري السلطة.

٤ ـ تعذيب الخصوم السياسيين أياً كانت التهم الموجهة لهم.

٥ ـ التصفية الجسدية لأي خصم سياسي سواء بأيدي عصابات في الداخل أو الخارج أو عن طريق محاكمة صورية.

■

ملحوظات:

هل «يبدو» مشروع الوثيقة غير واقعي؟

أزعم أنه «يبدو» هكذا، لكن أموراً كثيرة قد تعطي هذا الانطباع للوهلة الأولى، فإذا دققنا النظر، وأعدنا التدقيق، وجدنا ما بدا غير واقعي، واقعياً إلى حد مرير، وبخاصة ما يمكن إدراجه تحت كلمة «الانقاذ».

أتذكر أنني كنت أتحدث مع صديق كريم، شاعر عربي كبير، عن احدى المجلات الأكثر بريقاً وألواناً، والصادرة عن احدى الدول العربية الأشد ظلاماً ورجعية. وكيف أن تلك المجلة «استقطبت» ٩٩ بالمائة من الأسماء البارزة في الثقافة والابداع، بحيث لم يمتنع عن المشاركة فيها إلا نفر ضئيل، وقلت لصديقي: ان عمق المأساة لا يتمثل في المشاركة فقط، بل انه ليتمثل في التهافت على المشاركة. وجاءني يوماً من يعمل لحساب المجلة، وحاول أن يزين لي المشاركة بالصورة التي أراها، وحين امتنعت قال: عجيب أمرك! إلى متى ستظل هكذا؟ أتدري أننا «استقطبنا» الجميع، غيرك وغير فلان وفلان وفلان . . .

كان ما تحدث عنه الرجل أمراً واقعاً.

ومن هنا، بالضبط تأتي واقعية المسعى المضاد.

«ان مصداقية النص متواشجة مع مصداقية الدعوة التي ينطق بها الكاتب. فإذا تعرضت مصداقية الدعوة إلى خلل جوهري (دعوة إلى التقدم وتعاون مع الرجعية) فقد النص، بالضرورة معناه. وهكذا تكون خسارتنا مضاعفة، ليست في ميوعة الموقف حسب، وإنما في النتاج الثقافي أيضاً.

كيف تبدأ عملية الانقاذ؟

في رأيي أن لقاء أول بين من لم يرهنوا مواقفهم وأقلامهم، بعد، للطغيان، سوف يضع نقاطاً تحت حروف كثيرة.

وبإمكان اللقاء المقترح أن يتوصل إلى خطوات عملية لبدء عملية الانقاذ.

إن الانخراط في حركة واسعة للدفاع عن حقوق الإنسان في الوطن العربي سوف يساعد العديد من المثقفين في استعادة توازنهم، وحريتهم الكامنة، يساعدهم في الدفاع عن حقوقهم هم أنفسهم، باعتبارهم من بين عشرات الملايين التي تعاني القهر والطغيان ووضع الرأس تحت الجزمة.

لئلاّ ينقطع الوتر

● لم انطفأ المصباح؟

ـ لقد أحطته بمعطفي، ليكون بمنجى من الريح، ولهذا فقد انطفأ المصباح.

● لم ذوت الزهرة؟

ـ لقد شددتها إلى قلبي، في شغف قلق، ولهذا فقد ذوت الزهرة.

● لم نضب النهر؟

ـ لقد وضعت سداً في مجراه لأفيد منه وحدي ولهذا فقد نضب النهر.

● لم انقطع وتر المعزف؟

ـ لقد حاولت أن أضرب عليه نغماً أعلى مما تطيقه قدرته، ولهذا فقد انقطع وتر المعزف.

رابندرانات طاغور

من ديوان «البستاني»

■

كيف «تنبغي مواصلة العمل والعناية بالعاملين في حقول الابداع الثقافي من أدباء وكتاب وفنانين ـ كما أشارت ورقة العمل في الصفحة السادسة والعشرين؟».

■

واضح أن السؤال يتعلق بالمبدعين، ومن هنا رهافة التناول المرجوة، والدقة المبتغاة، كي لا نضرب على المعزف نغماً أعلى مما تطيقه قدرته فينقطع الوتر. وهنا رأيت الحديث عن مبادىء في العملية الابداعية أراها جديرة بالاحترام، بدلاً من قول «لا» و «نعم» في مضرب لا تنفع فيه «لا» و «نعم» كثيراً.

■

إذن، علينا منذ البداية، أن نؤكد الساحة الواسعة التي نتحرك، داخلها، في المسعى الثقافي، وهي الثقافة الديمقراطية. ما دمنا مؤمنين بأن مهمات النضال في سبيل ثقافة ديمقراطية واشتراكية، ترتبط احداها بالأخرى ارتباطاً وثيقاً، وتستدعي احداها الأخرى، وبأن لا سور صينياً يفصل هذه المهمات عن بعضها، ضمن خياراتنا العريضة.

■

هذا التأكيد سيجنبنا تكرار عملية التجربة والخطأ وسيقلل من إهدار الجهد، ويساعد في تقويم ما أنجزناه وننجزه، وكذلك في تصور الخطوات اللاحقة التي سنخطوها، كما أنه سيحصر الحديث في المستلزمات: موضوعيها وذاتيها.

■

ان القول بأننا ديمقراطيون، يتضمن (حرفياً) الاحتكام إلى الجماهير الواسعة والعمل في سبيلها، يتضمن مشروعية النقد والنقاش، ويتضمن السعي من أجل أن يكون «التطور الحر لكل فرد شرط التطور الحر للجميع»، هذه المتضمنات كلها تتبلور في العمل الابداعي، في طريقة النظر إلى الواقع ومقاربته، بما تحمله هذه المقاربة من تحليل وتركيب، ومجرد وملموس، ونمذجة وتشخيص.

القول بأننا ديمقراطيون يعني البحث في مقاربتنا الواقع عن العوامل الجوهرية التي تفعل فعلها في تحريك الناس والمجتمع، وأن يكون هذا

البحث مؤسساً على احترام القارىء، والثقة بذكائه، مثلما هو مؤسس على احترام القوانين العامة للمجتمع، واحترام ثمار العلم في البسيكولوجيا واللغة ووسائل الاتصال وسواها مما يلزم استخدامه في العمل الفني.

■

القول بأننا ديمقراطيون، يعني توجه العمل الابداعي إلى الشعب، لا «شعبية» العمل الابداعي، بالصيغة السائرة.

فـ «الشعبية» ـ إذا أردنا استعمالها بتأمل ـ لا تعني التوجه سلباً إلى الشعب. ان استخدام «الشعبية» استخداماً مبتذلاً يعني الحط من شأنها، بل أكثر من ذلك، يعني الحط من قدر الشعب وشأنه.

وإذا أردنا ألا تكون الثقافة الشعبية مَسْخَرَة بسكون السين فينبغي أن تساعد الناس، وتشد من أزرهم، وتزيد من ثقتهم بأنفسهم، وتبين مشكلاتهم وإمكاناتهم.

ان التوجه إلى الشعب، في الأدب، يعني النظر إلى الحياة من وجهة نظر الشعب. ومثل هذا الأدب لن يتشبث بالفساد والضعف والمثلبة وسواها من ظواهر سلبية. انه لن ينظر إلى الحياة كما يريد أن يراها هو، لا نظارة سوداء، ولا نظارة وردية. الواقع كما هو، لا كما نريده. التوجه إلى الشعب، في الأدب، لا يعني أن نقدم أدباً متفائلاً إنما أن نقدم أدباً صادقاً. ولأنه صادق فلسوف يكون متفائلاً عن حق، وجدارة، ونصب.

أعلينا، إذن، أن نقول: هل يخدم هذا العمل الفني، الشعب؟

أم: هل يخدم هذا العمل الفني، الواقع؟
أنا أختار، صراحة، الصيغة الثانية للسؤال.
فالسؤال الأول يتحمل التجريد الخطر الذي يدفع، أحياناً، إلى الأوامر والنواهي، بينما يستدعي السؤال الثاني عملية نقدية لصيقة بالنص.

■

نأتي الآن، إلى مقاربة الواقع ومعالجته في العمل الفني. وما دمنا ديمقراطيين فنحن، إذن، واقعيون، نعمل على الأرض بين الناس لا في بروج مشيدة.

ومثلما نحن حريصون على صيانة مصطلح «الشعبية» من الابتذال، ينبغي أن نكون حريصين على صيانة مصطلح «الواقعية» من الابتذال والتسطيح وضيق الأفق والميكانيكية.

لقد منحتنا الاشتراكية العلمية مفاتيح لقراءة الواقع ابتداء من مقولة ماركس «طريقة إنتاج الحياة المادية تحكم العمليات الاجتماعية والسياسية والروحية للحياة عامة» حتى نظرية الانعكاس وجهود بليخانوف والاسهامات الفذة لجورج لوكاتش، ورسائل أنجلز، والمعالجات الغزيرة الأخرى في مختلف أنحاء العالم، ومنحتنا أيضاً حرية قصوى في النقد والتقويم ومقاربة النص للواقع.

يقول د. حسين مروة: النظرية العامة في الماركسية نظرية تتعلق بعلاقة الوعي والواقع. هذه العلاقة لا شك أنها علاقة عضوية موضوعية، لكون الواقع هو الأساس، والوعي هو نتاج الواقع. هذه قضية مفروغ منها في النظرية الماركسية. لكن هذه العلاقة ليست مطلقة، بمعنى أن كون الوعي نتاج الواقع لا يعني مطلقاً أن الوعي دائماً مستجيب للواقع بشكل مطلق. قد يكون العكس. قد تكون الاستجابة من الواقع للوعي، ومعنى الاستجابة هنا التأثير والتأثر. النتيجة الأخيرة التي نخلص إليها هي أن العلاقة العضوية بين الوعي والواقع، بين الفكر والواقع، بين الفن والواقع، لا تعطي الفن سمة الارتباط المباشر بالواقع بل تعطيه فقط علاقة ما، علاقة ديالكتيكية، وإذا قلنا ديالكتيكية انتهى كل موقف جامد، لأن العلاقة الميكانيكية هي المرجع الجامد. أما العلاقة الديالكتيكية فتعطي التفاعل أو التبادل، الانفعال والفعل، وهذا يعطي الفن إمكانية الاستقلال النسبي».

■

إن كانت العلاقة بين الفن والواقع، واسعة هكذا، مثل فضاءات المجرة، فكيف نرى الواقعية، كيف نتثبت منها وكيف نتحرك في أجوائها الرحبة؟ أسمح لنفسي، أن أستشهد مطولاً، ببرتولت بريخت:

«الواقعية، مفهوم قديم أبلاه استعمال أناس عديدين لأغراض عديدة، ويتعين علينا قبل استخدامه، غسله أيضاً بماء صاف، وهذا ضروري، إذ يقتضي الأمر نزع ملكية الشيء قبل أن يرثه الشعب. فالأعمال الأدبية لا يتم الاستيلاء عليها كالمصانع، كما أن أشكال التعبير الأدبية ليست كالطرائق الصناعية. ان الكتابة الواقعية التي قدم لها التاريخ أمثلة واسعة التنوع، مشروطة كذلك بسؤال: كيف، متى، ولأية طبقة تفيد. إنها مشروطة حتى أدق تفصيل وبما أننا نضع في ذهننا شعباً مكافحاً يقوم بتغيير العالم الواقعي، لذا علينا ألا نتشبث بـ «القواعد المجربة» في سرد حكاية، وبالنماذج القيمة التي قدمها تاريخ الأدب، وقوانين الجمال الأبدية.

علينا ألا نجرد واقعية واحدة فريدة من مؤلفات معينة، وإنما أن نستفيد استفادة حية من كل الوسائل، قديمها وجديدها، المجرب منها وغير المجرب، النابعة من الفن أو من سواه، وذلك بغية وضع الواقع الحي في أيدي الناس الأحياء بطريقة تجعلهم يتحكمون به ويسيطرون عليه. علينا الحذر من أن ننسب الواقعية إلى شكل تاريخي معين في الرواية عائد إلى فترة معينة، رواية بلزاك أو تولستوي مثلاً. علينا ألا نقيد أنفسنا بالكلام عن الواقعية حين يكون بإمكان المرء أن يشم، وينظر، ويحس، حين يخلق «الجو» وتتطور القصص بطريقة تعري الشخوص. مفهومنا في الواقعية ينبغي أن يكون واسعاً وسياسياً، حراً من القيود الاستاتيكية، ومستقلاً عن التقليد.

الواقعي يعني: تعرية الشبكة السببية للمجتمع/ إظهار وجهة النظر المسيطرة باعتبارها وجهة نظر المسيطرين/ الكتابة من موقع الطبقة التي هيأت أوسع الحلول لأشد المشكلات الضاغطة على المجتمع البشري/ التأكيد على حركيات التطور/ الملموسية بغية تشجيع التجريد.

الكتابة الحسية (حيث بالإمكان أن يشم كل شيء ويتذوق ويحس -

الأفعال كلها مبنية للمجهول -) يجب ألا نطابقها، أوتوماتيكياً، وبالكتابة الواقعية، فهناك أعمال حسية ليست واقعية، وأعمال واقعية لم تكتب كتابة حسية.

علينا ألا نجعل قراءنا يشعرون بأننا أعطيناهم مفتاحاً لما يجري.

الزمن يمر، والطرائق تبلى، والمثيرات تهن. ثمت مشكلات جديدة ترفع رؤوسها مطالبة بتقنيات جديدة.

الواقع يتبدل. ومن أجل أن نقدمه يجب أن يتبدل التقديم. ولا شيء ينبع من لا شيء. الجديد ينجم عن القديم، ولهذا بالضبط هو جديد».

■

السؤال مرة أخرى: كيف «تنبغي مواصلة العمل والعناية بالعاملين في حقول الابداع الثقافي»؟

معتذراً عن طاغور وبريخت، ومجيباً باسمهما، أقول:

العمل هو في المساعدة على العمل.

والديمقراطية هي في السعي إلى إشاعة هواء طلق ضروري لتنفس العملية الإبداعية.

والمخاطر - على أي حال - ليست في سلة المبدعين حقاً!

والحديث، في معظمه، موجه إلى المبدعين حقاً. . . وما أقلهم في هذا الزمان.

مشروع ثقافي أم ثورة ثقافية؟

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

«أي الاثنين خير من صاحبه... رجل يقرأ فلا يفهم، ورجل يفهم ولا يقرأ؟».

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

«اعلم أيها الملك الهمام أن كلا الرجلين ينقصه أمر. فالأول ينقصه الفهم، والثاني تنقصه القراءة. إلا أن لكل منقصة قصة. فالذي يقرأ ولا يفهم لم ينفعه معقول ومنقول. أما الذي يفهم ولا يقرأ، فأمره أيسر، ومنقصته أهون، ذلك لأنه انتفع من معقول الناس المتداول بينهم، الجاري على ألسنتهم، وهذا المعقول، كما تعلم أيها الملك الهمام، مخيض معقول ومنقول. لقد أمسك صاحبنا الذي يفهم ولا يقرأ بطرفي الحبل. وهذا شأن العامة في زماننا، ولو هيأت لهم، أيها الملك، أسباب القراءة، مدارس وكتباً ووراقين، لغدا كل من في مملكتك فاهماً قارئاً».

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: «سنفعل هذا من الغداة».

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك: «إنك لعجيب بين الملوك. لكأني بك تريد أن تقيم مملكة فاضلة يسكنها أناس واسعو العيون. بينما يريد سواك أن يطمس أضأل نور في عيون رعيته».

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: «وهل سمل العيون من آلة الملك؟».

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك: «ألم يبلغك نبأ المأمون والاعرابي؟».

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: «نعم... لم يبلغني... فهلا أبلغتنيه؟».

■

يروى أنه حين ولي المأمون الخلافة، ذاعت شهرة سخائه في جميع أرجاء العالم. وكان بدوي في ذلك الوقت يعيش في بادية جرداء. ولم تكن قبيلته تملك من الماء إلا غديراً ملحاً.

وحدث أن هذا البدوي اضطر إلى الهجرة من دياره إذ اعتراها جفاف ومجاعة. وقد اعتزم الرحلة إلى بلاط الخلافة مؤملاً في العطاء. وحينما تجاوز مضارب قبيلته عثر ببئر ركدت فيه المياه، فاجتذبت الأرض منها ملوحتها. وحينما تذوق البدوي ماء البئر عرته دهشة عظيمة لأن المسكين لم يكن قد تذوق الماء العذب، ولا عرف أن مثل هذا موجود في الدنيا. فحدث نفسه قائلاً: «والله ان هذا لا يوجد إلا في الجنة، فلأجعلَّن بعضاً منه في قربة، ثم لأحملنه هدية إلى الخليفة. ولما كان لم يتذوق ماء مثل هذا، فسوف ينعم علي بخلعة، وبعطاء سني».

وحمل البدوي بعض هذا الماء ثم مضى على الطريق. وكان الخليفة ومعه موكب من الفرسان يتصيد في ضواحي الكوفة، حين أقبل هذا البدوي. فأمر بأن يحضر البدوي إليه، وسأله من أين جاء. فقال البدوي: «جئت من الصحراء». ولما سأله إلى أين يقصد، أجاب البدوي بأنه يقصد قصر الخلافة. فسأله المأمون: «وماذا أحضرت معك؟» فأجاب البدوي: «ماء من الجنة». أدرك المأمون حقيقة ما حدث، وقال: «دعني أتذوق هذا الماء». وحينما قدمت له القربة، أمر أن يفرغ ما بها في زجاجة، وتناول رشفة صغيرة

من هذا الماء، ثم أبدى عجبه قائلاً: «لقد قلت الحق أيها البدوي! وماذا تطلب؟» فأجاب البدوي: «أيها الأمير! إن المجاعة والفقر قد دفعا بي بعيداً عن وطني. ولست أعرف مكاناً أقصده إلا باب قصر الخلافة». فقال الخليفة: «إني مجيب سؤالك، شريطة أن تعود الآن من حيث أتيت، ولا تمضي إلى أبعد من هذا المكان». وقبل البدوي، فأمر الخليفة أن تملأ القربة بقطع من الذهب، وكلف أحد حراسه بأن يصحب البدوي حتى يسلك طريق الصحراء.

وحين أبدى رجال الحاشية عجبهم لما فعله المأمون، وحرصهم على معرفة الحكمة في ذلك، أخبرهم المأمون بأنه لو تقدم هذا البدوي قليلاً بعد هذا المكان، لرأى نهر الفرات!».

■

إذن، على البدوي أن يظل أعمى. أن يحسب الثمد ماء من أنهار الجنة، وأن يجهل أن في الأرض نهراً سلسلاً ماؤه هو الفرات. بل لقد استخدم المأمون آلته القمعية كي يبقي البدوي على عماه، فكلف أحد حراسه بأن يصحب البدوي حتى يسلك طريق الصحراء، لئلا يضل فيرى نهر الفرات!

■

كيف أحسن التخلص إلى ما أريده؟

أود هنا، الاشارة إلى أن الجماهير التي غربت قروناً عن ثمار الثقافة، تطالبنا بجعل هذه الثمار في متناولها، وبين أيديها. المسألة بدهية تماماً. لكن المهمة بالغة التعقيد، متعددة الجوانب، إذا قصدنا «وهذا ما نفعله» «مجمل النشاط الإنساني الذي يتحقق في أطر الإنتاج المادي والروحي الاجتماعية التاريخية، مما يقابل شكلي الثقافة: المادية والروحية» وإذا تابعنا التداخل الواضح في الأنشطة الإنسانية.

ان «لمسألة رفاه السكان مثلاً وجهها الاقتصادي، كما لها وجهها الثقافي أيضاً. وإذا تكلمنا عن العلوم الطبيعية نقول انه يمكن النظر إليها من حيث تطوير الإنتاج المادي والروحي. والتربية السياسية للجماهير هي في الوقت نفسه مهمة ثقافية جد هامة».

وما دامت الطبقة التي تملك وسائل الإنتاج المادي تملك في الوقت نفسه وسائل الإنتاج الروحي، تغدو مهماتنا الثقافية (مادياً وروحياً) متلازمة تلازماً وثيقاً مع برامجنا الاقتصادية والاجتماعية، بل هي محكومة إلى حد بعيد بطريقتنا في التسيير الاقتصادي (طريقة إنتاج الحياة المادية).

■

هل قاربت «ورقة» العمل هذه المسألة؟ وكيف نظرت إليها؟

بين الصفحة السابعة والأربعين، والصفحة السابعة والخمسين، من ورقة العمل، وفي باب «تجديد بنية المجتمع توطيداً للعلاقات الاجتماعية الديمقراطية»، عرض لما طرأ من تغير في التركيب الاجتماعي للبلاد متسبب عن التحولات السياسية والاقتصادية خلال السنوات المنصرمة. النقاط الأساس التي يتناولها الباب المذكور هي: واقع تطور الطبقة العاملة وصعوباته. التأثير السلبي لتداخل الأنماط الاقتصادية والاجتماعية في تطور الوعي الاجتماعي للطبقة العاملة. الحاجة إلى توسيع وتطوير المشاريع الاقتصادية التي يمكن أن تكون مراكز كبيرة للطبقة العاملة. توسيع القاعدة الاجتماعية للفلاحين التعاونيين. الحد من نمو فئة البرجوازية الطفيلية. تحسن أوضاع الصيادين التعاونيين والفرديين. العمل مع المثقفين. قضايا الشبيبة والمرأة والمغتربين.

■

أين المدخل الثقافي في هذا كله؟

إن كانت العناوين البارزة للمطلب الثقافي الوطني قبيل الاستقلال وهي: التعريب، محو الأمية، إنشاء الجامعة الوطنية، لا تقدم إلا الخطوة الأولى في تصور ثقافي، فإننا اليوم أمام مشهد آخر.

فابتداء من نجاح محو الأمية، مروراً (غير عابر أكيداً بالجامعة)، حتى المجمع الطباعي الحديث ووسائل الاتصال المتطورة، يصبح الحديث عن

المشروع الثقافي في الجمهورية، أمراً مشروعاً تماماً، من هنا يأتي المدخل الثقافي إلى ورقة العمل، مع ملاحظة أن الورقة معنية بمنطلقات أساسية تطالب بالمناقشة والتطبيق، أكثر من عنايتها بمستخلصات وثوابت (أعني ثوابت غير فكرية)، انها لا تكتفي بوصف الظاهرة الاجتماعية وإنما تمضي إلى تحليلها، كما أنها تنتهج «النظر إلى المجتمع كجسم حي في حالة تطور دائم»، بدون أي فصل لتطور الثقافة الروحية عن تطور الثقافة المادية. فالعوامل الموضوعية التي تؤثر سلباً في التمركز العالي للعمال الصناعيين (الفصيل الأكثر تقدماً وتنظيماً من فصائل الطبقة العاملة) يمتد أثرها السلبي هذا إلى مسألة تبلور الوعي الطبقي (مسألة ثقافية، «فلا زال الوعي الطبقي لفئات واسعة من العمال اليمنيين ضعيفاً». «كما ينعكس تأثير تداخل الأنماط الاقتصادية الاجتماعية في واقع التحول البطيء لعناصر البرجوازية الصغيرة الريفية أو المدينية أو تلك المنحدرة من قوى اجتماعية أخرى إلى مواقع الطبقة العاملة حيث تنقل الكثير من سماتها الفكرية وخصائصها النفسية والاجتماعية والسلوكية إلى الوسط العمالي والذي يشكل بدوره عاملاً معرقلاً لتطور الوعي الاجتماعي للطبقة العاملة» (مسألة ثقافية أيضاً).

وبالإمكان استغراق الصفحات الاحدى عشرة التي تنتظم الباب. لنتابع التداخل والترابط الوثيقين بين قضايا التطور الاقتصادي الاجتماعي والتطور الثقافي معبراً عنه بالوعي والنشاط الفكري والسياسي.

■

من هنا، من هذا التداخل والترابط الوثيقين، بين قضايا التطور الاقتصادي/ الاجتماعي، والتطور الثقافي، يبدأ المشروع الثقافي، بعد أن وضعت أسس جيدة، لبنية تحتية قابلة للتطور والاتساع والتفاعل: محو الأمية ـ الجامعة الوطنية ـ القاعدة الطباعية الحديثة ـ وسائل الاتصال المتطورة.

المشروع الثقافي، عبرت عنه ورقة العمل، مرتين، في الصفحة ٢٤،

والصفحة ٢٥، بمصطلح «الثورة الثقافية الجذرية». في المرة الأولى جاء الحديث عن الثورة الثقافية في معرض الحملة الوطنية الشاملة لمحو الأمية، أما المرة الثانية فقد ورد المصطلح في معرض «التجديد الديمقراطي للحياة الثقافية».

ويبدو لي أن الحذر في استخدام المصطلح (مرتين فقط عبر ورقة العمل) عائد إلى الرغبة في التثبت من انطلاق بنى تحتية معينة إنطلاقاً ذا مؤشرات مستقبلية أوضح وأكثر ملموسة وتقبلاً لبرامج لاحقة.

تقول ورقة العمل: «ولمواصلة هذه العملية في إطار خلق شروط الثورة الثقافية الجذرية فإن الحاجة الملموسة تقتضي النظر في تقييم الوضع الراهن للعمل الثقافي. وفي هذا السياق فإن من بين المهام التي ينبغي العمل على تحقيقها استكمال هياكل المؤسسات الثقافية على المستويين المركزي والمحلي والاستمرار في بناء وإعداد الكادر القيادي المؤهل لقيادة التحولات، والسعي لوضع برامج التنمية الثقافية بقدر عال من المنهجية والقدرة على تحقيق مهمة بعث الثقافة الوطنية وتعميق مضمونها التقدمي والإنساني.

■

مشروع ثقافي أم ثورة ثقافية؟
المهمة الأساسية: خلق الشروط.

أبعد من القيروان

في منتصف القرن الأول الهجري، بلغ عقبة بن نافع منبسطاً من الأرض فسيحاً، ذا غياض وأمواه. كان متعب الجند والخيل. وربما كان الوقت ظهراً. أوقف عقبة، جواده، وأشار إلى المنبسط الفسيح قائلاً: «هذا قيرواننا» - أي مقيلنا -. هكذا غدت القيروان مراح الجيش الفاتح. وهناك حيث يرتفع المنبسط، تدريجاً، لتتشكل إطلالة تسيطر على السهل المحيط. هناك أقام عقبة مسجده الجامع، وأسواره، وحصونه... هناك أيضاً سيأتي الهلاليون في يوم ما... وستجاور قبورهم الضخمة جامع عقبة، بيضاء متلألئة تحت قمر السهول الافريقية.

عقبة والهلاليون وهبوا القيروان الاسم والمسمى والشميم. ومع أن الأتراك جاؤوا، بثكناتهم الضخمة، وأبوابهم الهائلة المصفحة بالحديد والتأريخ الشعري. ومع أن الفرنسيين حملوا إلى القيروان بعضاً من بضاعتهم المعمارية إلا أنهم - شأن الأتراك - ظلوا خارج المدينة العتيقة. وظلت القيروان ملتمة على نفسها، داخل أسوارها. ثمت صحابيون يسكنون أضرحة تزار، وحرفيون ينسجون عباءات النساء والصنادل، ويمنحون الفخار امتداده اللصيق بالإنسان. الهلاليون لم يقيموا شواخص ضخمة - عدا قبورهم - وإنما سكنوا وأسكنوا. هذا البيت هلالي. الباحة، والغرف المطلة، والمضافة، والبئر يتوسط الباحة، والدهليز تحت الأرض تهبط إليه على درجات حجر... إنه للغلة وللقائلة... يدور فيه

الهواء بارداً، فهناك نظام تهوية بسيط، فعال، يستعمل في المدن والبلدات العربية على أطراف الصحراء. والقيروان أمينة لأهلها.

■

والأزقة في المدينة العتيقة، تتشابك وتضيق.. لكن عليك أولاً، قبل الدخول في متاهتها، أن تمر على الجمل، وتشرب ماء في كأس فخار. الماء يأتيك من أعماق البئر. حيث أقيم على فوهته ناعور يدور به جمل مطهم يرفل بالزينات والأشرطة الملونة البراقة التي تعلقها عليه الصبايا الحالمات بليلة العرس. جرار الفخار المثبتة على الناعور الدوار تنضح ماء بارداً. وأنت تقتعد الدكة الحجر، والجمل يواصل مداره، ويكاد يمسك إذا بلغ مكانك من الدورة. بخور وأشرطة صبايا وجمل يدور ويدور. وتتساءل: ترى كيف ولج هذا الجمل الضخم باب المستقى الضيق؟ وسيقولون لك: يؤتى به «قعوداً»، صغيراً، في احتفال مهيب... بعد أن بلغ الجمل السابق عشرين أو ثلاثين عاماً حيث ذبح، ووزع لحمه تبركاً. هكذا يرث الجمل الصغير مملكة لا يخرج منها حياً. أسنة هي؟

من باب الأسطورة الطوطمية تدخل متاهة الأزقة الضيقة. وكلما توغلت رأيت أبواب المنازل تصغر وتصغر. يقول د. حبيب الجنحاني في كتابه عن تاريخ القيروان أن السبب في ضيق الأبواب هو سهولة الدفاع عنها أمام جباة الضرائب وجند السلطان، كما أن الدهاليز تحت بيوت المدينة متصلة ببعضها، أو ذات منافذ، لتسهل عملية هروب الناس المطلوبين للسلطان... وما أكثرهم في مدينة كالقيروان!

أخيراً تجلس في مقهى على الطريق، إنه مقهى النساجين. شاي بالنعناع، ولوز أخضر. وثلاثة أمتار مربعة تشكل ساحة في ملتقى ثلاثة أزقة. والحديث يدور في مقهى النساجين، عن الثقافة والسياسة، عن اليمن، وعن هذه التجربة العربية الأصيلة في التعامل مع روح العصر.

■

قال محدثي وهو مثقف تونسي رصين، مهتم بالأشكال الثقافية التي تبرز وتخبو في مجرى الحركة العامة للمجتمع العربي:

● في اليمن الديمقراطية، حيث الاتجاه غير تقليدي حتماً، في التعامل مع الثقافة . .

هل تبلورت أشكال ثقافية نابعة من هذا الاتجاه؟ من هذه النظرة؟

الحق أن السؤال كان مفاجئاً. انه سؤال بدهي، مثل من يستفسر عن كأس الماء، أهو ملآن أم فارغ؟

لم لم يخطر لي السؤال سابقاً؟ ألأنني كنت مأخوذاً بالغابة فلا أعنى بمصائر الأشجار؟

«ورقة العمل» ذاتها تتناول المسألة الثقافية تحت عنوان عريض (أو غير عريض؟):

«تشديد النضال الايديولوجي مهمة رئيسية من مهمات الحزب»، مؤكدة النقاط الآتية. مسلسلة حسب ما وردت في الورقة، ومختصرة:

● الحلقة المركزية للنهوض بالعمل الايديولوجي هي في تعزيز النشاط الدعائي والتحريضي.

● ربط النظرية بالممارسة يستلزم العمل على صياغة مناهج التثقيف الحزبي.

● تأهيل كادر العمل الايديولوجي.

● النهوض بمستوى اعداد الأجيال الجديدة علمياً وسلوكياً (التربية والتعليم والجامعة).

● إنشاء المؤسسات الثقافية والعناية بالعاملين في حقول الابداع الثقافي.

● معالجة أجهزة الاعلام في الداخل والخارج وتفعيلها.

هذه النقاط الست جاءت تعبيراً عن انتهاج «العمل على تحويل الثقافة إلى وسيلة للتربية الفكرية والجمالية للكادحين وأداة للبناء التقدمي للمجتمع».

■

«ورقة العمل»، إذن، لم تكن لي عوناً في صياغة إجابة عما تساءل عنه محدثي، فظل سؤاله قائماً. بل كانت الورقة عوناً لي بالفعل، ولكن في تفادي الاجابة، أو إقناع محدثي التونسي بتعديل سؤاله وتحويره، بحيث يكون على الشكل الآتي: هل أقيمت البنى التحتية التي يمكن أن تتبلور فيها، وعلى أساسها، أشكال ثقافية مرجوة؟

إن النقاط الست الواردة في فصل «تشديد النضال الايديولوجي مهمة رئيسية من مهمات الحزب» معنية، كما هو واضح. بإقامة البنى التحتية للنشاط الثقافي والايديولوجي: صياغة مناهج للتثقيف الحزبي. تأهيل كوادر. الزامية تعليم. تطوير العملية التربوية. الجامعة ـ إنشاء مؤسسات ثقافية. معالجة الاعلام.

لكن إقامة البنى التحتية لا يمكن أن تجري، منفصلة، عن معالم مستقبل تحدده النظرة الشاملة للقوة المحركة التي تدفع المجتمع إلى أمام: الحزب ونظريته. من هنا نستشرف ما بعد إقامة البنى التحتية، وهو «تحويل الثقافة إلى وسيلة للتربية الفكرية والجمالية للكادحين».

لا تكتفي ورقة العمل بالاشارة إلى البنى التحتية التي تنبغي إقامتها، وإنما تسلط أيضاً أضواء نقدية على ما تمت إقامته فعلاً. ان «التصدي الفعال للنشاط الايديولوجي المعادي الذي يقوم على خبرات متطورة وأساليب مجربة» يظل مطلباً يكتسب إلحاحه من القراءة الأخرى للنص نفسه، القراءة التي تعني أن تصدينا لم يكن فعالاً.

هذا المثال، يمكن تعميمه ليشمل المورد كاملاً من الصفحة ٢١ حتى الصفحة ٢٧.

■

قلت لمحدثي، ونحن نرتشف شاياً ثانياً بالنعناع في مقهى نساجي القيروان:

الأشكال الثقافية الجديدة، لا تظهر في فجاءة البرق. انها بحاجة إلى عملية طويلة الأمد، وإلى مستلزمات تنتظم جوانب الحياة والناس كلها. غير أن هذه الأشكال لا تنتظر، من الناحية الأخرى، استكمال كل شيء، فقد تظهر رؤوس لها، هنا وهناك، تترعرع، وتنمو، مع المسعى العام للمجتمع لنقل أنها عملية تراكم.. هادئة، تتفاعل عناصرها في الأرض والذهن والقلب... هذا التراكم نفسه هو الذي يضع الشروط الموضوعية لتوالد الأشكال الجديدة توالداً ثراً، غنياً، متعدد الملامح...

قال لي وهو يكسر لوزة خضراء، والمثقفون؟ أتراهم يقفون طويلاً أمام المرآة؟

قلت له: يحلو لي في هذا المقام أن أعيد ما قاله الايطالي غرامشي.

«عندما يميز المرء بين المثقفين وغير المثقفين، نراه يشير في واقع الأمر، فقط إلى الوظيفة الاجتماعية المباشرة للفئة المحترفة من المثقفين، أي انه يضع في ذهنه الاتجاه الذي وضعوا فيه نشاطهم المهني الخاص، سواء أكان ذاك تعبيراً ذهنياً، أو جهداً عضلياً ـ عصبياً. وهذا يعني أن المرء حتى وإن كان باستطاعته الحديث عن مثقفين، إلا أنه لا يستطيع الحديث عن غير مثقفين، ذلك لأن غير المثقفين لا وجود لهم البتة. ليس من نشاط إنساني خال من المساهمة الذهنية. ولا يمكن الفصل بين «الإنسان الصانع» و «الإنسان المفكر». وكل إنسان، خارج نشاطه المهني، يحمل شكلاً من أشكال النشاط الثقافي، أي انه «فيلسوف»، فنان، رجل ذواقة، يحمل مفهوماً معيناً عن العالم، وله خط واع من السلوك الأخلاقي».

■

المساء يهبط على القيروان هبوطه البطيء. وفي مقهى النساجين يتألق المصباح الوحيد. من آخر الزقاق يظهر جزء من السور المنيع المحيط بجامع

عقبة. قبل قرن، كانت بوابات المدينة تغلق، والحراس يقفون فوق الأبراج الصخرية. من عشرات المآذن الصغيرة يرتفع الآذان. والساعة الشمسية في باحة الجامع الكبير تؤشر للساعات يمضين، وللجمل يدور، وللصبايا يعلقن الأشرطة.

القيروان...

والناس في عدن... ماذا يفعلون الآن؟

قال محدثي: أرأيت إلى الحياة؟ أي تاريخ هذا الذي جعلنا، ونحن في مقهى النساجين، نرتحل أبعد من القيروان... أبعد من عقبة والساعة الشمسية؟

نحن هنا، اثنان التقيا مصادفة في وطن يكاد يفقد خرائطه، لكننا وجدنا نفسينا أمام جدل صعب هو جدل حياة لا نُريدها ضائعة الخرائط. الناس في عدن، يديرون الآن. بالتأكيد، نقاشاً ساخناً.

■

المؤتمر العام الثالث للحزب الاشتراكي اليمني. وفي المساحات الشاسعة للجمهورية، يتصاعد جو من النقاش والجدل، يحتدم ويتطامن، انه جو المؤتمر، هذا الذي يمتد طويلاً وعميقاً، أبعد من الاعتياد، أبعد حتى من القيروان!

وإلى أن ترتفع رايات المؤتمر الظافرة، سيظل هذا الجدل الذي يحتدم ويتطامن ويحتدم ويتطامن، ضمانة كبرى لحياة جديدة في هذه الأرض الفريدة من دنيا العرب.

الوليد . . لا سلّة الدخن

تروي حكاية شعبية كونغولية أن صخرة جميلة كانت تنتصب وسط منفسح من الأرض، وأن امرأة ذهبت هناك لتتفيأ الصخرة وتتناول طعامها وهو سمك ولحم.

كانت المرأة تعلم أن ثمة روحاً تسكن الصخرة، لكنها لم تقدم حتى مضغة من طعامها، بل ولا سمكة صغيرة. مع المرأة، طفلها ملفوفاً بقماط، وسلة دخن. وضعت المرأة الطفل والسلة على الصخرة، وحين انتهت من طعامها رفعت سلة الدخن لكنها عجزت عن رفع وليدها. أعادت السلة إلى مكانها كي ترفع الطفل، فوجدت أن السلة قد لصقت بالصخرة. هكذا قررت المرأة أخذ السلة وترك الطفل، فتناولت سلة الدخن، ومضت بها إلى بيتها، تاركة طفلها على الصخرة ملتصقاً.

بعد حين، مر بالصخرة نفر من السيارة، فأدهشهم أنهم سمعوا بكاء طفل من داخل الصخرة. . . اقتربوا وبحثوا لكنهم لم يروا شيئاً. سمع الأب القصة، وفكر: هل يكون الباكي طفله؟ استشار الأب عرافاً فأشار عليه بأن يؤم الصخرة، ويقدم لروحها قرباناً من اللحم والسمك. أخذ الأب برأي العراف، وقدم القربان، وجاء الناس يرقصون ويقرعون الطبول، واستحضر العراف روح الصخرة، فأخذت تهتز، ثم انشقت فجأة ليظهر الطفل. أخذته الجدة بين ذراعيها وهدأته، أما الناس فقد غمرتهم البهجة وانطلقوا يهزجون

ويهللون ويشكرون روح الصخرة العظيم .

تقول الحكاية أخيراً أن المرأة الصالحة تفضل الوليد على سلة الدخن .

■

تذكرني هذه الحكاية الكونغولية بـ «حيرة» لا أدري كيف غدت متوارثة، إزاء المثقفين. وليست قليلة تلك الأمثلة التي تفضل فيها سلة الدخن على الوليد، في الثقافة بخاصة.

ان عدداً من الحركات الراديكالية تتضمن برامجها ووثائقها الأساسية فصلاً أو باباً عن الثقافة، والعادة أن يقترن حديث الثقافة (أو يختلط) بحديث التعليم المؤسساتي لا التأسيسي، مع ميل إلى الاطناب في حديث التعليم، والايجاز في تناول المشكل الثقافي. هذا الأمر يمكن فهمه في ضوء ما تحاول البرامج تقديمه باعتباره صيغة للتطبيق العملي، في يوم منظور أو غير منظور.

إلا أن شأن المثقفين يظل في أحسن الأحوال مغيباً. (ثقافة بلا مثقفين؟).

أما إذا مضينا مع «الحيرة» مضياً غير رسمي، فالمثقفون شريحة، فئة، متذبذبة، مترجرجة، قلقة، منسلخة. حتى في حال انضوائها تحت راية الطبقة العاملة يقال انها خائنة . . . لطبقتها السابقة.

هذه «الحيرة» ليست سلبية الأساس تماماً. وبالإمكان العودة إلى ظروفها التاريخية كي تتلمس سبباً لها، لا عذراً.

لقد نشأت بوادر الحيرة والحذر إزاء المثقفين، في فترات التكوين (ولادة عدد من الحركات الراديكالية) حين كان التمايز شديد الالحاح، وحين كانت مصادر الفكر العلمي شديدة الشحة، وفي الوقت نفسه كانت الممارسة اليومية الشاقة الخطرة هي الفاعلية الغالبة في نشاط الحركة الوليدة، وبالإضافة إلى ذلك كانت مسؤولية قيادة الدولة والمجتمع ما تزال افتراضاً

بعيداً، كما أن قراءة الواقع الاجتماعي قراءة علمية كانت تنتظر مستلزماتها، البشرية بخاصة.

■

لكن التراث الكلاسيكي للاشتراكية العلمية يقدم (بالمقابل) أطروحات بالغة الايجابية في هذا المجال. ماركس، مثلاً، لا يفصل بين الثقافة والمثقف، بين الفن والفنان. «أجمل الموسيقى لا تعني شيئاً لاذن غير موسيقية» - (المخطوطات) - وظل أنجلز يحلم بمجتمع يكون أبناؤه جميعاً مبدعين.

وفي النصال السياسي وقف لينين ضد كاوتسكي الذي أخذ بشروط شكلية ميكانيكية في علاقة المثقفين بالحركة الاشتراكية حين دعا (أي كاوتسكي) إلى أن يقدم المثقفون (الملتجئون من الطبقة البرجوازية) النظرية والايديولوجيا (والقيادة غالباً) إلى قاعدة جماهيرية من غير المثقفين أي من العمال.

لقد أعلن لينين في «ما العمل؟» انه في الحزب الثوري «يجب أن تمحى أي تمايزات بين العمال والمثقفين»، ورأى أن وسيلة بث الفكر الاشتراكي في صفوف الطبقة العاملة ليست الأنتلجنتسيا التقليدية، وإنما الحزب نفسه، الذي انصهر فيه العمال السابقون والمثقفون المحترفون السابقون ذوو التحدر البرجوازي، في وحدة متماسكة.

أما غرامشي فقد رأى أن الطبقة العاملة، مثل سابقتها البرجوازية، قادرة على أن تطور، من داخل صفوفها، مثقفيها العضويين. وأن مهمة الحزب السياسي، هي أن يوجه نشاط هؤلاء المثقفين العضويين، ويهيىء صلة بين الطبقة وأقسام معينة من المثقفين التقليديين.

ان مثقفي الطبقة العاملة العضويين يحددهم من ناحية، دورهم في الإنتاج وفي تنظيم العمل، ومن ناحية أخرى دورهم «التوجيهي» السياسي المتركز Focused على الحزب. ورأى غرامشي في هذا منجاة للحزب من النقابوية الدفاعية والاقتصادية، وطريقاً يتقدم فيه نحو الهيمنة.

هكذا يقوم الحزب، وهو أداة التغيير، ليس فقط بتغيير ما حوله، وإنما بتغيير ما في داخله. وحين يكون المثقف تحت راية الحزب، تنشأ مسؤولية مشتركة في التطور والتطوير، بحيث يعاد النظر، حتماً، في مصطلحات كـ «التذبذب» و «الترجرج»... الخ، ويصبح النضال من أجل التجانس الفكري عملية فيها الكثير من الدأب والصبر والتربية العالية.

يقول انطون تشيخوف في احدى رسائله: «يحاول أي شخص، أن يعتصر العبد الذي في داخله، قطرة قطرة، ليستيقظ في صباح جميل، فيشعر أن عروقه لم يعد فيها دم عبد، بل هو دم إنسان حقيقي».

كيف يعالج الحزب الاشتراكي اليمني مسألة المثقفين؟

الصفحة الرابعة والخمسون من «ورقة العمل» تخلصت بصورة كاملة من «عقدة» المثقفين، فأوردت الآتي:

«تتسع القاعدة الاجتماعية للمثقفين الذين ينحدرون بشكل عام من أصول طبقية كادحة، ويزداد وزنهم الكمي والنوعي في المجتمع تحت تأثير المكانة التي يشغلونها في الحياة السياسية والاجتماعية للبلاد. فالآلاف من هؤلاء يشكلون القوام الأساسي لأجهزة الدولة، ويتحملون مسؤولية مباشرة في صياغة ملامح المجتمع الجديد، إنطلاقاً من مواقعهم في تنفيذ سياسة الحزب والدولة.

ويشكل المنحى الرئيسي لتطور هذه الفئة الارتباط الوثيق بالطبقة العاملة والفئات الاجتماعية الكادحة، وتلعب دوراً أساسياً في ذلك أصولهم الطبقية ومصادر التأهيل العلمي والمهني لهم في إطار جامعة عدن وفي المؤسسات العلمية للدول الاشتراكية».

في هذه الفقرة من «ورقة العمل» نلحظ:

- الترحيب باتساع القاعدة الاجتماعية للمثقفين.
- الاهتمام بالمنحدر الطبقي الكادح.
- يشكل هؤلاء المثقفون ذوو الأصول الطبقية الكادحة القوام

الأساسي لأجهزة الدولة .

- يتحملون مسؤولية مباشرة في صياغة ملامح المجتمع الجديد .
- المنحى الرئيسي لتطور المثقفين هو الارتباط الوثيق بالطبقة العاملة والفئات الاجتماعية الكادحة .
- ضرورة التأهيل العلمي والمهني ، نوعياً .

■

هذه النقاط الست الواردة في الصفحة الرابعة والخمسين من «ورقة العمل» غنية بمؤشرات هامة .

المؤشر الأول هو النظرة الصائبة إلى الثقافة ، النظرة العلمية التي تتوسع في مفهوم الثقافة ، لتعتبر المثقفين هم ذوو التحصيل العلمي والتقني الذين يقومون بدور أساسي في العمل الاجتماعي و «يتحملون مسؤولية مباشرة في صياغة ملامح المجتمع الجديد» .

المؤشر الثاني يعتبر الارتباط الوثيق بالطبقة العاملة والفئات الاجتماعية الكادحة شرطاً لازماً وملازماً لتطور المثقفين .

المؤشر الثالث الذي يعتبر ضمانة إزاء «الذهنوية» في النشاط الثقافي ، هو التأكيد على نوعية التأهيل العلمي والمهني . فالمثقف الجديد في مجتمع يتطلع إلى آفاق اشتراكية ، ينبغي أن يكون مؤهلاً لنشاطية عالية في ذلك المجتمع الذي سيتميز بالصناعة والتكنولوجيا وتغلغل العلم في مختلف مناحي الحياة .

■

الأهمية الواضحة التي توليها «ورقة العمل» للمثقفين ، تأتي متلازمة مع الأهمية التي توليها لعمل الحزب بينهم :

«ان حلقة أساسية في العمل مع المثقفين هي عمل الحزب النشط من

خلال تدعيم وتحويل منظماتهم الابداعية والمهنية وتطورها العلمي وتمكينها من تعزيز نشاطاتها الاجتماعية والثقافية، وتحويلها إلى منتديات تؤمن لهم إمكانات الراحة وتنظيم سبل تبادل الخبرات في أوساطهم، على أن يتزامن مع ذلك عمل منظمات الحزب لاجتذاب العناصر الجيدة في سلوكها وعملها إلى صفوف الحزب، وعلى العناية بالتربية الفكرية والسياسية لهذه الفئة الهامة من فئات المجتمع».

■

ها نحن أولاء، أخيراً، إزاء وثيقة هادئة في قضايا الثقافة والمثقفين. وثيقة نعتز بها، نحن الثوريين العرب، ونعتبرها دليلاً على عمق خطوات قطعناها، وآفاق سنرودها، وثيقة تعبر عن جهدنا واجتهادنا. عرقاً مراً، وتنصيصاً عذباً، وإسهاماً في إغناء النظرية والممارسة.

حقاً، انها لصفحة واحدة. لكن كتاب الحياة يتفتح هكذا، صفحة إثر صفحة، كما تتفتح شجرة الورد، وردة إثر وردة.

■

ونعود إلى الحكاية الكونغولية، التي نبتت على ضفاف بحيرة البرت. نعود إليها، ونقول: نحن مع الوليد...

قابضون على الجمر

جميل والله أن نسأل. . .

مثلث «خلدة»، مثلث حقاً. انه لصق البحر، لكنه ليس مفترق طرق بحرية. طرق «خلدة» مشتبك العصب اللبناني، أحدها يفتح بوابة الجنوب حيث صيدا وصور وكل تلك الأرض المعذبة بالاحتلال والاضطهاد، وثانيها يفتح الطريق إلى بيروت والشمال، وثالثها يصعد ضيقاً ليلتقي بطريق بيروت/ دمشق الدولي بعد أن يتّصل بعضه بـ «سوق الغرب» التي لا تخلو من ذكر اسمها نشرة أخبار في هذه الأيام العابسة.

لكن خلدة ليست بلدة. بل لا تكاد تجد فيها من المباني إلا ثلاثة أو أربعة. انها مفترق مفتوح للبحر والجبل و«صحراء الشويفات». خلدة محصنة باسمها، لا تمنح المقاتل حتى حجراً يتستر وراءه أو يتمترس، وبالرغم من هذا كله، صمدنا فيها أيام حزيران (يونيو) ١٩٨٢ أسابيع امتدت إلى ما بعد حزيران. كانت النيران توجه إلينا من البحر والجو والجبل. . . فيها دارت معارك الدبابات، ومنها جئنا بدبابة صهيونية أسيرة مع طاقمها لنجعلها «فرجة» للناس في الفاكهاني. في خلدة استشهد العقيد عبدالله صيام، وعلى ترابها الرطب سقط المقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون والسوريون مقدمين أمثولة عظمى للمقاتل العربي وقد امتلك حريته وقراره وسلاحه.

«خلدة» لم يعد فيها اسرائيليون، فلقد انسحبوا. لكن البوارج ذات الجنسيات المتعددة، البوارج المموهة بالرصاص الكابي، ماثلة إزاءها. وغير بعيد، عند

المطار أقام مشاة البحرية الأمريكية قاعدتهم.

يوم الأحد، الثالث والعشرين من أكتوبر الماضي. اجتازت شاحنة مرسيدس حاجزاً للجيش اللبناني يحرس الطريق إلى قاعدة مشاة البحرية، في الساعة السادسة والدقيقة الثانيةوالعشرين صباحاً، واتجهت نحو موقف سيارات المطار، وهناك دارت دورة كاملة أو دورتين لتكتسب سرعة اندفاع ضرورة، ثم اقتحمت حاجزاً للأسلاك الشائكة، لتمرق بين موقعي حراسة لمشاة البحرية، وتحطم الباب الحديدي للقاعدة، وبعد لحظة دوى الانفجار، وانهار المبنى كاملاً، ليدفن تحت أنقاضه الاسمنتية والحديدية أكبر عدد من القتلى الأمريكيين، منذ الثالث عشر من يناير ١٩٦٨ في فيتنام، حين قتل ٢٤٦ جندياً أمريكياً خلال يوم واحد أثناء الهجوم الذي شنه الفيتناميون في عيد رأس السنة الفيتنامية (التيت). كان نائب العريف البحري روبرت كالهون يقوم بالحراسة على سطح المبنى حين شاهد الشاحنة تندفع من موقف السيارات. قال روبرت كالهون: «حدث الانفجار، وبدأ كل شيء يتهاوى. وفكرت... هكذا سأموت. وحين تحدثت فيما بعد مع الخفير الذي كان يحرس بوابة القاعدة أخبرني أنه سيظل يتذكر أن الفتى الذي قاد الشاحنة كان يبتسم!».

ومن «حي السلم» القريب، كان «الشباب» يوجهون إلى المارينز نيران القناصة. «حي السلم» يواجه «كلية العلوم».

في صيف ١٩٨٢ احتل الاسرائيليون كلية العلوم. لكن حي السلم ظل صامداً. كانت المسافة المحدودة بين الحي والكلية أرضاً حراماً. ثمت دبابة اسرائيلية معطوبة لم يجرؤ الاسرائيليون على سحبها إلا بعد أن انتهى كل شيء.

المارينز، في هذه الأيام، يريدون أن يقتحموا «حي السلم».

■

في ١٩٨١ أرسل الأمريكيون من حاملة طائرات قبالة الشاطىء الليبي، طائراتهم من طراز ف ١٤ لتطلق صواريخ «سايدوندر» على طائرتين ليبيتين

كانتا تقومان بأعمال الدورية في خليج سرت.

وفي ١٩٨٢ أرسل الأمريكيون طائراتهم من كل نوع، وقنابلهم من كل عيار، ليهدموا بيروت على ساكنيها. وفي «الفاكهاني» أقام الاعلام الفلسطيني «معرضاً» في الهواء الطلق للقنابل والصواريخ الأمريكية.... لكن بيروت ظلت عصية. ولم تعد الآن هذه القنابل، والصواريخ قادرة حتى على حماية مشاة البحرية المذعورين، الملتصقين بخط الساحل، المتهيئين لمغادرته، سراعاً، إلى أقرب سفينة من سفنهم. بل ان قيادة المارينز ذاتها اتخذت احدى هذه السفن مقراً لها، بعد أن لم تعد الأرض اللبنانية تتحمل وطأة الجزمة الأمريكية.

في ١٩٨٣، وفي صباح الرابع من كانون أول، اشترك حوالي ثلاثين طائرة حربية أمريكية منطلقة من حاملتي الطائرات كنيدي واندبندانس، في غارات واسعة على المواقع السورية بكفرسلوان وفالوغا وحمانا وضهر البيدر وصوفر وجبل الكنيسة. ويتمكن الجيش العربي السوري من إسقاط ثلاث طائرات. وهناك أيضاً طيار أميركي أسير. جورج شولتز، وزير الخارجية الأمريكية، يطالب بطيارين اثنين، وكاسبر واينبرغر وزير الدفاع يهدد بضرب مصادر النيران السورية حتى لو كانت داخل حدود الجمهورية العربية السورية. لم تعد الولايات المتحدة الأمريكية تهددنا بالحرب، فالحرب قائمة فعلاً... والتطورات أخطر مما نتصور، وبخاصة إذا كان تصورنا مستنداً إلى قراءة واقع عربي ظل ساكناً فترة طويلة، أو متحركاً لكن بالاتجاه المضاد....

■

«الأمريكي القبيح» يندفع في المنطقة. يقيم مقر قيادة له على سفينة في بحر العرب، ومقر قيادة آخر على سفينة قبالة الشاطىء اللبناني... وله في أكثر من بلد عربي «تسهيلات» خطيرة. ها هو ذا يرفع «التنسيق» مع العدو الاسرائيلي إلى مستوى التعاون الاستراتيجي الوثيق. والغارات الجوية تتوالى في تعاقب مدروس؛ غارات فرنسية (سوبر ايتندار أيضاً!)، غارات اسرائيلية على بعلبك ومواقع أخرى، غارات أمريكية على «أحد عشر موقعاً سورياً»

حسب رواية جورج شولتز. . . ومن يدري لعل البريطانيين وجنود كراكسي «الاشتراكي» ينضمون إلى الحفلة الدموية هم أيضاً.

هذا الغزو متعدد الجنسيات لن يكتفي بالغارة والشريط الساحلي وما وراء نهر الأولي. إنه يريد أن يمتد ويتمدد عبر التراب اللبناني إلى أراض عربية جديدة. يقول أحد مشاة البحرية قرب مطار بيروت وهو يتحدث مع زميل له مشيراً إلى «حي السلم»، حيث تأتي من هناك نيران القناصة: «أنظر! ألا ترى شباناً يركضون هناك حاملين بنادق الك ـ ٤٧ والقنابل اليدوية؟يجب أن نضربهم . . . ». وليست سراً تلك الخطة الأمريكية باجتياح الضاحية الجنوبية وإقامة مجازر فيها شبيهة بتلك التي خطط لها الأمريكيون في صبرا وشاتيلا.

احتلال كامل التراب اللبناني، والانطلاق إلى أراض عربية أخرى (بوسائل مختلفة) . . . هذا الذي يقوم به، فعلاً، الأمريكي القبيح.

لكن إمكانات الرد العربي هي الأخرى، ليست غائبة. أو فلنقل انها ليست غائبة عن حسابات الأمريكي القبيح في الأقل.

أن يرتفع مثلاً تعداد الاحتياط السوري إلى مليون رجل.

ليس لنا الآن أن نكتفي بإنشاد مراثينا: الحرب العراقية ـ الايرانية، كامب ديفيد، الوضع في المغرب العربي، إهدار الامكانات الوطنية، ضعف «التنسيق!» بين فصائل حركة التحرر العربية، الاقتتال العربي ـ العربي، والعربي ـ الفلسطيني، والفلسطيني ـ الفلسطيني، فوات فرصة التنمية الشاملة من العائدات النفطية. . . الخ.

والأخطر من هذا كله: الرضوخ إلى عادات في الواقع، والتعبير عن هذا الرضوخ في تسلكات متخلفة سوف تصيب العملية النضالية بسل عظام مزمن. من حرق المراحل، إلى حرق التاريخ.

من استطفال الشعب، إلى احتقار الشعب.
من سلاح الثورة، إلى «ثورة» السلاح.
من التردد في التعليم والتعلم، إلى ترداد محاسن الأمية.

من دعوى الاشتراكية، إلى إدعاء الرفاه.
من اضطراب التنظيم، إلى المافيا.
من الحزب، إلى العائلة.
من القائد، إلى الخالد.

■

أقول ليس لنا الآن أن نكتفي بإنشاد مراثينا.
وما ينبهنا الآن ليس أجراساً، بل قنابل وصواريخ.
والناس في حل منا. هم لم يريدوا هذا، ولكننا قدناهم إليه.
لم يدخل مشروع تحرر قومي في نفق أشد عتمة مما دخله مشروعنا، بينما كل ما حولنا أبيض وأسود في وضوح ساطع.

■

ليس لنا الآن أن نكتفي بإنشاد مراثينا.
إن لنا أغانينا أيضاً. فهؤلاء الذين أسقطوا الطائرات الأمريكية الثلاث هم من بيننا. والذين أسروا الجنود الاسرائيليين الستة في حرب حزيران ١٩٨٢ هم من بيننا. والذين يناضلون، سراً وعلانية، من أجل وطن عربي أجمل هم من بيننا.

لكن الوقت ـ هذا الوقت الملحاح ـ ليس فيه ترف المرثية أو الأغنية.

هذا الوقت الملحاح ملتصق بثيابنا مثل قنبلة موقوتة.

ونحن في الاهدار الكبير: نقاتل في بيروت، ونقتتل في طرابلس.

نذبح في نابلس، ونتذابح في الخليج.
نتساءل في المشرق، ونتنصل في المغرب.
نخرج من سجن، ونفتتح سجناً.

■

إذن... ماذا نفعل؟

جميل ، والله ، أن نسأل . . .
جميل ، والله ، أن نسأل ، والمدية على العنق .
جميل ، والله ، أن نسأل ، والأمريكيون قادمون . . .

الكتابة في زمن القتل

أكتب في السادس من آب. وقد دخلنا الشهر الثالث من حرب فريدة. نحن محاصرون في بيروت. وأنا أسكن الطابق الثامن من مبنى ذي اثني عشر طابقاً يواجه البحر. أحد الأصدقاء اللبنانيين ترك لي هذه الشقة الخطرة، ومضى مع زوجته وولديه إلى ضيعة آمنة. أقول «شقة خطرة» لأني أرى في البحر بارجة اسرائيلية أو أكثر، قبالتي، حين أنظر من الشرفة. وأمس، في حوالي السادسة صباحاً، وأنا أرتشف الرشفة الأولى من قهوتي، قصفت بارجة مبنى «فرساي» الذي لا يفصلني عنه سوى شارع واحد، وهدمت طابقين، وقتلت ثلاثة من السكان الذين ربما كانوا ما يزالون نائمين، أو أنهم كانوا يرتشفون مثلي قهوتهم الأولى.

لست شجاعاً، لكنني أختنق في الملجأ، جربته مرتين فلم أستطع أن أتحمل هواءه الثقيل. كنت أخرج إلى مدخله، وأنتظر انتهاء الغارة. كان هذا في الأيام الأولى، أما وقد استمرت الغارات أربع عشرة ساعة متواصلة فإن مكثي في الملجأ هذه الساعات كلها يعني دفناً حقيقياً. هكذا بقيت في شقة الطابق الثامن. كنت أحس أحياناً برعب حقيقي، وأنا أنظر إلى الطائرات هادرة مزمجرة، بيضاء أو رمادية، تطلق قنابلها الضوئية وهي مندفعة نحو أهدافها... وفجأة يرتفع الدخان، أبيض وأسود، وفي داخله نار برتقالية متداخلة... الفوسفور، أم تراه النابالم؟

إن مبنى من عشرة طوابق ينهار مثل مبنى ورقي، ويهبط على بعضه، ضاغطاً البشر وخزانة الملابس وغرفة العرس والمكتبة والصور العائلية مثل مكواة على غضون قماش . . .

رأيت رواق «الكرامة» للفن التشكيلي، حيث كان يقام أسبوعياً معرض فني، رأيته وقد اختفى تماماً تحت الجبل المنهار للعمارة التي كان يحتل طابقها الأرضي.

و «الرملة البيضاء»، تلك القرية البحرية الصغيرة التي أقمت فيها زمناً. . . هذه «الرملة البيضاء» رأيتها وقد حرثت حرثاً، وتهاوت أشجارها الضخمة محترقة أو مهشمة، وثمت عمارات انحنت على البحر بفعل القصف، موشكة على الغياب الأخير تحت أمواج المتوسط الهادئة. في «الرملة البيضاء» ترجمت كتاب هنري ميللر عن رامبو «زمن القتلة»، وسيرة جراهام غرين، وكتبت قصائد، واعتنيت بوردة غريبة.

هكذا إذن تفعل طائرات العدو.

■

الحصار هو الحصار.

في الحروب القديمة، تحاصر القلاع، والحصون، وحواضر المقاتِلة لكن حصار مدينة يسكنها قرابة المليون، بسبب ستة آلاف مقاتل، أمر لم تشهده حرب قديمة ولا عرفته حرب حديثة إلا في النادر النادر.

الماء ـ الكهرباء ـ الوقود ـ الدواء ـ الغذاء:

خمسة عوامل تؤدي في مجموعها إلى تعطيل دورة الحياة ذاتها. بل لقد أدى واحد منها، الماء مثلاً، إلى خلل خطير في هذه الدورة. . ألم يمت طفل ذو سنتين، ظمأ، بين يدي طبيب بالجامعة الأمريكية؟

وأنا. . . من لي بالماء؟

للوهلة الأولى بدت المسألة بسيطة، فبالإمكان الحصول على الماء المعدني من الأسواق، مع أن الأسر ذات الأفراد والأطفال العديدين

استبعدت من الأساس الاعتماد على الماء المعدني. بدأ اللجوء إلى الآبار أخذت الآبار تشح. علي، مثلاً، أن أنقل يومياً، إلى الطابق الثامن، وعاء يسع عشرين لتراً (المصعد معطل طبعاً)، ثم أبدأ عملية طويلة الأمد، في معالجة الماء، ابتداء من الغلي حتى التبريد حتى التصفية بمصفاة قماش والتعبئة في القناني. أحياناً أعثر بالمصادفة على قنينة «ايفيان» أو «بيرييه» فأتذكر قصة ماري انطوانيت عن الخبز و«الجاتو». حين يشح ماء البئر قد تشرب قطرة من مياه الألب!

اختفى الماء المعدني. منع الجنود الاسرائيليون إدخال شاحناته. وتتخاطف الأسماء: الكوليرا ـ التيفوئيد ـ الطاعون.

المياه ملوثة أو غير صالحة للشرب. والمزابل تعلو مثل تلال صغيرة تتوجها القطط الميتة. صارت الفئران المتضخمة تدخل من النوافذ هكذا أخبرني مصطفى الحلاج (الرسام الملتحي) الذي اضطر إلى إعالة هر شهير حفاظاً على هناءة يومه، وقال لي ان إطعام هر ضخم في هذا الحصار أقل تكلفة من شراء سم الفئران. كما روت لي طبيبة جزائرية شابة أنها مضطرة إلى إغلاق النافذة الوحيدة في شقتها الصغيرة، والصبر على القيظ البيروتي، خوفاً من دخول الفئران عبر تلك النافذة.

■

الحصار مستمر. طيران. قذائف على الصنائع. أمس زرت منى السعودي، عصراً. كانت في الملجأ مع ابنتها. أوصتني أن أبلغ أدونيس بأنها على قيد الحياة. زرت أدونيس. كان متألماً جداً. قبل يومين أصابت قذيفة الطابق الرابع من العمارة التي يسكنها. خالدة سعيد صامتة بشكل مذهل.

صارت آذاننا بالغة الحساسية، مرهفة ارهافاً مرهقاً. لكن الصوت الأكثر دخولاً في هذه الحساسية هو صوت الطيران لا سواه.

في الليل المنتصف نستفيق من نومة الأعياء على هاجس ما، أهي الطائرات مقبلة؟

نرتدي متعجلين ملابس الخروج، ونختطف أحذيتنا في العتمة، ونفتح

الباب . . . والصوت يقترب في الليل الساكن . . . وإذا بنا في المفاجأة الساخرة . . . فالأمر لا يتعدى دراجة بخارية سليطة اللسان .

لكن المفاجآت السعيدة قليلة ، فالطيران الاسرائيلي يستمرىء تحليق الساعات الطوال ، وربما استمرت غاراته وطلعاته على مدار الساعات الأربع والعشرين . قصف أو كشف . قصف وكشف . قصف وقصف . والعمارات الشاهقة تسوى بالأرض ، وتحتجب الشمس في الظهيرة ، أو تتبدى لماماً ، صغيرة حمراء ، عيناً واحدة لعالم قاس : شمس الحروب .

وأتذكر قصيدة لأراغون ، أو أبياتاً منها :

«السماء بأسرها تقضقض أسنانها .
أي مطر ، إذن ، تحمله هذه السحابة ؟» .

نتنفس الهواء داخناً ، مشبعاً «فعلاً» برائحة البارود . الهباب يكسو أشجار المدينة ، وأحجار البحر ، وثياب المقاتلين . وحين تغسل شعرك يتصبب منه سخام سائل . صارت الشظايا من مستلزمات الشوارع ، كالأرصفة أو أعمدة الكهرباء . . . شظايا من كل نوع : هاون ، هويتزر ، بقايا صواريخ . . . قبل أيام زرت صديقاً شاعراً . قال لي مشيراً إلى زاوية من غرفته : أنظر إلى هذه اليد التي طرقت شرفة الفندق .

ورأيت اليد المعروقة القاسية ، يد المعدن القاتلة . رسغ ، وكف ذات ثلاث أصابع مديدة ملتوية حادة . . . أصابع القاتل التي تمتد الآن إلى عنق هذه المدينة المحاصرة كانت اليد بقية قذيفة اسرائيلية ، مركونة إلى الجدار كأنها تحفر قبراً .

«هيروشيما صهيونية» . . . أظن هذا التعبير هو الأفضل .

■

الفلسطينيون ، في هذه الأيام ، يتصرفون بهدوء عجيب . ومن المقاتل وهو يحمل سلاحه ذاهباً إلى الموقع ، حتى المرأة وهي تحمل الماء ذاهبة إلى الغرفة أو الملجأ ، ويمكن للمرء أن يضع اصبعه على حقيقة صعبة التكشف إلا

في الملمات، وهي أن هذا الشعب يمتلك من الوعي الأساس، والثقة بالتنظيم، ما يؤهله لبناء دولة قد تكون أفضل دولة بناها العرب على امتداد تاريخهم الحديث. لقد بني معظم الدول العربية على إرث كولونيالي وبأيدي وكلاء، أما الدولة الفلسطينية فهي ضمير شعب شجاع، ذكي، مقاتل انتزع هويته انتزاعاً من المخالب الصهيونية والاستعمارية و «العربية»، وظل يقاتل حفاظاً على هذه الهوية، من حرب إلى حرب، ومن معركة إلى معركة، دون أن يفقد، لحظة واحدة، تصميمه المذهل على بناء حياته بيده، وكما يريد.

■

عملية الواقع، وواقعية العمل (على أساس صلد من الإيمان الثوري) تكون العنصرين الجوهريين في المدرسة السياسية الفلسطينية.

إن الربط بين فتح أفران خبز جديدة، وتوفير الذخيرة، وحسن استخدام العلاقة، هو مثال بسيط لتجليات هذه المدرسة ذات النظر البعيد.

ثمت أسئلة كثيرة توافرت أجوبتها، عملية سريعة:

- كيف تم التغلب على احتمالات الارتباك؟
- كيف تم الاحتفاظ بالشبكة التنظيمية والإدارية؟
- كيف استمرت الخدمات الاجتماعية والطبية؟
- كيف تم الحفاظ على العناصر والكوادر؟

لقد أعجبني تعليق في احدى الصحف الفرنسية يقول بأن انتصار حركات التحرير لا بد أن يمر عبر خسارات حروب عديدة.

وحركة التحرير الوطني الفلسطيني أدركت هذه الحقيقة، بشكل قاس، مرير، لكنه واثق الثقة كلها بالنصر.

■

كتبت كثيراً في هذين الشهرين (يونيو ويوليو)، ربما أكثر مما كتبته خلال عام كامل. لست أدري كيف استطعت أن أفعل هذا، وكيف احتفظت بالعصب الهادىء وسط الجحيم. وقد أخجل الآن حين أقول انني كنت

سعيداً. لكنها الحقيقة. كنت سعيداً فعلاً. سعيداً بأنني أبرر حياتي وكلماتي. سعيداً بأني أقف وقفة واضحة مع مثل نظيفة في وقت امتحان قاس.

■

في الأيام الأولى، ومنذ الرابع من حزيران، أخذت أكتب قصائد شخصية. جاءت الغارة الأولى على المدينة الرياضية، وأنا أكتب قصيدة أتتبع فيها مريم العذراء عند ريلكه. مع الأيام بدأت تحولات مريم، التي بلغت تجليها الأخير في قصيدة «مريم تأتي» التي كتبتها يوم الخامس والعشرين من تموز (يوليو).

كيف كنت ألتقط مادة القصائد؟

كنت كثير الحركة. قبل أن تكون الغارات الجوية بتلك الكثافة الوحشية، أزور المواقع والمحاور، أتحدث مع المقاتلين... أذهب إلى مناطق خطرة، أبيت الليل أحياناً مع المقاتلين الشبان في ملاجىء مظلمة، أدور على الأجهزة الاعلامية، أتسقط الأنباء هنا وهناك. كنت أشعر بأن حياتي هي من التدفق بحيث أن الموت لن يكون سوى تتويج لها إذا جاء.

قبل أن تقطع الكهرباء كنت أستمع إلى الموسيقى بانتظام.

وإلى الشقة أدخلت ثلاث نبتات جديدة.

وعدت إلى قراءة التراث الاغريقي.

خلاصة الأمر أنني حاولت جهدي، قهر حالة الحصار. ربما نجحت في محاولتي طيلة شهرين.

لكن الحصار يزداد احكاماً. التحريض أخلى المكان لفعالية مختلفة.

وأنا، في النهاية أو البداية، أكتب شعراً.

ما الذي أفعله الآن؟

أفكر كثيراً بالمستقبل. ومن يدري... لعلي كاتب رواية، إذا نجوت من الغارات وقذائف البوارج والسيارات المفخخة ولعلي سأصمت طويلاً... أم أن زمن القتل سيغلق شفتي إلى الأبد؟

بيروت ٦/ ٨/ ١٩٨٢

أغنية البدايات

في الصباح الباكر، ترى الغيوم، سودا وبيضا وبين بين، دانية قريبة من جبال عدن وساحلها وبحرها. ثمت شعور خادع يبعثه هذا الغيم. الشارع رطب والشجر. زجاج السيارة يحمل بقايا قطرات. وهدير البحر يجعلك تعوم في مياه مبتدعة. أنت مهيأ، تماماً، لاستقبال قطرة المطر الأولى.. تقول: الغيث آت. سوف تغتسل أهدابك بالنعمة الباردة، وسوف تفتح قميصك لينضح ماء... ومن يدري! لعل ذلك النهر الخرافي بوادي حضرموت يعود ثانية إلى الجريان ليملأ الوادي شجراً وثمراً، ويعيد الأسطورة إلى الواقع الذي خلقها في تلك الأزمنة الأولى... شعور خادع يبعثه هذا الغيم.

فبعد ساعة أو نصف ساعة، يختفي الغيم كما يختفي الضباب أو السراب، وتوطد الشمس سلطانها، ويلتمع البحر مثل عدسة عاكسة هائلة الحجم. ها هو ذا قميصك يلتصق بجلدك، والأنفاس تضيق. ما أجمل أن تعود إلى الغرفة الباردة، تتناول الكتاب الذي لم تتممه بعد، وتتابع الشخوص والمصائر. لكنها الحياة، الحياة اليومية التي لولاها ما استطعت أن تحس حتى بهذا الصباح. عليك، ولك الآن أن تواصل الدأب والدرب، وأن تستنقذ من الرطوبة الثقيلة ما أمكنك استنقاذه، عليك، ولك الآن أن تفعل شيئاً، شيئاً ينفعك وينفع الناس. يقول الشاعر: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

وتقول أنت : ما أضيق العيش لولا فسحة العمل .

وتنطلق إلى حيث تعمل . ليس ثمت من شعور خادع الآن . لكن من أين أتت هذه النسمة الباردة؟

■

تجلس وراء طاولة مثقلة بالصحف .

● «أبلغ قائد القوة الأمريكية الكولونيل جيمس ميد مؤتمراً صحافياً أمس بأن بنادق جميع رجاله ستكون محشوة بالرصاص أثناء قيامهم بدوريات ، بعد أن كان جندي واحد فقط في كل دورية يحمل بندقية محشوة ، وأشار ميد إلى أنه تلقى ما وصفه بأنه تقرير سري من قائد الجيش ابراهيم طنوس يحذره فيه من أن مشاة البحرية الأمريكية سيتعرضون لهجوم ثان في يوم معين» .

● «قالت وكالة أسوشيتدبرس الأمريكية أن لبنان لا يزال مكاناً خطراً بالنسبة للاسرائيليين برغم توقف الحرب ، وأن الجيش الاسرائيلي يواجه تحديات عدة ولا سيما الهجمات المتكررة على دورياته والاشتباكات الطائفية في الجبل والعلاقات مع القوات متعددة الجنسيات . ونقلت عن ناطق بلسان الجيش الاسرائيلي أنه منذ الأول من سبتمبر وحده قتل ١٢٦ جندياً وجرح ٢١٣ وخطف ثمانية جنود» .

● الكولونيل آرثر فينتل مدير مكتب التعاون العسكري اللبناني الأمريكي صرح (لصحيفة السفير) قائلاً : «لقد أرسلت إلى هنا لإعادة تدريب وتحديث الجيش اللبناني لأن عندي خبرة ٧ سنوات في تدريب وتحديث الجيش الأمريكي بعد أن أدخلنا عليه ، بعد حرب فيتنام ، تحديثاً في كافة معداته» .

● «اعترف ناطق عسكري اسرائيلي اليوم (٦ أبريل) بجرح جنديين اسرائيليين أثناء إطلاق النار عليهما من أسلحة رشاشة وقذائف بازوكا قرب عين زحلتا . وأعلن الناطق أن القوات الاسرائيلية ردت على النار بالمثل وقامت بحملة تفتيش واسعة في المنطقة» .

● «بتاريخ ٥/ ٤/ ١٩٨٣ قامت عناصر من جبهة المقاومة الوطنية

اللبنانية ـ قوات الداخل ، بالتعامل مع قوات العدو الصهيوني باللغة التي يفهمها ، لغة السلاح ، ولقد أوقعت قواتنا بالعدو خسائر جسيمة بالآليات والمعدات ، وعادت إلى قواعدها سالمة . قسماً لن ندعكم ترتاحون على أرضنا» .

■

مع إضراب الجنوب ، واعتصام الأهالي ورجال الدين ، ومجابهتهم المحتل ، تعود الأمور إلى النقطة الجوهرية التي حاولت قوى معينة تمييعها وإخفاءها . تعود الأمور إلى البداهة الأولى التي حاول «الأذكياء جداً» تناسيها ، وهي أن الاحتلال مرفوض ، وأن الشعب اللبناني لا بد مفيق من ذهول ما بعد حصار بيروت ، ليرى في الاحتلال احتلالاً ، وليبحث عن وسائله الخاصة المتميزة كي يقاوم الاحتلال ، ويتحرر من نيره وليبني لبنان الموحد المستقل الديمقراطي .

هذه الانتقالة في مستوى الوعي بالاحتلال لم تحدث فجأة . فنحن نعلم جيداً أن هناك من قدم الزهور إلى الجنود الاسرائيليين ، وما يزال في لبنان أناس يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع المحتل ، من أمثال أولئك الذين أطلقهم الجيش الاسرائيلي على مخيمي صبرا وشاتيلا لينفذوا المجزرة ، ومن أمثال أولئك «المفكرين» الذين ظلوا ، وما زالوا ، ينظِّرون للتعاون الاسرائيلي ـ اللبناني ، باعتبار اسرائيل ولبنان «واحتين للحضارة» وسط قبائل بدوية .

إلا أن الواقع يفرض نتائجه ، مهما بدت السماء مكفهرة ما دامت الحركة الوطنية اللبنانية قادرة على تشخيص الجوهري ، والعمل بين الناس ، والتوصل إلى أساليب جديدة لتعبئة الشعب في وجه الاحتلال .

وهكذا ، لم نعد نسمع كثيراً ، مثلما كنا نسمع ، تلك الأصوات البائسة التي أرادت أن تركب الموجة ، موجة الاحتلال والمتعاونين معه ، كي تبلغ ما لم تستطع بلوغه ، ملقية على الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية مسؤولية ما تعرض له شعب لبنان من تنكيل وتشريد واحتلال ، متناسية حتى

الشرط الأول للمواطنة. اننا نشهد البوادر المجيدة لنهوض شعبي ضد الاحتلال.

■

في الميدان الثقافي أيضاً، بوادر مشجعة.

كنا قبل أشهر، نراقب ظواهر مؤسفة في الحياة الثقافية اللبنانية، ونفتح عيوننا واسعة من الدهشة، ونحن نقرأ لأناس نعرفهم كلاماً لا نعرفه عنهم. وبدا كما لو أن التواطؤ مع الاحتلال وأنصاره هو «الموضة» السائدة. هناك مجلات وصحف كذلك، استمدت مالها وميلها من مصادر في حركة التحرر الوطني العربية، فإذا بهذه المجلات والصحف ترتد ما بين غمضة عين وانتباهتها، وتتبدل من حال إلى حال. . وإذا بـ «فادي افرام» يحتل الغلاف كاملاً، و «العائلة المقدسة» تتصدر الأخبار، وفيليب حبيب يطوب قديس سلام، إلى آخر الفجاجة الفظة لأخبار «المجتمع» وسهرات النوادي الليلية، واللقطات «المرحة» لجنود قوات الاحتلال متعددة الجنسيات. ونسمع أنباء عن نفخ الحياة في جثث ميتة. «حوار» مجلة المخابرات المركزية الأمريكية يقال انها ستصدر. «لسان الحال» كذلك. مجلات جديدة لجماعات رجعية قديمة. نواد «ثقافية» تنبت كما ينبت الفطر. دور نشر تحول اهتمامها التجاري، فجأة، إلى التراث. . وأي تراث! «مسرحيات» انتقامية شاتمة يروج لها. «طليعيون» يختارون الموكب الكهنوتي. ومتياسرون يرون فيمن نصبهم الاحتلال شباب لبنان وانبعاثه. فينيقيون عادوا إلى مراكبهم المهترئة. وشعراء أفصحوا، وتفاصحوا بلغة «الضيعة». . لقد طرد شارون «العربان»، وثقافة «العربان»، ومثقفي «العربان»، فليقم العرس إذن!

«النداء» و «الطريق» و «بيروت المساء»، وحدها واصلت الطريق الصعب، صريحة واضحة، مجاهدة مجالدة، وليس الأمر، بالطبع، مصادفة.

وتتخذ العناصر تفاعلها الأصيل.

■

محمد كشلي، أمين سر اتحاد الكتاب اللبنانيين ينشر «عشرون نقطة لمشروع ثقافي للوحدة الوطنية ومقاومة الاحتلال». وهنا أورد بضع نقاط:

● «مقاومة الاحتلال الاسرائيلي على كل الصعد العسكرية والسياسية والثقافية هي من واجب كل لبناني مؤمن باستقلال بلاده وحريتها».

● «ان إنتاج الأدباء والكتاب اللبنانيين وإبداعهم يجب أن يصب في هذه المرحلة في مجابهة الغزوة الصهيونية الثقافية وبلورة الوحدة الوطنية للشعب اللبناني».

● «إن الديمقراطية في لبنان تتطلب العدالة المتوازنة لكل القوى والطوائف والتجمعات على قدم المساواة بغض النظر عن قانون الأكثرية والأقلية».

● «مبرر الشرعية الوحيد هو الديمقراطية لكل الشعب دون تمييز أو تفريق».

● «إشاعة أجواء الديمقراطية والحريات هو وحده الكفيل بإيجاد جبهة وطنية متراصة لمجابهة الاحتلال، فالديمقراطية وسيلتنا الوحيدة لمنع استغلال العدو للتناقضات في صفوف شعبنا، وهي سلاحنا لمواجهة كل مخططاته لضرب وحدتنا الوطنية ولصد غزوه الثقافي. الديمقراطية والوطنية وجهان لعملة واحدة هي «عملتنا الصعبة» التي لا ثروة وطنية دونها».

● «ان الكتاب والأدباء والمثقفين هم ضمير الشعب المدافع دائماً عن حريته، المتحسس دائماً لأوجاعه ومشاكله. أنهم صوته الدائم في الدفاع عن الحريات، وخاصة حرية التعبير.

ان المثقفين اللبنانيين يجب أن يكونوا طليعة المناضلين من أجل تحرير لبنان من الاحتلال والغزو ومن أجل وحدته الوطنية».

■

قلت اننا نشهد البوادر المجيدة لنهوض شعبي ضد الاحتلال. لكن ينبغي

ألا نمضي بعيداً في التفاؤل، فالمعركة طويلة، والعدو شرس. . والتفاعل لم يأخذ مداه بعد. من هنا جاء تعبير الياس خوري «تفاؤل الإرادة» الذي اتخذه عنوان مقال نضالي في صفحة «السفير» الثقافية. والواقع أن الياس خوري كان من بين أوائل المثقفين اللبنانيين المعروفين الذين رفعوا صيحتهم ضد الاحتلال. والآن يجد في «الاعتصام في جبشيت ثم امتداده إلى بيروت» إعلاناً أول للذاكرة الحية. هكذا تكون «الأولوية المطلقة هي أولوية مقاومة الاحتلال. كل أولوية أخرى هي مجرد وهم وابتزاز».

يقول الياس خوري:

«بعد تسعة أشهر على الاحتلال الاسرائيلي، بدأنا نتلمس احتمالات بداياتنا الجديدة، وهذه البدايات لا بد وأن تتعثر، هذا التحرك قد يصاب ببعض التراجع، وقد يعلمنا أشكالاً جديدة لم نألفها من قبل، ولا بد أن يدفعنا إلى إعادة النظر الجذرية في المعاني العميقة لمواجهة صيف ١٩٨٢، يحولها من نقطة نهاية المواجهات إلى منعطف جديد للمواجهات مع دولة الاحتلال ومع أنفسنا ومع دول القمع العربي التي منعتنا وتمنعنا من مواجهة الاحتلال بشكل جدي».

وتأتي الصرخة الصعبة:

«من دروس المعتقلات والمذابح، نتعلم كيف ننهض ونصرخ، وفي النهاية نكتشف نفقاً طويلاً يقودنا إلى البدايات المحتملة».

■

لكل الأشقاء في الحرفة والطريق، الذين يناضلون في لبنان الآن، وسط ظروف صعبة، والذين يحفظون اسم وطنهم بهياً باهراً، ويذودون عن ثقافته كما يذودون عن أنفسهم، لهم جميعاً أغنية الذكرى والذاكرة، أغنية البدايات. . .

قراءة في رأس العدوّ

حييم هرتزوج الذي تولى أخيراً، بعد اسحق نافون، رئاسة الكيان الصهيوني، يعتبر في شخصه وسيرته أنموذجاً لقادة العدو، أما «فكره» فليس سوى تكرار عادي للشوفينية الفاشية واللاعقلانية اللتين تطبعان الصهيونية بطابعهما.

جاء إلى فلسطين مع والده اسحق هرتزوج الذي صار الحاخام الأكبر. في الخامسة عشرة من عمره انضم إلى الهاجاناه التي كانت ما تزال تعمل سراً. في الحرب العالمية الثانية خدم مع الجيش البريطاني في شمالي غرب أوروبا. بعد قيام الكيان الصهيوني سنة ١٩٤٨ غدا حييم هرتزوج مديراً للاستخبارات العسكرية الصهيونية ومن ١٩٥٠ حتى ١٩٥٤ شغل منصب الملحق العسكري للسفارة الاسرائيلية بواشنطن وبين ١٩٥٩ و ١٩٦٢ عاد ثانية ليدير الاستخبارات العسكرية.. في ١٩٦٧ عين حاكماً عسكرياً على الضفة الغربية بعد احتلالها. وكان لسنوات سفيراً للكيان الصهيوني في هيئة الأمم المتحدة. منحته بريطانيا عام ١٩٧٠ لقب الفروسية الشرفية K. B. E. كان أيضاً عضواً في الكنيست، ومحامياً في تل أبيب، وصحافياً وإذاعياً!

■

وأود، هنا، أن أقدم نماذج من آراء هرتزوج هذا وأفكاره، معتمداً كتابه ذا الصفحات التي تكاد تبلغ الأربعمائة، والصادر مؤخراً عن دار نشر

أمريكية . عنوان الكتاب («الحروب العربية ـ الاسرائيلية» ـ الحرب والسلام في الشرق الأوسط، من حرب الاستقلال (!) حتى لبنان) . أما الهدف من تقديمي النماذج ، مسلسلة تاريخياً، فلغرض تبيان أن الفكر الصهيوني ، بالرغم من التنازلات العربية كلها، لم يحد قيد شعره عن شوفينيته وفاشيته ولا عقلانيته .

■

الحاج أمين الحسيني

كان معظم العرب الفلسطينيين تحت قيادة الحاج الحسيني ، مفتي القدس المنفي . كان هدفه الصريح القضاء التام على الجالية اليهودية في فلسطين أو رميها في البحر (!) ولد في القدس سنة ١٨٩٣ ، وتعود مساهمته في الحركة القومية العربية إلى حوالي سنة ١٩١٩ ، وهو الذي قاد الاضطرابات المعادية لليهود في أبريل (نيسان) من سنة ١٩٢٠ بالقدس ، وقد سجنته السلطات البريطانية بسبب ذلك . لكن المندوب السامي البريطاني آنذاك ، سير هربرت صموئيل حاول استرضاء الوطنيين وتحسين توازن القوى بين الأسر العربية المتنافسة ، فعينه سنة ١٩٢١ مفتياً للقدس . إلا أن الحسيني استخدم منصبه الجديد لتشجيع التطرف السياسي ، فقام بدور نشيط في تنظيم الاضطرابات المعادية لليهود سنة ١٩٢٩ ، وترأس اللجنة العربية العليا التي قادت عصيان ١٩٣٦ . في سنة ١٩٣٧ ، فصله البريطانيون وأعلنوا عدم شرعية لجنته ، لكنه فر إلى دمشق ، ومنها ظل يقود العصيان . في ١٩٤٠ إنتقل إلى العراق ، حيث اشترك عام ١٩٤١ في انقلاب مؤيد للألمان . بعد فشل الانقلاب فر إلى ألمانيا . وفي نهاية الحرب استطاع الوصول إلى القاهرة وأخذ ينظم من جديد العرب الفلسطينيين . (بعد هزيمة العرب في ١٩٤٨ ، ظل في المنفى ، في القاهرة ولبنان بالدرجة الأولى ، وكان نفوذه يتضاءل بسرعة حتى موته منفياً وهو في أواخر السبعينات من عمره) .

أغلب القرويين العرب كانوا يحملون الأسلحة ، وبالإمكان تعبئتهم عن طريق «الفزعة» وهي طريقة إنذار عربية يدعو فيها كل شيخ ، ذكور منطقته ،

إلى عملية، سواء كانت دفاعية أو هجومية، على أساس خالص من حرب العصابات. وكان للعرب الفلسطينيين منظمتان شبه عسكريتين هما النجادة والفتوة، تعملان علناً بصفتهما حركتين كشفيتين. قوتا المفتي الفدائيتان تعرفان باسم (جيش الانقاذ) وتضم كل قوة حوالي ألف رجل، تحت قيادة عبدالقادر الحسيني، وحسن سلامة الذي تلقى تدريباً عسكرياً معيناً مع الألمان خلال الحرب.

جمال عبد الناصر

في مصر، وفي الثالث والعشرين من يوليو (تموز) ١٩٥٢، سيطرت على الحكم مجموعة تسمي نفسها «الضباط الأحرار» بقيادة المقدم جمال عبد الناصر، وأرسلت الملك فاروق إلى المنفى. وقد عين الضباط قائداً لهم، اللواء محمد نجيب الذي خرج من حرب ١٩٤٨ شخصية شعبية، لكنه أزيح بعد حين، وسيطر ناصر على مقاليد الجمهورية الجديدة. كان عبد الناصر مزيجاً من الراديكالية والقومية العربية المتطرفة، مع مطامح لتزعم العالم العربي، والنفوذ في العالم الإسلامي، وعلو المنزلة فيما سمي مجموعة دول «عدم الانحياز» التي أسسها مع الرئيسين تيتو ونهرو. وقد تحول هذا المزيج، بالتدريج، إلى عداء مرير أعمى لاسرائيل أوصل مصر إلى مأساة (!).

في أواخر ١٩٥٥ عقدت صفقة أسلحة ضخمة بين مصر وتشيكوسلوفاكيا تلقت مصر بموجبها أسلحة حديثة، وقد أعلن ناصر أن هذه الصفقة تعتبر خطوة رئيسة نحو المعركة الحاسمة لتدمير اسرائيل. تسلمت مصر ٥٣٠ عربة مدرعة (٢٣٠ دبابة، ٢٠٠ ناقلة جنود مصفحة، ١٠٠ مدفع ذاتي الحركة) ٥٠٠ قطعة مدفعية، وحوالي مائتي طائرة بين مقاتلة وقاذفة قنابل ونقل، عدا المدمرات وزوارق الطوربيد والغواصات. وكان هذا أول موطىء قدم للسوفيات في الشرق الأوسط (!) كانت اتفاقية الأسلحة هذه مع الكتلة الشرقية انعاشاً كبيراً لمطامح ناصر. كان في ذلك الوقت يرسخ نفسه باعتباره العنصر الأكثر عداء «للاستعمار الغربي» في الشرق الأوسط، وقد صار فعلاً

إزعاجاً جدياً للبريطانيين والفرنسيين في المنطقة، فإلى جانب مساندته الحكومات الراديكالية في أفريقيا، ومساعدته الفدائيين في غاراتهم على اسرائيل، كان نشيطاً في دعمه ثوار جبهة التحرير الوطني في الجزائر ضد الحكم الفرنسي. ان هذا كله خلق علاقة مصالح مشتركة بين اسرائيل وفرنسا، مما مكن شمعون بيريز الذي كان مديراً عاماً لوزارة الدفاع من جعل التعاون بين البلدين يصل إلى مواقع لم يصلها قبلاً. لقد أخذت اسرائيل تتلقى شحنات من الأسلحة الفرنسية.

■

سعد الدين الشاذلي

كان اللواء سعد الدين الشاذلي ضابط مغاوير يحظى بتقدير عال من الرئيس ناصر. وفي سنة ١٩٦٠ قاد كتيبة مغاوير مصرية في نطاق قوات الأمم المتحدة بالكونجو. والواقع أن الكتيبة المصرية لم تخرج من العملية خافقة الرايات، لكن العقيد الشاذلي استمر يتمتع بشعبية ومنزلة مرموقتين، وكان عليه فيما بعد أن يقود القوات المصرية في اليمن.

وقد كلفت قوته في ١٩٦٧ بمهمة هجومية رئيسة تهدف إلى قطع النقب من الجنوب، حتى شمال إيلات. وفي الأسابيع التي سبقت إندلاع الحرب، فيما سمي «فترة الانتظار» قام باستعراضات باهرة للدروع المصرية أمام الصحافة العالمية، وهو يقلل من شأن القوات الاسرائيلية التي تواجهه.

فيما بعد، أسهم في التخطيط لحرب يوم الغفران ١٩٧٣، باعتباره رئيس أركان للقوات المصرية المسلحة. ويبدو أن أعصابه انهارت في تلك الحرب «أ» بعد أن أقام الاسرائيليون رأس جسر لهم عبر قناة السويس على الأرض المصرية نفسها، وتشاجر مع الرئيس السادات في أحد الاجتماعات حين ألح الشاذلي في نوبة هستيريا، كما روى السادات، بغية سحب القوات المصرية من الضفة الشرقية لقناة السويس. رفض الرئيس السادات هذه التوصية، وقام بتنحيته من القيادة. وقد أرسله إلى «المنفى» سفيراً لبلاده في بريطانيا العظمى، ثم في البرتغال، لكنه استقال، فيما بعد، ودعا إلى الثورة على

الرئيس السادات . ثم اتصل به العقيد الليبي القذافي ، كي يجمع حوله القوى المصرية المناهضة للسادات .

■

صواريخ سوفياتية

الآن حركت الصواريخ ، تحت جنح الظلام ، نحو مواضع إطلاق أقرب قدر الامكان من موعد الاطلاق المقدر . وصار ممكناً أن تطلق عدة صواريخ على أهداف مفردة ، على خلاف ما كان عليه الأمر في مصر وفيتنام حيث لا يطلق إلا صاروخ أو اثنان على طائرة مفردة . كانت كل بطارية من بطاريات سام ٢ تتكون من ست قواذف متصلة بنظام رادار للانذار المبكر والاعتراض . كما تستخدم عشرات من المدافع ذات المواسير الأربع المضادة للطائرات من عيار ٢٣مم مع البطاريات ، وقد أثبتت هذه المدافع أنها مؤثرة جداً . وما دامت سماء القاهرة الآن تحت مسؤولية طائرات الميج ٢١ التي يقودها طيارون سوفييت ، فقد أصبح بإمكان المصريين أن يركزوا عدداً أعظم من البطاريات المضادة للطائرات على طول القناة .

ان التوزيع الجديد لمضادات الطائرات في مصر ، لم يكن فقط رداً على المعضلات الفورية التي واجهت المصريين ، وإنما هي أيضاً تعبير عن استراتيجية استخدام سوف تدرك غايتها ، بعد ثلاث سنوات ، في السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .

وصار واضحاً أنه بالإضافة إلى السعي نحو التعادل الجوي مع اسرائيل ، فإن الكفاءة المضادة للطيران لدى القوات المصرية على امتداد قناة السويس سوف تغدو عنصراً حيوياً في التطور المقبل لاستراتيجية الهجوم المصرية . فإن الاقتراب المتزايد لمنظومة الصواريخ سوف يجعل المجال الجوي فوق خط الجبهة الاسرائيلي ، داخل مدى الصواريخ المصرية . لقد هيىء المسرح ، بقدر ما يتعلق الأمر بالمرحلة المضادة للطيران ، كي يقوم المصريون بالعبور النهائي لقناة السويس .

■

في ربيع ١٩٨١ اتخذت الحرب الأهلية التي كانت تدور في هذا البلد الشقي، منذ ١٩٧٥ انعطافاً جديداً وذلك حين تقدمت شمالاً القوات السورية التي كانت تسيطر على طريق دمشق - بيروت، كي تتغلغل في المنطقة الجبلية شمالي الطريق، وشمالي شرق بيروت حيث تسيطر القوات الكتائبية المسيحية التي يقودها الزعيم المسيحي بشير الجميل. ان هذه القوات المسيحية كانت تتلقى من اسرائيل، منذ ١٩٧٦ الامدادات العسكرية. وكانت تحث الاسرائيليين على التدخل العسكري في لبنان لاخراج القوات السورية ومنظمة التحرير الفلسطينية (!).

واضح أنني تركت نصوص حييم هرتزوج، بدون تعليق. ربما لأن النصوص ذاتها تعلق على ذاتها. كما أردت أن يشعر القارىء بأن هذا الرأس الصهيوني لا يقيم أي اعتبار إلا لمن استطاع مواجهته، إلى حد أحس فيه بالخطر الداهم.

وفي هذه الأيام...

في هذه الأيام التي يجري فيها سباق التنازل، يمكن للمرء أن يقول للمتسابقين انهم لن ينالوا شيئاً... بل لن ينالوا حتى كلمة واحدة في كتاب جديد لحييم هرتزوج أو سواه من مؤرخي الصهيونية وزعمائها.

ان الملك عبدالله نفسه، الذي يقول عنه هرتزوج انه أول من أعد مشروعاً لـ «السلام» مع «اسرائيل» لم يرد اسمه إلا عبر سطر واحد يؤكد الفضيحة!

ملحوظة: علامات التعجب تعليقي الوحيد!

ماذا يجري أيها الصديق؟

إلى فواز طرابلسي

«علمت مؤخراً أنك قد حططت الرحال في عدن، ثم أخذت تصلنا «الثوري»، وإذا بـ «الأفكار بصوت هادىء» تصل ما كان انقطع من كتاباتك في «النداء» زمن الحرب. الناس هنا تريد أن تنسى ما حصل خلال الأشهر الأخيرة، تقمع الحديث وتقمع الذاكرة. وبيروت عادت تضج بالناس والنشاط كأن شيئاً لم يكن. و «البوتيكات» تنمو كالفطر، «بوتيك» مقابل كل شهيد.

يقع عليكم في الخارج أن تقولوا للبعض مما جرى خلال تلك الأشهر التاريخية التي عشناها معاً. هل تذكر مشروع اللقاء الثقافي الذي كنا نعد له قبل أن تدهمنا الحرب؟ أرى أن ضرورة العمل من أجل تلك الجبهة الثقافية التقدمية قد تضاعفت الآن.

لست أخفي عليك أن دائرة الأصدقاء تضيق أكثر فأكثر مع الأيام. بالكاد تجد أحداً تستطيع الحديث معه، ناهيك عن إقامة علاقة. الواهمون بأن الأمور قد استقرت، الباحثون عن المجد في التزلف، مثقفو الطوائف والطائفية والرضوخ للأمر الواقع، المبشرون بالأوراق التي بيد أمريكا و. . .، المراجعون العدميون للتجربة الماضية، جالدو الذات دوماً وأبداً (. . .) أقف عند هذا الحد حتى لا أسترسل في التفاصيل والأشخاص، وفي المرارة تجاه المثقفين، كثرتهم على الأقل. . .».

عند مدخل الملعب البلدي بالفاكهاني، وقفنا مودعين. كانت الشاحنات العسكرية تخرج من الملعب، الواحدة بعد الأخرى، وهي تحمل المقاتلين، فتياناً، وشباباً، وكهولاً، إلى بوابة البحر التي ظلت مغلقة زمناً، البوابة التي أغلقها هؤلاء المقاتلون أنفسهم كي لا تمسي، كما أمست، مفتتحاً للمنفى.

الشاحنات تغادر الملعب البلدي، بينما الرصاص الكثيف يندفع فوق الرؤوس، لتندفع معه الدموع والتهاليل، وترتفع القبضات، ويسمع النشيج خفيضاً.

في الوقت نفسه، وبصمت عجيب، وخفة لا تصدق، كانت جرافة ثقيلة تزيل المتاريس من الشوارع القريبة المفروشة بنحاس الرصاص الفارغ. كيف جاءت هذه الجرافة... من أين جاءت... وأية إرادة خفية أرسلتها خفيفة سريعة هكذا؟!

ويا لوضوح المعادلة!

■

ما الذي جرى «خلال تلك الأشهر التاريخية»؟

لقد حدثت معجزة حرب المدن. واستطاعت مدينة عربية أن تقهر باستمرار ولثلاثة أشهر تقريباً، بمقاتليها وسكانها المنقطعين، استطاعت أن تقهر حرباً أمريكية صريحة، وأن تثبت أن محوراً فيه فصيل مقاتلين قادر على إيقاف كتيبة دبابات تدعمها الطائرات والبوارج ومدافع الجبل، قادر على تدمير طليعة الدروع المتقدمة، وأسر دبابات بسائقيها... وأن يتم هذا كله بسلاح فردي يبدو لعبة أطفال. كانت قذيفة آر. بي. جي واحدة كفيلة بإيقاف سرية دبابات. حدث ذلك أكثر من مرة، في المتحف، وبير حسن، وسواهما. لقد التقطت مكالمة بين عقيد صهيوني وقيادته، كانت القيادة تريد من عقيد المدرعات هذا التقدم، لكنه يخبر قيادته بأن قذيفة آر. بي. جي قد أطلقت باتجاه قواته، ولهذا لا يستطيع التقدم... لم ير المقاتلون مشاة للعدو طوال الحرب. كان العدو «محصناً» بخوفه ودروعه وطائراته وبوارجه. في بير حسن رأيت مجموعة مقاتلين، ستة عشر شاباً، أكبرهم في

الثانية والعشرين، كانوا متحصنين في عمارة لم يبق منها سوى الهيكل. كان اتصالهم وتموينهم غير مستقرين. ذخيرتهم أيضاً، كافية وليست وفيرة. هؤلاء الشباب الستة عشر أوقفوا وحدهم تقدم العدو على محورهم، وظلوا صامدين حتى وقف إطلاق النار الأخير. استشهد أحدهم بعد أن جرح وهو يقاتل في أعلى العمارة، وسقط من الأعلى، بينما كانت دبابات العدو تنخل الهدف نخلاً بالقذائف. قال لي أحد الشباب انه ظل يطلق قذائف الآر. بي. جي بلا حساب، ربما أطلق أربعين قذيفة على الدبابات المتقدمة، حتى بدأت أذناه تنزفان دماً. لكن دبابات العدو لم تبلغ المحور.

معجزة حرب المدن. من الصعب أن يتصور المرء، الآن، كيف نظمت المدينة شؤونها، وكيف انتظم الناس جميعاً، جيشاً مكافحاً منافحاً... كيف كان الخبز يصل إلى الجميع، كيف كان الماء، وكيف صدرت الصحف منتظمة ساخنة مع رغيف الصباح، لتوزع بانتظام، ومع الرغيف، على المواقع والمحاور والخنادق والأقبية...

والاذاعات الثلاث: إذاعة الثورة. إذاعة الثورة العربية. إذاعة «المرابطون»، كيف ظلت تدبر برامجها، وتشغل مرسلاتها، وتطور مستواها، تحت جحيم القذائف وغارات الطيران المستمرة.

معجزة حرب المدن. لقد حوصرت مدن في الحروب، لكن تلك المدن كانت ترتبط بقوة الوطن. أما بيروت فقد ارتبطت بوهن الوطن. تلك المدن كانت تأمل في فتح سبل ومنافذ وطرق، أما بيروت فقد أغلقت بوجهها حتى السبل والمنافذ والطرق التي فتحتها هي، بدم شهدائها منذ سنوات سبع. تلك المدن ظلت تتشوف إلى كتائب تنقذها، أما بيروت فظلت متوجسة من كتائب تذبحها...

ومع هذا كله حدثت المعجزة، وفي هذا كله ما كانت بيروت مدينة أشباح. كان أهلها فيها، وكانوا في كل صباح يمنحون العالم: الأسطورة والبهجة وقوة الروح.

■

حديث الثقافة لا يمر عابراً ونحن نستلهم تلك «الأشهر التاريخية». وصور أولئك المثقفين الفلسطينيين واللبنانيين والعرب الذين ارتبطوا بالمدينة الصامدة، لن تبهت.

ومثلما أثبتنا أننا أبناء أمة مقاتلة، أثبتنا أيضاً أننا أبناء أمة تحفظ للكلمة قدرها، وللقول حقه. لقد اكتملت دورة حياة يومية مقدسة: من الرغيف إلى القذيفة إلى الصحيفة. وتعلمنا، في هذه الدورة المقدسة، كيف نكتب حقاً للناس، وكيف نكتب للناس حقاً، عرفنا قارئنا اليومي معرفة حميمة، وعرفنا هو. وتخلصنا، في تلك الأيام، من هالات وأوهام وأوضار. وأدركنا كم هو هائل الفرق بين ما هو ثقافي وما هو ثقافوي. عرفنا المسؤولية، يوماً بعد يوم، ولحظة لحظة. لم نكن شجعاناً، لكننا لم نعد نخشى الموت. لكأن واحدنا وجد نفسه، فجأة، في الامتحان الصعب، وقرر اجتيازه.. هكذا، بدون مقدمات وتأملات، تجد نفسك في الموقع الأمامي، وإذا به موقعك أنت الذي تمنيته، ربما منذ الفتوة الأولى.

لكن الصورة لن تغدو كاملة إذا دأبت على تزويقها وتنميقها. فهناك من هرب منذ الغارة الأولى في الرابع من حزيران (يونيو)، وهناك من ترك بيروت الوطنية ليقيم في مناطق الاحتلال الصهيوني ناعماً بـ «الأمان». وثمت من سكت دهراً لينطق كفراً في مجلسه الخاص. وثمت من كان يهيىء نفسه للبحث عن المجد بين الخرائب، كما تفعل الغربان... والأفظع من هؤلاء... تلك «النخبة» من «حكماء لبنان» التي «حاورت» العدو من موقع «الفكر والحضارة»، وارتضت لنفسها المصير البائس للمتعاونين مع محتلي الوطن.

والآن ماذا يجري هناك، أيها الصديق؟

■

إذن، عاد إلى بيروت من هرب منذ الغارة الأولى، وعاد من مناطق الاحتلال الصهيوني من عاد، بعد أن استوى الصيف والشتاء، أما من سكت دهراً فإنه ينطق الآن كفراً... ولكن على رؤوس الاشهاد، وأعمدة المنابر. وتلك «النخبة» التي «حاورت» العدو تريد الآن أن تمسي ضمير البلد وأهله. وها هم أولاء «مثقفو الطوائف والطائفية» يقدمون «اجتهاداتهم» وما أكثرها،

وما أشدها مبعثة للألم والوجع والغثيان . . أما المبشرون بأوراق أمريكا ومواليها في المنطقة فيبدون الأكثر مكراً بين المضطربين في هذا الزمن المضطرب ، ربما لأن أمريكا قد أعدت للبنان تصورها الذي يستلزم حداً أدنى من «اللاخرافة» وهو حد يتطلب ـ على أي حال ـ «أناساً» لا نسانيس . . . عملاء معتمدين لا طراطير.

«المراجعون العدميون للتجارب الماضية» ، كانوا دائماً مراجعين عدميين ، ابتداء من النص الشعري وانتهاء بالمقاومة الفلسطينية ، هؤلاء المراجعون العدميون كانوا يتمتعون في بيروت الوطنية بتلك الديمقراطية النادرة ، ديمقراطية ما قبل أثينا ، بينما هم يعلنون ، حتى بالصوت العالي ، رفضهم كل ما هو نبيل وشريف في التاريخ الحديث للشعب اللبناني ، بل في التاريخ الحديث للعرب ، بادئين بطه حسين ، منتهين بالشيوعيين اللبنانيين .

هؤلاء المراجعون العدميون ، تراهم دائماً يستبقون «نقع» المعارك ، ينظرون لـ «المجالسية» حين يستدعي الأمر، ولـ «نظرية القوتين العظميين» حين تلح الحاجة ، لـ «الارهاب» حين تدفع الفواتير باسم «الراية الحمراء» : ولـ «الحضارة اللبنانية» حين يشعرون ، في فجاءة عجيبة ، أنهم مواطنون جداً .

لكننا لن ندهش أو نستغرب ، فنحن نعرفهم ، واحداً واحداً ، مرتدين عن أحزابهم وتنظيماتهم ، كارهين كل ما يذكرهم بماض نظيف ، محاولين التنصل ـ حتى شخصياً ـ من علائق يمكن أن تستنقذهم يوماً . نحن نعرفهم ، واحداً واحداً ، وكنا نبتسم لهم ، فقط لأنهم كانوا يوماً ما على صلة بأحزاب وتنظيمات لبنانية نكن لها الاحترام العميق .

وها أنتذا أيها الصديق تحس بـ «دائرة الأصدقاء تضيق أكثر فأكثر مع الأيام» . . . إذن . . . لم يعد بيتك في الجبل ملاذاً وملعباً (علمت أن الاسرائيليين قد احتلوا المنطقة ، وفتشوه أكثر من مرة) ، ولم تعد شقتك ببيروت اليفة كعهدها ، ومن يدري فربما هجرت مكتبك بعد أن نأت مكتبتك . . . لا بأس أيها الصديق ، فالساحة تظل ساحة حتى لو ضاقت إلى مساحة زنزانة .

«الجبهة الثقافية التقدمية». . .

لقد تحدثنا طويلاً بصددها، حين كنا، هنا، في عدن، محمود درويش وأنا.

وأتذكر أن الفكرة كانت ناضجة جداً، وقررنا، آنذاك إصدار بيان في شهر نيسان (أبريل) باسم «بيان عدن»، يعلن عن انبثاق هذه الجبهة. كانت الاتصالات مستمرة في بيروت. وكان المقرر أن يعقد اجتماع يوم الجمعة الرابع من حزيران «يونيو» في منزل صديق بـ «الرملة البيضاء».

لكن شارون أرسل طائراته، تماماً يوم الرابع من حزيران.

يبدو أننا نفيق الآن.

■

لنتزود . . . فالطريق طويلة

اليوم هو الخامس والعشرون من آب (اغسطس). قبل يومين انتخب ثمانية وخمسون نائباً لبنانياً، رئيساً جديداً لجمهوريتهم. علي الآن مغادرة بيروت ضمن قافلة عسكرية تقصد الشام. حتى اليوم لا أعرف موعد انطلاق القافلة، وأي طريق تسلك، طريق بيروت ـ دمشق الدولي. أم طريق البحر إلى اللاذقية لكن هذا لا يهم كثيراً.

ما يهمني، بإلحاح، أن لا أظل دقيقة أكثر تحت الاحتلال الاسرائيلي، وألا تمحي (من الذاكرة؟) الصورة البهية لبيروت. أريد أن أحمل معي المرآة وهي لم تتشرخ بعد.

ومن برج البراجنة إلى رأس بيروت إلى باب إدريس ستظل المتاريس التي خلفتها، عاليه، أبية، ينبت عليها الشجر، ويكمن خلفها مقاتلة بملابس بيضاء رهيفة.

أتيت بيروت في زورتي الأخيرة. يوم الخامس عشر من أيار. وفي الرابع من حزيران (يونيو) كنت في الفاكهاني حين بدأ الاسرائيليون غاراتهم على المدينة الرياضية. ومذذاك وطنت نفسي على البقاء في بيروت المناضلة، مهما صعبت الظروف وساءت.

أكنت أحب بيروت أم أحب نفسي وأنا أتخذ هذا القرار مطمئناً إلى

سلامته؟ ليس سهلا علي أن أعرض الأمر على هذه الصورة. فالتداخل بيني وبين بيروت يمتد بعيداً في الزمن، وعميقاً في الروح.

ومنذ القصيدة الأولى التي نشرتها في مجلة بيروتية. حتى معاينتي الجراح الفاغرة للمدينة وهي تدفع ثمن ما اختارت، أقول منذ تلك القصيدة الأولى، وحتى اليوم، ظل لرمز بيروت ملمس شخصي جداً، شخصي، وأثير.

ألم يكن محمود درويش يلمس الحقيقة حين قال:
«كأننا أسلافنا
نأتي إلى بيروت كي نأتي إلى بيروت».

أكنت ببقائي في المدينة المحاصرة أرد لها شيئاً من فضل عميم، أم كنت أرد عن نفسي (ولو إلى حين) ذلك الخراب الذي يتهددنا في عالم عربي لم تعد فيه بيروت التي نحب؟

عند باب إدريس، وقرب الستاركو، حيث كنت أمس، وللمرة الأولى منذ الحرب الأهلية، حاولت أن أتبين شواخص المكان، أيام كنا في هذا المضطرب، بين المقاهي والمكتبات ودور النشر، فلم التقط إلا اللافتة المهترئة لصحيفة «لسان الحال» القديمة. وأردت دون جدوى أن أعيد تركيب الأمكنة.. لا فائدة.

أهكذا ستكون بيروت يوماً ما؟
أتغيب عنا، ولو في صورة أخرى، فلا نعود نتبينها؟

■

هل فعلت شيئاً طوال تلك الأيام الصعبة؟

أقول: نعم، لكن بصوت خفيض. فماذا بمقدور المرء أن يفعل وسط الدمار الهائل والانفجار المستديم؟ ماذا بمقدور المرء أن يفعل بينما الحياة مصادفة محض؟

ماذا بمقدور المرء أن يفعل وكل نفحة هواء منتفخة بالبارود؟

الحصار الذي يذكر بالحروب القديمة يزداد وطأة مع الساعات. كنت أغلي ماء «البئر»، وأصفيه، وأعجن دقيقاً (فرنسياً!) وأخبزه في مقلاة صغيرة أرغفة عجيبة... خلف لي أحمد الزين مؤونة صندوق بطاطا. وزق زيت زيتون من «الكورة»... وثمت فودكا فنلندية رخيصة جيدة في مخزن «سمث» القريب. أحياناً أسمع جاك بريل وشوبان. اقرأ في «لسان العرب»، وفي كتاب توسيديس «حرب البلوبونيز» الذي يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد! أحاول أن أقرأ شعراً فأفشل. وأحاول أن أكتب شعراً فيكون فشلي أشد.

لكن المرء يألف «خلقت الوفا»، يقول المتنبي. هكذا دخلنا في الفة مع الحصار. لم يعد الحصار كابوساً خارقاً يغلق علينا المنافذ كلها... وبالتدريج عدت إلى الكتابة... الكتابة التي بدأت يومية في «النداء». وأسبوعية في «الحرية». ومتقطعة في «العودة» و «المعركة» و «السفير».

كتبت أيضاً قصائد ليس لي الآن حق الحكم عليها، لكني أعتز بها شهادة وذكرى. ومن يدري... فلعلني معتز بها شعراً.

اليوم أيضاً صدر العدد الستون من «المعركة»، العدد الأخير. وهو يحمل نصاً لي... أنا مرتاح الضمير، فلقد أسهمت في العدد الأول كذلك. كنت واحداً من عشرات المثقفين ببيروت المحاصرة الذين استطاعوا أن يتغلبوا، ولربما بسرعة قياسية، على ارتباك الاجتياح والحصار، وأبقوا شعلة الثقافة المكافحة متقدة... ومن يدري... فقد يدرس الناس، في أحد الأيام، هذه التجربة المريرة الفريدة للمثقفين العرب في معركة بطولية، وقد تستلهم الشبيبة والأجيال الآتية، من وقفتنا، الكثير أو القليل. لكنها ـ على أي حال ـ تجربة لا يمكن أن نمر بها مسرعين.

كنا نكتب تحت القصف فعلاً، في مبانٍ بلا ملاجىء، وعلى ضوء الشموع، عيوننا محتقنة من السهر، وأيدينا ترتعش من رهق ونصب، وشفاهنا يحرقها الظمأ، ورائحة أجسادنا عرق وطين.

وأتذكر زملاء لنا استشهدوا.

■

عند المرفأ يتوافد المودعون. بعضهم صامت، والكثرة صاخبون. الرشاشات والقذائف ترقص رقصتها الأرضية ـ السماوية. وفتاة تنشد في وقع المرثية، أغنية حماسة للمقاتل الذي سيعود. فتيان لبنانيون مبتهجون بسلاحهم الجديد يمنحون استخدامه هذه الصفة المميزة، اللبنانية. التي تعرف دائماً كيف تترك للمتعة مساحة ما. وتبدأ مباراة مخيفة بقذائف «الأنيرغا» على مبعدة أمتار فقط. جنود فرنسيون يعجبون لدقة الاصابة في مباراة أخرى للتهديف بالرشاش على زجاجة وضعت على نشز قريب. يبدأ توزيع المعركة... وينشغل الحشد قليلاً بالنظر السريع. تعود الفتاة إلى نشيدها على إيقاع منتظم من الرصاص المُنطلق، خلفنا، يستعد فدائي ملثم لإطلاق قذيفة «آر. بي. جي»... يناديه الأقربون: ماذا تفعل؟ ارفعها قليلاً. أما هو فكان يعبر عن سخريته بخوفهم وتنطلق القذيفة تاركة بقعة رمادية ـ بيضاء في سماء صافية.

الشاحنات تقترب، وتسري حركة استعداد بين الجنود الفرنسيين واللبنانيين في الجانب الآخر من المتراس.

■

بعد ساعات، يكون هؤلاء الثوريون الملثمون في عرض البحر (الطليق؟). ولسوف يرفعون اللثام. ليتنشقوا. بعد إرهاق. هواء المتوسط...

لقد تركوا وراءهم، أرضاً منحوها بدم الشهيد اسماً باقياً. وخلفوا بين ركام المخيمات أحبّة وأقربين. وساروا، على مضض، رافعين رايات الثورة وبنادقها في زمن الارتكاس.

المعسكرات التي تنتظرهم، وضعت منذ زمن، لوائحها الشرسة.

وإلى أن ينفتح باب ، سيظل هؤلاء الملثمون، وهم عز الأمة وفتوتها ، يكظمون الغيظ ، ويكزون على الأسنان .

■

وها نحن أولاء ، كأسلافنا الشعراء القدامى ، نقف على الأمكنة . نقف ونستوقف ، ونذكر الأحباب والمنازل .

مقهى «أم نبيل» الذي غدا (فعلاً) تراباً تسفوه الرياح .

مقهى «التوليدو» وقد غدا ركاماً .

مكتب ماجد أبو شرار .

وكالة وفا .

قاعة عز الدين القسام .

مكتب مجلة «الطريق» بالبربير .

والعديد العديد مما كان يشكل عالماً كاملاً متكاملاً .

إلى أين سنمضي؟

■

المقاومة الفلسطينية ، حتى ونحن بعيدون عنها في أقطارنا، كانت تشكل حصانتنا الأخيرة من أدواء تتهددنا . وأوضار تحاصرنا .

كان عنادنا في وجه القمع والفظاظة بضعة من عنادها .

وهي ملتجأنا الكريم حين يلح العسف ويستشرس .

أجيال من المثقفين العرب أقامت ارتكازها وتوازنها الصعب على جذع المقاومة . . لقد أنقذت المقاومة الفلسطينية هذه الأجيال من المستنقع المحيط، وضمنت لها إمكان الابداع والاستمرار، والحفاظ على علو الجبين وكرامة الفرد الحر . .

فماذا نفعل الآن؟

لن أكون متساهلاً في التفاؤل .

لكن لي ثقة عظمى بأن ما حدث منذ الرابع من حزيران لن يمر بالسهولة التي يرجوها العدو.

أما نحن، فلنتزود للطريق الطويلة.
لنعض على شفاهنا حتى تدمي.
حتى ينطلق النشيد.

بيروت ٢٥/ ٨/ ١٩٨٢

شهادة الأطباء في زمن الحرب

ثلاثة من المتطوعين الأجانب في مستشفى مخيم «صبرا» أدلوا بشهاداتهم، انهم رجل وامرأتان: طبيب بريطاني اسمه بول موريس (٣٠ عاماً). وطبيبة في التجبير من سنغافورة اسمها سوي شاي آنج (٣٢ عاماً)، وممرضة امريكية يهودية هي ايلين سيجل (٤٠ عاماً).

وقد نشرت الديلي تلغراف، اللندنية خلاصة ما للشهادات التي أدلى بها الثلاثة أمام «لجنة التحقيق» الصهيونية.

تعتقد الشاهدة، الآنسة ايلين سيجل اليهودية الأمريكية، البالغة من العمر أربعين عاماً، أن الجيش الاسرائيلي لا بد أنه كان يعرف بالمذبحة، وكان بمقدوره إيقافها. وبما أن للاسرائيليين مركز قيادة على مبعدة بضع مئات من الياردات عن المخيم، وفي بناية عالية، فقد أوضحت الآنسة سيجل قائلة «مستحيل أن الاسرائيليين لم يستطيعوا رؤية ما كان يجري، أو سماعه.. فقد كانت اسرائيل مسيطرة».

شاهدة أخرى هي الدكتورة سوي شاي آنج (٣٢ عاماً) وهي من سنغافورة، وتخصصت في بريطانيا، بجراحة التجبير، قالت ان الجرحى الذين كانوا يصلون إلى مستشفى المخيم يوم الخميس السادس عشر من سبتمبر لم يكونوا سوى قطرة قياساً بالسيل الذي تدفق ليلاً. «لقد كنا هناك، فريقاً هزيلاً، من اثنين وعشرين أجنبياً، نبذل أقصى جهدنا، لاثنتين وسبعين

ساعة متصلة، وبلا نوم، ولا غذاء، محاولين إنقاذ حيوات، بينما كان الناس يموتون بالآلاف». وذكرت أنها التقطت صور ثلاثين جثة في مستودع الموتى بالمستشفى، كما شاهدت ثلاث جثث ملقاة على جانب الطريق، بينما كانت الميليشيا الكتائبية تخرجها هي وأعضاء الهيئة الطبية الأجانب من المخيم، يوم السبت الثامن عشر من سبتمبر. وبينت أنها أجرت عمليات على سيل من المصابين، ومن بينهم أطفال. وقالت «حدثني الناس عن مسلحين اقتحموا مساكنهم وأخذوا يطلقون الرصاص على أسر بكاملها. ذكر بعضهم أن المسلحين كانوا اسرائيليين، بينما ذكر آخرون أنهم كتائب. حتى الممرض الذي يعمل معي أصيب، فكان علي أن أجري عملية له، بعد أن أطلق عليه الرصاص وهو واقف عند احدى نوافذ المستشفى». تدفق اللاجئون الفلسطينيون إلى المستشفى، طلباً للحماية. وكان آخر من أجرت له عملية، فتى في الحادية عشرة أصيب في ساقه وذراعه. «أخبرني أن الكتائبيين قتلوا عائلته كلها، وقد تمدد هو خائفاً، على أجساد القتلى، لوقت ما، قبل أن يكتشف ويؤتى به إلى المستشفى».

وذكرت الآنسة شاي آنج أن إطلاق النار كان مستمراً ليل الجمعة وصباح السبت الباكر. وأن مجموعة جنود مسلحين جاؤوا إلى المستشفى يوم السبت. ظنت أولاً أنهم من الجيش اللبناني، لكنها لم تكن متأكدة من هويتهم. وقد سألها ضابط باللغة الانجليزية عن عدد القتلى الذين شاهدتهم. وبأمر من هذا الضابط أخرجت الهيئة الطبية الأجنبية من المخيم، وفي الطريق إلى خارج المخيم شاهدت مجموعات من النساء والأطفال إلى جانب الطريق، وكانوا محاطين بجنود لم تستطع معرفة هويتهم. «حاولت امرأة ان تسلمني طفلها كي آخذه معي خارج المخيم، وقد أخذت الطفل لبضع دقائق، لكن جندياً أمرني بإعادته. وحسب ما أخبرتني ممرضة سويدية، فإن إطلاق الرصاص استؤنف بعد ساعة من مغادرتنا المخيم، وأنها سمعت نساء يصرخن، واستمر الصراخ عشرين دقيقة، ثم همد كل شيء».

■

الشاهد البريطاني قال ان النساء والأطفال كانوا بين المصابين الذين أدخلوا مستشفى المخيم، بعد وصوله إلى هناك من بيروت، صباح الخميس.

العديد كانوا مصابين بنوع دقيق من الشظايا، لم يره من قبل.

«منذ وصولي، ازداد الأمر سخونة، واكتظت الردهات، بحيث نقلنا عدداً من المرضى إلى مستشفيات أخرى. وكنا نجري العمليات باستمرار».

بعد توقف لإطلاق الرصاص، صباح الجمعة، سمعوا إطلاق النار، ثانية، لمدة ساعتين ونصف الساعة، وجيء بالمزيد من المصابين، وبضمنهم «من أطلقت عليهم النار في مساكنهم». وقد سمعوا مزيداً من الانفجارات في المساء المبكر.

وذكر الدكتور موريس، وهو يصف زيارة الجنود صباح السبت، أن مجموعة من خمسة جنود كانوا أنيقي الهندام، بخلاف الآخرين الذين رآهم. كانوا مسلحين. وسألوه باللغة الانجليزية عما حدث في المستشفى، وعن عدد الاصابات.

وقد وافق الجنود على بقاء ممرضتين كي تعتنيا بالمرضى من ذوي الحالات الخطرة.

وبعد أن غادرت هيئة التمريض المستشفى، وسارت في المخيم، شاهدت جنوداً جددا ينضمون إلى السابقين، وكان هؤلاء ذوي مظهر خسيس. وكثير منهم يتكلمون باللغة الفرنسية.

■

في أواسط أغسطس (آب) ذهبنا إلى مخيم صبرا، الأخ عبدالله سالم القائم بأعمال اليمن الديمقراطية آنذاك، و «أبو نبيل»، ومراسل صحيفة «لومانيتيه» الفرنسية، وفرنسي آخر متخصص بالعمارة العربية جاء إلى بيروت متطوعاً، ودليل أمضى في المخيم ثلاثين سنة من حياته. كان وقف إطلاق النار ثابتاً. وكنا نريد أن نرى ما بقي من المخيم بعد الجحيم المستمر من الغارات الاسرائيلية وقذائف المدفعية والبوارج.

الطريق الرئيسي إلى المخيم خال موحش. شققنا سبيلنا عبر الركام، صاعدين. وقد أوصانا مقاتل كان يرافقنا بالا نسير في وسط الطريق، وبأن نترك مسافة جيدة بين الواحد والآخر، مبيناً، وهو يشير بيده، أن الاسرائيليين وراء ذلك الحاجز الترابي غير البعيد، وأنهم يرصدون باستمرار، هذا الطريق. وعرض علينا - إن شئنا مشاهدتهم - الصعود إلى بناية معينة، منحنين. لنطل من خلال ثغرة في جدار ما. على الموقع الاسرائيلي. تطوع بعضنا، وتردد الآخر، لكننا كنا نحس تماماً، ومثل وخزة الابرة، بالناظور الاسرائيلي يتابع خطواتنا الحذرة. كنا متوقفين، نستعيد أنفاسنا بعد أن بلغنا نهاية المرتقى، وننتظر هبوط من صعد إلى تلك البناية ليشاهد الموقع الاسرائيلي. في تلك اللحظات انتبهت إلى الأوراق المتناثرة تحت أقدامنا، الأوراق التي تعبث بها الريح. المخيم أمامنا، أبنية جاثية، وأزقة مغلقة بكتل الاسمنت وقضبان الحديد والأخشاب ونحن نسند ظهورنا إلى الجدار قلت انني انتبهت إلى الأوراق المتناثرة. تناولت ورقة كانت رسالة عائلية حميمة. فجأة رأيت صورة فوتوغرافية بين الأوراق الملقاة، التقطت الصورة. ها هي ذي العائلة كاملة، الأب والأم والأولاد والبنات. كانوا في تلك الأناقة المتواضعة التي يتحلى بها سكان المخيم حين يكونون في عرس أو حفل أو اجتماع. ومن يدري.. لعل الصورة التقطت في مرة من تلك المرات النادرة التي تجتمع فيها عائلة فلسطينية «بكامل أعضائها»... ترى... أين هم الآن؟ أين ذهبوا؟ إن كانوا تركوا وراءهم حتى الصورة العائلية فماذا تراهم حملوا معهم؟ وماذا عن الذكرى والمستقبل والمصائر البشرية؟ المخيم أمامنا... أم الذاكرة؟ لا أحد إطلاقاً. الريح وحدها، والورق المتناثر، والركام، وذلك الموقع الاسرائيلي غير البعيد. يقول لنا الدليل: خير أن نسلك هذا الممر. أنا أعرف المخيم أكثر من «مختار». منذ ثلاثين عاماً جئت هنا. أعرف كل باب، وكل نافذة. أعرف تواريخ البناء والأبناء وأسرار الأزقة الدوارة. وأعرف القادمين الجدد والراحلين القدامى. حياتي هي المخيم. هكذا: من فلسطين إلى هنا.

كنا نسير في ذهول السائر في نومه. لم يكن أحدنا ليكلم الآخر. حتى لم

يكن أحدنا ليتأمل . ان كابوساً حقيقياً يجثم على الأنفاس . البيوت متناثرة الكتل . غرف النوم في الطريق . الكتب مبعثرة كالحصى وصور الشهداء تحيا ساعاتها الأخيرة. ثمت ماكنة خياطة في غرفة مفتوحة. رواية شهيرة باللغة الانجليزية ونباتات منزلية مغبرة الخضرة . ونحن ما نزال نسير، حذري الخطى ، حذري الرؤوس . فالممر يضيق أحياناً إلى حد عجيب . وتختفي ملامحه ، لا أرض تطؤها ، ولا فضاء فوقك : الأرض ركام وأنقاض حديد وخشب وجدار نصف منهار . لكأن كل بيت من بيوت المخيم تعرض لعملية نسف خاصة . عملية جرت بهدوء وتأن استثنائيين . وإلا فهل يعقل أحد ألا ينجو بيت واحد ، بيت واحد فقط . من القصف والقذائف؟ قال الدليل : «من هنا» . . . وانعطفنا وراءه . فجأة سمعناه ينادي : ماذا تفعلون يا شباب؟ لم يكن أمامنا غيره ، لكننا حين تقدمنا قليلاً رأيناه يحدث ثلاثة فتيان داخل بيت مبعثر منهار السقف والجدران . ماذا تفعلون يا شباب؟ أجابه أحدهم : نبحث عن شهاداتنا المدرسية!

نبلغ نهاية المخيم . كنا عطاشاً . ابصرنا بحنفية ماء تتدفق بكل حريتها . شربنا . ووصلنا الشارع حيث حدود المخيم القديمة . تأتي شاحنة صغيرة محملة بالخضار . أكيد أنها جاءت عبر «حي السلم» ، بعد أن دفع سائقها رشوة للجنود الاسرائيليين . نريد أن نبتاع شيئاً لكن السائق يقول انه يبيع الشاحنة كاملة . . .

الدليل يودعنا ، ونتجه إلى بيروت تحت سماء مسائية عكرة .

■

في الفندق ، قيل لنا ان سكان المخيم الذين هجروه ، سوف يعودون قريباً ، وأنهم سيعيدون بناء ما تهدم ، وأنهم يصرون على بقاء هذه الأرض الفلسطينية الصغيرة . أرضاً فلسطينية صغيرة . كانت فنادق «الحمراء» ، والأدوار الأرضية ، ودور السينما ، والمدارس ، غاصة بمن تركوا المخيمات ، والتجأوا إلى وسط المدينة هرباً من القصف المستمر .

أما الآن ، فقد حانت ساعة العودة . . كان وسط المدينة يقفر بالتدريج . إذن ، عاد أهل المخيم إليه .

■

جاءت أم إبراهيم، وجاء أبو العبد، عاملات «صامد» جئن، وباعة الفلافل جاؤوا، الفران، وأشبال فتح المناضل في التنظيم جاء، وكبير العائلة. والأطفال جاؤوا من ممرات فنادق المهجرين إلى أزقة المخيم المغلقة بالركام ليتخذوها ملعباً. الطلبة المزمنون في جامعة بيروت العربية جاؤوا، والمغني الأعمى. أبو حميد جاء بملابس مدنية للمرة الأولى، والزوجات اللائي ودعن أزواجهن في ساحة «أبو شهلا» جئن. و . . . هاك يا مخيم . . .

■

وكان شارون يرسم «دير ياسين» بألوان أشد فظاظة على لوحة واسعة. مثل ١٩٤٨ إذن، نرهبهم كي يهربوا.

ولثلاثة أشهر ظل شارون يحاول أن يرهب الروح. لكنها روح تصلبت في المخيمات والمنافي وحصار الأنظمة. روح تغلغلت في الذراع المسلحة. روح تصلبت وصفت كالبلور في وقدة العالم المحيط وقسوته.

ليس ثمت من يهرب .

وقال شارون: لم يبق إلا الابادة.

وتلقى ممثل الموساد في مركز الكتائب تعليمات القتل المفصلة.

وتلقى ضابط ارتباط الكتائب في مركز القيادة الاسرائيلية التعليمات. أيضاً.

■

بعد أسبوعين من رحيل سفينة المقاتلين الأخيرة بدأت المجزرة.

وفي تلك السفينة كان العميد سعد صايل (أبو الوليد). وكان أبو أياد وأبو موسى . . . أما شارون فما كان بإمكانه أن يقدم دبابة واحدة.

مساء الغارة

في الغارة يكون الاحتمال هو القانون.

كنت في الفاكهاني، بين اليقظة والمنام، أحاول أن ألتقط شيئاً من جوهر «ريلكه» الشعري، مريم عند ريلكه. وكنت أمنح نفسي ذلك الانجراف السائب الرخيّ، الضروري في محاولة بلوغ «الحالة».. مجموعة تكيفات ذهنية وجسدية وعصبية!

سريري لصق النافذة.

فجأة سمعت طائرة. كانت قريبة إلى حد ظننت فيها أنها ستخترق النافذة. أهي طائرة ضالة؟ لكن الطيران المدني لا يسلك هذا الخط. وأسمع الانفجار الثقيل وأصوات المضادات المتلاحقة في تقطع مذهل. إنها الغارة... ريلكه ينقذف إلى أرضية الغرفة، بينما تتلاشى مريم، شفيفة، من النافذة. في الغارة يكون الاحتمال هو القانون.

للوهلة الأولى، وأنت وحيد، يفجؤك الفزع. تهبط السلالم، لاهثاً، من الطابق الأعلى (الطابق الأعلى دوماً).. وقد تنسى في عجلتك اللاهثة بعض ما ترتديه. لكنك ما تكاد تجد نفسك بين الناس في أسفل العمارة، أو عند مدخل القبو «الملجأ»، حتى تعود إليك الابتسامة اللازمة في مثل هذه الظروف.. ثمت أطفال ونساء، وبنت تمسك بيد طفل ذي عينين واسعتين بصورة غير اعتيادية.

الاحتمال هو القانون .

وأنت في الدائرة الضيقة بين الحياة والموت . الحياة ليست اختياراً ، فهي لك ، هكذا . والموت لم يكن اختياراً . ربما كان معادلة في بعض الأحيان .

أنت الآن في اختيار المواجهة فقط. مواجهة الاحتمال .

وعليك أن تقدم المثال ، حتى لو اعتراك ما يعتري البشر من رجفة مؤقتة ، أو ارتباك عابر .

القبو ـ الملجأ ، فيه مشغل خياطة . الباب الأخرى (المنفذ الآخر) لا تنفتح إلا بإطلاق الرصاص ، والهواء ثقيل ، موجات الضغط الهوائي التي تسببها الطائرات المغيرة ، هي التي تجدد وحدها وخامة المتنفس . الأطفال يبكون ، والفتيان يتراكضون بين باب العمارة ومدخل القبو ، مسرعين بالأنباء : القصف على المدينة الرياضية .

وتتساءل امرأة تساؤلاً ملحاحاً : و «شاتيلا»؟

يقول لها أحدهم مطمئناً : لم يقصفوا شاتيلا (استبعد عاماً كلمة «بعد») . المرأة من شاتيلا ، داهمتها الغارة ، فالتجأت إلى هذا القبو .

توقفت الغارة دقائق . المرأة تندفع إلى الشارع . تريد أن تذهب إلى شاتيلا . يمسك بها أحد سكان العمارة : لن نسمح لك بالخروج . سوف تعود الطائرات . نحن نعرفهم هؤلاء الأنذال .

ويقول آخر، وهو على الدرجة الأخيرة من السلم الهابط نحو القبو : «الحكام الأحذية» . يردّ عليه الأول : للأحذية فائدة في الأقل . أما الحكام . . ان الأحذية تشرِّف رؤوسهم .

أبو نزار يردد قصيدة لمظفر النواب . يسألني : أتكتب قصيدة تحت القصف؟ كنت في الأردن ، كتبت وهم يقصفوننا . أسميت مجموعتي «قصائد تحت القصف» . ما أقول لك يا أبا نزار؟ ماذا أقول وأصوات الطائرات المغيرة ، الانفجارات هي العالية . . ولا صوت سواها؟ أأقول لك : كنت

أكتب قصيدة عن مريم ريلكه؟ لن تسخر بي أكيداً، لكنني سأسخر بنفسي حتماً.

أحد الشباب يأتي مبلل الثياب: كنت في المدينة الرياضية. لقد استفردوها حرثوها حرثاً، وفجروا حتى المياه.. المياه الآن بارتفاع أربعين سنتميتراً.

من جديد، تأتي الغارة.

ونغادر باب العمارة مسرعين إلى القبو. نسيت سجائري في الطابق الأعلى. استعمال المصعد ممنوع. سأنتظر قليلاً حتى يهدأ القصف. توقفت الانفجارات. أصعد السلم الأول في محاولة بلوغ الطابق الأعلى. لكن انفجاراً جديداً يندلع كأنه قرب الباب، وتندفع موجة الضغط الهوائي. اهبط ثانية، إلى القبو..

بعد قليل جاء الشباب بالسجائر لنا، وبالبسكويت وزجاجات الماء للأطفال.

اشربوا ماء.. فهو يهدىء الأعصاب!

نظر الذي اتخذ القبو مَشْغلاً. نظر إلى السقف في مدخل العمارة المؤدي إلى «الملجأ» وقال بثقة العارف الخبير: هذا السقف تركيب. انه ضعيف وربما أسقطه الاهتزاز!

ماشي الحال.. على أي حال..

توقفت الغارة التالية. وفي الفسحة بين الغارتين (عشر دقائق في احدى المرات) غادر الملتجئون القبو، مسرعين إلى ملاجىء منازلهم. آنذاك جاء الذي اتخذ القبو مشغلاً، وسأل أحد الشباب: هل أغلق القبو؟

دهشت للسؤال. لكن الرجل يخاف على ممتلكاته في المشغل..

ونحن.. ماذا نفعل؟

الافتراض الدائم المتحقق هو عودة الطائرات المغيرة، ونسأل إن كان لدى الشباب مفتاح آخر. أجل.. لدينا مفتاح آخر. ويمضي صاحب

المشغل، ونظل نحن عند باب العمارة، نتنشق طراوة الهواء الندية. بينما المقاومات الأرضية تملأ السماء العالية ببقع دخانية تبدو بيضاء في البعيد..

وراء متراس الأكياس الرملية، وقفنا. الشباب معنا، وجهاز ترانزستور صغير جداً، طلق اللسان، يذيع آخر الأنباء.

«الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة من بعد ظهر [ذلك] اليوم، أغارت أسراب من الطائرات الحربية الصهيونية على دفعات متتالية، على عدد من المناطق المدنية في منطقة بيروت الغربية، وقد تركز القصف الصهيوني الوحشي على المدينة الرياضية (. . .) كذلك قصف الطيران الحربي الصهيوني مخيمي صبرا وشاتيلا..».

إذن، تلك المرأة التي أرادت أن تذهب إلى شاتيلا، كانت تعرف بالبداهة الصارمة أن بيتها الصغير في شاتيلا مهدد بالانهيار.

■

الساعة الآن هي الخامسة والنصف. لقد استمرت الغارة الصهيونية ساعتين. أردت أن أغادر، فقيل لي: انتظر ساعة أخرى.. إنهم غادرون.

في الساعة السادسة والنصف بدأ بحثي عن مكان آوي إليه هذه الليلة. أساساً، عليّ أن أغادر هذا المكان، والمكان الآخر، قصدت منزلين فوجدت أهلهما قد غادروهما. إذن، لأذهب إلى بيت صديق ما دام معي المفتاح. فتحت الباب ودخلت.. لقد ارتحل الصديق وزوجته وطفلهما. أبقيت الضوء مطفأ، كنت متعباً حتى العياء، مرهقاً بصداع حاد. حاولت النوم مبكراً، لكني لم أستطع النوم إلاّ حوالي الواحدة. استيقظت في الصباح الباكر. قمت بدورتي المعتادة في دروب الفاكهاني. أخيراً قررت أن أقصد المدينة الرياضية. لكني، وأنا في أول الطريق إليها، سمعت المضادات الأرضية، كان الصهاينة يقولون للناس صباحهم الكريه.

ليست حيرة هذه التي نحن فيها، ربما كانت الحيرة قبل عشرات السنين، منذ ١٩٤٨ مثلاً. أما الآن فإننا في الوضوح الشرس.

نحن ـ استطراداً في القول ـ نتوقع هذا من «اسرائيل»، ومن وكلاء «اسرائيل» العرب، الحكام الممتدين «من الماء إلى الماء».

منذ عشرات السنين، ونحن نتوقع هذا. حاولنا، نحن الثوريين العرب، بقدر درجة وعينا، أن نحوّر في الصورة، ونعدّل.. لكننا لم نفلح إلا في استبدال حكام بحكام، حكام أقل تطوراً في الخيانة، بحكام، ثبت لنا، فيما بعد، أنهم «أعلى» تطوراً في الخيانة. كان السابقون يبدون الأسف، أما اللاحقون فيجهرون بالشماتة.

كيف يستطيع المرء أن يكتب؟ سيارات الاسعاف تندفع، مطلقة صفاراتها إلى أقصاها، مطلقة سرعتها إلى أقصاها.. والشهداء تزدحم بهم الشوارع.. والغارات على الدامور والناعمة.. نزولاً إلى الجنوب كله.. إلى أرنون.

وفي الغارة يكون الاحتمال هو القانون.

في هذا اليوم، التالي للغارة، يخيم الكابوس على المدينة.
أين أمضي إذن؟
إلى الجبل؟ لكن الناس هنا.. النساء والأطفال.. أصدقاؤك ورفاقك هنا.. والجبل لا يتسع لمدينة.

فلتبقَ في مكانك. في موقعك.
ولم لا تذهب إلى المجلة؟ صحيح أنك متعب حتى العياء. صحيح أنك مرهق بالصداع المديد.. لكن.. لم لا تجرب الكتابة وأنت متعب مرهق؟

جرب. فلعلك قائل شيئاً.
أحياناً، تهب حالة الحصار، حرية داخلية قصوى.

أنت منذ ثلاثة أشهر، منذ كنت في «عدن» لم تكتب قصيدة. وها انتذا بين الرابع من حزيران والخامس منه تكتب أربع قصائد. حقاً، ان القصائد التي كتبتها لا تتصل بالغارة.. لكنها، في الأقل، قهر لحالة الحصار، واكتساب للحرية. انها، في الأقل، رفض للشلل الذي يريدونه لنا.

بعد قليل يهبط المساء .

سوف تخلو الشوارع من السيارات والسابلة ، وتخفت الأضواء ، وينتشر المقاتلون .

وفي الليل سيكون للخطى السائرة وقعها . .
وأنت مع السائرين .
وما الذي سيحمله الغد؟
لا تسل عن نفسك . .
سل عن هذا الوطن .

■

«شمس المتوسط» تنتظر

«شمس المتوسط» كانت السفينة الأخيرة التي تغادر بيروت. كان ذلك في الأول من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ (يا لوحشة الذاكرة!). والمقاتلون الفلسطينيون يتوجهون هذه المرة، في دفعة أخيرة، إلى مرفأ طرطوس السوري. أما لماذا كنت، أنا، مع هذه الدفعة الأخيرة، فتلك حكاية طويلة، طويلة إلى حد أعجز عن بلوغه، ربما لأنه يمتد غائراً في النفس حتى لا تكاد تحاول مداه، ربما لأن رشيش الباريتا الايطالي كان مصقولاً بشكل عجيب، وربما لأن الكتب صارت توزع بالمجان في الجامعة الأميركية. لماذا تتذكر الآن (الآن بالذات) أن دفعتك لم يودعها أحدٌ. لم يودعها إلا فتى لبناني واحد أطلق صلية من رشاشه حين مرت الشاحنة العسكرية، ثم اختفى مسرعاً في زقاق قريب. كانت المدينة تعود إلى أعماقها، وبانتظار البرابرة (كما في القصيدة الاغريقية) كان رجال قانون ومحترفو سياسة مزمنون. بانتظار البرابرة (كما في القصيدة اللبنانية) كان ثوار وأطفال ملتحون. أما المتاريس والسواتر الترابية، فقد سويت تماماً. لم تعد خارطة طرق العاصمة تتغير على مدار الساعة. الطرق مفتوحة. المدينة مفتوحة.

ومن ذلك الموقع العالي، المطل على المخيم، ينشر آرييل شارون خريطة لأزقة الدم. السماء زرقاء مذهلة. المدينة مقفرة تماماً. الشاحنات تتحرك وحدها. سينما قيامة. رائحة البحر تقترب. كنت ودعت محمود

درويش، وقبله أدونيس وخالدة. آخر المودعين محمد كشلي وحبيب صادق، جاءت منى السعودي مع ابنتها التي شرعت تعابث البيانو في «فندق كافاليية». تقول سأبقى مع تماثيلي المنثورة في الحديقة والمشغل. اذهبوا جميعاً وأتركوني هنا. لكنهم يعرفونك يا منى. محمود رفض البحر. جاؤوه بالكوفية والبدلة العسكرية والكلاشن، وحددوا ساعة رحيله. قال: إني أكره البحر. ثم غادر الفندق. اختفى. وسفينته غادرت. قبل يومين التقيت بحسين مروة ومحمد دكروب في مستشفى الجامعة الأميركية. كانا يعودان جريحاً. قالا: ستكون الظروف عسيرة. و «أسير الضاحية»؟ ما قصة أسير الضاحية الذي دخل التاريخ بنداً مستقلاً في المفاوضات؟ السواتر مسوّاة بالأرض. المدينة مفتوحة. الطرق مفتوحة. البحر مفتوح. جنود أميركيون متدرعون متجهمون. لماذا تولد لديّ إحساسٌ بأن كل الجنود الأميركيين ذوو نظارات طبية؟ جنود فرنسيون أقل كلفة وأوضح حرفة. ينبغي عليك أن تقفز من الشاحنة العالية بخفة الفدائي. ألست ترتدي بدلته، وتعتمر كوفيته؟ في المرفأ جنود لبنانيون في غاية الأناقة. تسجيل أسماء المغادرين. حقيقة؟ البحر وحده هو الحقيقي، الناس والوجوه والأشياء في حالة من ذهول التحول. «شمس المتوسط» تنتظر. ضعوا أسلحتكم هنا. في هذه الحاوية. الباريتا قصير، وما هو بالحمل العسير. «شمس المتوسط» فارهة. والبحر وحده الحقيقي.

■

وقف لإطلاق النار. نحن في «حي السلم»، بيننا وبين الاسرائيليين بضع شجرات رمان. قبل أيام، وفي الحي نفسه، كان الاطلاق غزيراً، والطائرات تهدر في سماوات صافية منطلقة نحو أهدافها، نحن بيننا وبين الاسرائيليين جدار يمتد طويلاً. خلفه، وفي الأرض الحرام دبابة اسرائيلية معطوبة. أراد الاسرائيليون سحبها فواجهتهم نيران قنص. عليك أن تنحني وأنت تركض لصق الجدار. ان رفعت رأسك فقدته. في الملجأ كان مقاتلون وضباط. لماذا جئتم في هذا اليوم؟ انه من أشد الأيام ضراوة. نحن هنا قوة تعويق.

مهمتنا الاشتباك مع العدو وتأخير تقدمه. ألم تروا الدبابة في المنطقة الحرام؟ مشكلة مقاتلينا أنهم يتمشون في الطريق كأنهم في نزهة. الأشجار مغرية. لكن ماذا سيحدث لو داعبتهم طائرة اسرائيلية؟ يا ملازم.. قل لهم يستتروا. بيوت الحي مثل تلك البيوت المتناثرة في غوطة دمشق. خفيضة ذات نبات متسلق وظلال شجر ورائحة ربيع دائم. أهل الحي هجروه منذ أمسى من خطوط التماس، وجاء هؤلاء المقاتلون المترحلون ذوو الأسلحة الخفيفة. المدافع؟ كيف نأتي بالمدافع إلى هذا المكان؟ ألست ترى طائراتهم تمشط حتى سيارات الصليب الأحمر؟ ولو افترضنا أننا جئنا بمدفع.. أتعرف ما سيحل بالحي؟ أنتم جئتم من «الطريق الجديدة».. ألم تروا ما فعلته الطائرات بالعمارة الملاصقة لمطعم «التوليدو؟ ثم... دعني أسألك: أهذه البيوت من أملاك أبي ليحق لي أن أسكنها اليوم وأهدمها غداً؟ عجيب! هل قطعت الطريق كله من «البربير» إلى هنا، متعرضاً للموت، ومعرضاً السيارة وهذا السائق المسكين للقصف.. هل قطعت الطريق كله لتسألني عن المدافع؟ عجيب والله! أكلُّ ما تعرفه عن العسكرية هو أن تشتم العسكر؟ ضحك الملازم ناصر. يا عمي خلصنا. غلط وسأل سؤالاً. بكرة يعرف كل شيء. تشربون شاياً؟ تأكلون؟ مقلوبة ولبن. هدرت الطائرات منخفضة مزمجرة كأنها ستدخل من باب الملجأ. لا تخف.. انها متجهة صوب الجبل. السائق يتعجل العودة. القصف يشتد، من البعيد أصوات انفجارات مكتومة. والمقلوبة لم تأت بعد، وكذلك الشاي واللبن.

كان هذا قبل أيام. أما اليوم فنحن في وقف إطلاق النار. بيننا وبين الاسرائيليين بضع شجرات رمان. الفلسطينيون انسحبوا من هذه المواقع بعد أن بدأت السفن تأخذهم إلى البحر. اختفت الجبهات والفصائل بأعلامها وشعاراتها وملصقاتها ووجوه شهدائها. المقاتلون الشتامون الضاحكون انسحبوا وأخذوا معهم سجائرهم وعدة الشاي. ونحن الآن بين فتيان ملتحين هادئين. يجلسون طويلاً إلى أسلحتهم ويتأملون حتى كأنهم يسبحون. أشار أحدهم بيده إلى ثالث شجرة: لا تقطع رماناً من تلك الشجرة. ثمت جندي

اسرائيلي وراءها. سألنا آخر: من أين أنتم؟ أجبناه. والمفاجأة العجيبة: لا نريدكم.. لا نريد أي واحد منكم. أتركوا بلدنا. نحن نتكفل باليهود. الفرنسي تساءل عما قاله الفتى الملتحي. ابتسم. ابتسمنا. سلّمنا على الفتى: نحن راحلون بعد يومين. أجاب: مع السلامة. الشجرة الثالثة ما تزال كما كانت، مثقلة بالرمان الأخضر، ووراءها جندي اسرائيلي.

■

زحف المخيم على «الحمرا». احتلها. الفنادق ودور السينما والمعاهد امتلأت بنساء وأطفال على غير شاكلة من عرفتهم. شارع الحمرا ومتفرعاته سوقٌ شعبية هائلة. ملابس. فول. فلافل. أحذية. حقائب حقائب حتى آخر العالم. الصرافون في بهجة عيد. والمقاتلون يذرعون الشارع جيئة وذهاباً يشترون ملابس مدنية سوف يلبسونها يومين فقط كنت في شقة مقابل سفارة ألمانيا الغربية برأس بيروت. شقة في الطابق الثامن. من الشرفة كنت أرى البارجة الاسرائيلية المموهة حتى لتكاد تذوب في لون البحر. بدأ القصف ينال الحمرا. المشهد المروع لعمارة الصنائع. كنت أقطع الشارع ركضاً حين انفجرت قذيفة على مبعدة خمسة عشر متراً. في مدخل مستشفى الجامعة الأميركية أدخلوا قتيلاً محمولاً على نقالة.. كان رأسه مفتوحاً، ومخه يتناثر على الأرضية. راقبت أرضية المدخل. عبرت النقالة، وظللت أراقب نثير المخ. الناس يدخلون ويخرجون. أحذيتهم تمسح شيئاً لم ينتبهوا إليه. وتظل تمسح. بعد دقائق ذهب كل أثر. أحسست بما يشبه الدوار. قتلى ما قبل الرحيل. سأذهب إلى شاتيلا. مركز المراقبة الاسرائيلي غير بعيد. عليك أن تسير لصق الجدار أيضاً. كانت ريح خفيفة تزوبع أوراقاً وصوراً. أطلال المخيم. لم يبق حجر على حجر. أي نظام متكامل اتخذه القصف كي يحول المخيم فعلاً إلى أطلال؟ لا أحد في المخيم. فجأة رأيت ثلاثة فتيان داخل حجرة فاغرة، ماذا تفعلون هنا؟ نبحث عن شهاداتنا المدرسية. هذا بيتكم إذن؟ سرت وأنا أنظر إلى الأرض كأني أبحث مثلهم. عمّ أبحث؟ وتمسك يدي بالصورة. صورة فوتوغرافية متقنة. صورة استوديو. كان فيها عائلة

فلسطينية كاملة . اثنا عشر شخصاً . الأب . الأم . الأبناء . البنات . كلهم جالس في ثبات ينظر إلى الكاميرا بدون أن تطرف عيناه . كيف اجتمعت الأسرة كلها كي تلم شتاتها في هذه الصورة الثخينة؟ من يدري . . ربما كان الأب يعمل في الخليج . ربما كان الأبناء متوزعين على قواعد متباعدة . والبنات؟ أكنّ مع أمهن في شاتيلا أم مع أبيهن وجئن يزرنها؟ كيف دخلوا الأستوديو؟ من تقدم؟ من أفسح المدخل لسواه؟ كيف عدّلت الأم جلستها أمام الكاميرا؟ كم نسخة من الصورة أرسلوا إلى مدن بعيدة؟ إلى أصدقاء وأقرباء؟ وهذه الصورة بالذات . هذه الصورة التي ألقاها طيران العدو بين الركام . . من كان يحتفظ بها؟ احتفظت بالصورة دقائق ، ثم أعدتها إلى مكانها بين الركام . لمن أحملها لو أخذتها؟ ألن تعاتبني عيونها الأربع والعشرون؟ مخيم شاتيلا زحف إلى «الحمرا» لكنه سيعود . قالوا : سنعود . إن بقينا هنا فسوف نمنع من العودة . يجب أن نبني بيوتنا المهدمة . تعرف؟ أنا هنا منذ ٤٨ ، أعرف كل بيت في المخيم . كل أسرة . من أين جاؤوا من فلسطين . قراهم . مدنهم . أعرف متى بني كل بيت في المخيم . متى ولد الأولاد . متى تزوجوا . أنا هنا منذ ٤٨ ، لم أعرف غير المخيم وأهله . إلى أين أذهب؟ لا . لا تذهب في هذا الزقاق . إنه مسدود . لقد انهار بيت وأغلق الزقاق . اذهب من هناك . مع السلامة .

■

كانت دبابات سورية ثلاث في مدخل فردان إلى جانب الطريق ومدافعها مصوبة نحو البحر . اجتزناها بالسيارة الصغيرة العتيقة ، ودخلنا كورنيش المزرعة لننحدر إلى الرملة البيضاء . المدفع الذي كنا نعهده يواجه البحر رأيناه أنقاضاً بعد أن قصفه الطيران الاسرائيلي . في منحدر الرملة البيضاء ، وعند المطعم الصيني ، قبل عمارة الشاطىء الذهبي ، أوقفنا جندي سوري : إلى أين تذهبان في مثل هذا اليوم؟ أخبرناه أننا نقصد شقة في الطابق السابع لنأخذ أغراضاً لنا هناك . سمح لنا الجندي بمتابعة السير . أوقفنا السيارة عند باب العمارة . خرج جنود سوريون : ماذا تفعلان هنا؟ الحالة خطرة ،

والقصف من البحر مستمر. أي طابق؟ الطابق السابع؟ هذا جنون. ألا تسمعان القصف؟ في تلك اللحظة بالضبط هزّ انفجار هائل أركان العمارة. احتمينا بالمدخل، تحت السلّم. هدأت الحالة قليلاً. كان عدد من الجنود السوريين يرتاحون على الأرض. أحدهم يدندن على العود أغنية شعبية بينما ينصت الآخرون صامتين مجهدين. ما العمل إذن؟ قالت فاطمة: يجب أن أصعد إلى الشقة لأجلب أغراضي، فقد لا أرى شقتي مرة أخرى. حين بلغنا شقة الطابق السابع (المصعد معطل دائماً) توالت انفجارات القذائف متسارعة الوتيرة. اختطفت فاطمة غرضاً من هنا، وآخر من هناك.. أثواباً وكتابين. كان في الغرفة قنينة نبيذ. تركنا القنينة تتعتق وهبطنا مسرعين. جنود آخرون كانوا يتركون غرفهم ويهبطون إلى أسفل العمارة. ودعنا الجنود ومغنيهم وعدنا مسرعين إلى فردان. كانت لحية حيدر حيدر تزداد كثافة وشيباً، بينما يزداد هو نحولاً وقلقاً. رأيت سعدالله ونوس قرب صحيفة «السفير». قال انه سيغادر اليوم. سنغادر كلنا. «المودكا» ما تزال مفتوحة، تقدم خدماتها إلى زبائن متوحشين مقايسة بزبائنها القدامى. أيوب ينثر حكمته العجيبة. والسماء التي تصفو باستمرار، تقدم، بامتياز، مشهد الطائرات الاسرائيلية وهي تحلق منخفضة. وأتذكر ذلك الفتى اللبناني، رامي الأر. بي. جي، الذي أراد أن يطلع من موقعه في القبو، إلى سطح العمارة، كي يسقط طائرة بسلاحه المتطور.. أمسك به مسؤول الموقع: أيها الأخرق، أتريد أن يدفنونا تحت أنقاض العمارة؟

الاذاعة التي ظلت تردد: وحق الله ما نرحل، هذه الاذاعة صمتت. و «الحرية» أصدرت عددها الأخير.

و «شمس المتوسط» تنتظر.

خمسة مدافع

● قرب جامع جمال عبدالناصر بكورنيش المزرعة، جاء «المرابطون» بديناصورهم، إنه مدفعٌ مهول الحجم، ذو ماسورة طويلة، جد طويلة، بحيث بدا لي أن أحدهم أمسك الماسورة، من جهة الفوهة، وأخذ يمطها، بمرح بالغ، حتى بلغت هذا الطول. والعجيب أن هذا الديناصور كان مموهاً للصحراء.. كيف جاء الديناصور من الصحراء؟ وماذا يفعل هنا في هذا التقاطع من كورنيش المزرعة، فوهته مصوبة عالياً، كأنها تتطلع إلى الطائرات. دبابة تتعهد بحراسته.. ولكن ممّ؟ ممن؟ أمن أطفالٍ يفكرون بسحبه وامتطاء ماسورته؟ ثم لماذا خرج الديناصور من مكمنه التاريخي وجثم هنا؟ أتراه سيتمطى يوماً، ويمد أرجله، ويخرج لسانه؟ والماسورة الطويلة التي خيل إلي أنها محشوة بالأعشاب وأعشاش الطير، هذه الماسورة، أقادرة فعلاً على إطلاق قذيفة؟ ولو افترضنا أن قذيفة انطلقت منها، فهل ستتناثر الأعشاب وتتطاير ذوات الأجنحة مع انطلاقتها؟ الحق ان مشهد الديناصور كان أمراً عجيب الاثارة. الأطفال يتفرجون، والذين يقطعون الشارع قربه يتوقفون قليلاً ليتأملوا في هذا الكائن المنتصب أمامهم في فجاءة الحلم، حتى سائقو سيارات الخدمة اقتطعوا من حركة المكوك ما يتمهلون به عند الديناصور. شباب «المرابطون» وحدهم يشعرون، متباهين، بقوة مخلوقهم الغريب، حتى ان طاقم الدبابة المكلفة بحراسته، هذا الطاقم جلس على سطح الدبابة، بمنتهى القيافة، وهو يحدق باندهاش

دائم في ديناصور كورنيش المزرعة. لماذا جزمت، في سري، بأن هذا المدفع لن يطلق قذيفة؟ في ضحى مبكر، وبينما أنا في طريقي إلى «الحرية»، فوجئت باختفاء الديناصور.. أين يمكن اختفاؤه؟ أكيدٌ أنه عاد إلى الصحراء، أو إلى سهوب الجليد.. لقد دخل في الأسطورة بدون أن يطلق قذيفة واحدة!

■

المدفع المحترف:

المدفع الذي كان عند مفرق الكولا ـ الرملة البيضاء، لم يكن جزءاً من بطارية ساحلية، انه مدفعٌ وحيد. وجد نفسه، فجأة، بين أعشاب ذاوية وتراب ساتر ارتفع على عجل. هذا المدفع يواجه البحر. لا أدري كيف علاه الصدأ. انه ليس صدأ مباغتاً، بالتأكيد. فالمدفع يبدو محترفاً، والمقاتل الملتصق به تشي ملامحه وملابسه بأنه قطع طريقاً طويلة حافلة بالانفجارات والحفر حتى بلغ هذا الموضع من الشاطىء اللبناني، ولأمر ما تصورته وقد قطع الطريق بأكمله من صور إلى بيروت.

كل صباح كنت أرى المدفع وصاحبه، حتى لقد غدا الاثنان أليفين بالنسبة لي، ومع الأيام غدوا في منتهى الألفة، بحيث كانت نظرتي إليهما تحية صباح مفعمة، مكتفية برد تحية مفترض. حتى حين أجد نفسي في مكان بعيد عن مفرق الكولا ـ الرملة البيضاء، واستيقظ في الصباح المبكر، أشعر أن التحية الأليفة بيني وبين المدفع وصاحبه ما تزال أليفة. هذا المدفع يتولى، مع مدافع أخرى، متناثرة وهي تواجه البحر، مهمة إبعاد الزوارق الاسرائيلية عن الشاطىء، كي لا تفعل قوتها النارية كل فعلها بهذه المدينة المحاصرة من الأرض والبحر والجو. حين اشتدت غارات الطيران الاسرائيلي حتى غدت على مدار الساعة لاحظت أن المدفع يتحرك.. كل صباح كان موضعه مختلفاً عن موضعه السابق، أما صاحبه فما يزال هو هو، ملتصقاً بمدفعٍ محترفٍ علاه الصدأ، وعركته الأيام. وفكرت: من حق المدفع أن يتحرك، فالاسرائيليون شرعوا يمشطون المدينة بحثاً عن المدافع. كانت طائراتهم

وهي تمرح في سماء صافية تطلق صواريخها، في شبه طلعات تدريبية، على كل مدفع، أو موضع مدفع، في أحد الأيام صعدت إلى سطح فندق «الكافالييه» أراقب الطائرات الاسرائيلية وهي تطلق صواريخها. كانت الصواريخ باتجاه الساحل.

عصر اليوم نفسه، تسللت إلى مفرق الكولا - الرملة البيضاء. شعرت بواجب التحية الأليفة. وهناك حيث كان يقوم المدفع، رأيت أنقاض مدفع.. كتلاً عجيبة الأشكال من الحديد المتلاشي. هذه المرة سيكون الصدأ أبدياً. سيكون الصمت أبدياً.. والمقاتل الذي لم أبادله إلا تحية مفترضة... أين هو الآن؟

■

الدوشكا والزهرة:

بائعة الزهور في «الطريق الجديدة»، ليست تماماً بائعة زهور. مرة فتحت لها «مطعماً» في مدخل مبنى بالفاكهاني، مقابل وكالة «وفا» تقريباً، ومرة أرادت أن تفتح «بوتيك» ومرة.. إلى آخر ما يمكن أن تتفتق عنه رغبة عجيبة في تغيير واجهة حياة أو طعم حياة. لكن محل الزهور باقٍ، والباقات والأكاليل باقية هي الأخرى، ما دام الناس هنا يطالبون بالزهور، الأحياء والشهداء، جنباً إلى جنب. كان محل الزهور يظل مفتوحاً، طوال الأسبوع، وصباح مساء. بعد الغارة الاسرائيلية الأولى على المدينة الرياضية، في السادس من حزيران (يونيو) ١٩٨٢، أغلقت بائعة الزهور محلها. أتراها ستفتحه ثانيةً؟

في أحد الأيام، وكان الوقت ضحى، اخترقنا الضاحية الجنوبية، لنبلغ «الغبيري». صيف هندي وسماء رائقة الزرقة. الطيران الاسرائيلي يعربد طليقاً، حول مستديرة «الغبيري» كانت المضادات تهتز وتهز العصب، بينما طائرات العدو تخترق حاجز الصوت منطلقة إلى أهدافها. نصحنا الشباب بالعودة من حيث أتينا.. الحالة ما تعجب.. كانت المضادات تطلق قذائفها بدون انقطاع، ومن بقي من الناس هرع إلى الملجأ.. ونحن لا نعرف ما

نفعل . سائق السيارة يتعجلنا وهو يرتجف (غضباً أم خوفاً؟) . في الساحة انتبه إلى إطلاق قريب، قريب جداً. اللعنة! نحن اذن في وسط النيران؟ وتحين مني التفاتة (مذعورة؟) إلى مصدر الاطلاق . . يا أم الله المقدسة! هناك، وسط الساحة، وخلف «دوشكا» منصوب على سيارة «لاند» كانت بائعة الزهور تختض، بينما الدوشكا ينطلق صخاباً نحو سماء ذات طائرات اسرائيلية معربدة. هدأ الاطلاق بعد حين. قيل لشباب المضادات أن يبتعدوا عن الساحة . ابتعدت «اللاند» بطيئة، وهي تحمل الدوشكا الصامت، بينما قفزت بائعة الزهور من اللاند، بكامل زيها العسكري الملتف على قامة أقرب إلى الامتلاء .

لم أشأ أن أحدثها طويلاً . قلت لها: أين زهورك؟ صافحتني ضاحكة، ثم مضت واثقة الخطى نحو الملجأ. مستديرة «الغبيري» تخلو من السابلة، والسائق يتعجلنا لنعود. و «الدوشكا» اختفى عن النظر ليدخل زوادة النفس .

■

قذيفة العدو:

مدافع العدو ترسل قذائفها إلى المدينة المحاصرة، بتعيين شامل، بـ «عشوائية» مقصودة تماماً، بحيث تشعر، وأنت في أي مكان من المدينة، أن قذيفة ما قد تنفجر، في أية لحظة. بين قدميك . . هذا إذا كنت ماشياً في شارع، أو لائذاً لصق جدار. أما إذا كنت داخل مبنى، فالأمر أشد هولاً حين تكون خارج ملجأ. لكن الحال مختلفة في مكاتب «الحرية» الجديدة، عند طرف «البربور» المتصل بكورنيش المزرعة. أقول: ان الحالة مختلفة. فالمجلة ذات ثلاثة طوابق، اثنان تحت الأرض، وواحد أرضي. المشكلة أن المجلة جاءت إلى هنا، من الفاكهاني، قبل الاجتياح بأشهر تحوّطاً من غارة اسرائيلية مفاجئة، مثل تلك التي نالت عمارة «رحمة» والأعلام عام ١٩٨١، ولهذا كان اختيار هذا المبنى ذي المواصفات المستجدة . . لكن الذي حدث هو أن تحرير المجلة احتل الطابق الأرضي، بينما احتل الأرشيف والمكتبة وقاعة اللقاءات الطابقين الواقعين تحت الأرض. هذا الأمر كان

اعتيادياً، أو مقبولاً، حين الصحافة صحافة، والنهار نهار، والليل ليل. أما حين بدأ قصف العدو يقترب من وسط المدينة فقد بدأ السؤال الكبير: كيف يكتب محررو المجلة؟ أي: أين يكتبون؟ أينزلون تحت الأرض أم يحتفظون بمكاتبهم المشمسة المطلة على ذلك الدرب الواصل بين البربور وكورنيش المزرعة؟ الرفيق «د» لم يكن هذا السؤال ليعنيه كثيراً، إذ ظل على عهده القديم، يدخل مكتبه في الطابق الأرضي، الساعة الحادية عشرة، تماماً، كل يوم.. ويمارس عمله، بهدوء (استفزازي؟)، كأن شيئاً لم يكن. إلا أن السؤال باق: لو هبطت قذيفة مدفع اسرائيلي على المبنى، فأي طابق سيتضرر؟ السؤال بسيط، والجواب بسيط. إذن، انهبط تحت الأرض؟

في أحد الأيام هبطت قذيفة المدفع التي كنا نتوقعها.. لكن، أتعرفون أين هبطت؟ لقد اختارت ركناً من المبنى، ركناً في أسفل الجدار، وفتحت ثغرة واسعة، بعد أن انفجرت في الشارع.. وكانت الثغرة من الاتساع بحيث تركت الملجأ الأول مكشوفاً!

طابق التحرير ما زال مشمساً، يطل على الدرب الموصل بين البربور وكورنيش المزرعة.. طابق التحرير لم يتهشم فيه زجاج نافذة واحدة!

أي مدفع هذا؟

في الملجأ الثاني، تحت الأرض، كان أطفال ونسوة. في الملجأ الأول تحت الأرض، كان الأرشيف والتنفيذ.

وفي الطابق الأرضي كان تحرير المجلة.

■

مدفع البربير:

منتظرو الرحيل يودعون الراحلين، هكذا جرت الأمور منذ أواسط آب (أغسطس). وسواء كان انطلاق الشاحنات من الملعب البلدي أو ساحة أبو شهلا فإن الراحلين والمودعين يختلطون ببعضهم فلا تميز هؤلاء من هؤلاء إلا حين تمتلىء شاحنة وتنطلق إلى المرفأ. وفي المرفأ تبدأ مباريات الوداع،

رصاصاً وقذائف، وتهديفاً على علب البيرة الفارغة. شابٌ غير بعيد عنـي، يثبت على سلاحه قذيفة «أنيرغا»: ماذا تفعل؟

انطلقت القذيفة ملعلعة، مثبتة بعد قليل دخاناً أبيض، قزعة غيم ناصع في السماء الزرقاء. التفت ضابط فرنسي قلقاً.

قلت للشاب: الأفضل أن ترفعها قليلاً. أين كنت أيامها؟

رد: كنت في المتحف.. سألته: مع المدفع الـوحيد؟ رد: أي مدفـع وحيد!

في تلك الأيام أراد الاسرائيليون دخول المدينـة من محـور المتحف ـ البربيركي يكملوا طوقهم بعد سيطرتهم على مثلث خلدة. كان القتال ضارباً، بحيث أعلن راديو العدو في إحدى نشرات أخباره أنه حقق تقدماً على محور المتحف ـ البربير قدره مائتا متر. في تلك الأيام أيضاً أعلن الاسرائيليون أنه لم يبق لدى الفلسطينيين سوى مدفع واحد. معركة المتحف تشتـد ضراوة، والمدفع الوحيد هناك يؤدي ما يؤديه. لكنه، على أي حال، مدفع وحيد. ومن أجل ألا يظل مدفعـاً وحيداً، صدر الأمـر إلـى كل وحـدات المـدفعية، في مختلف أنحاء المدينة، بأن توجه نيرانها ضد العدو الذي كان يحاول التقدم نحو البربير. لم يعد المدفع الوحيد وحيداً. ولم يعد الاسرائيليون يتناولـون سيرته في نشرات أخبارهم.

قلت للشاب: أراحلٌ أنت أيضاً؟

أجاب: لا. أنا باق.

سألته: وماذا ستفعل؟ المدافع ذهبت.

أجاب: خيرها بغيرها.

قلت: هل ستأتي المدافع في يوم من الأيام؟

لم يجبني. ثبت قذيفة «انيرغا» أخرى على سلاحه، وأطلقها ملعلعة.. دخاناً أبيض في سماء زرقاء.

أماكن

استعادات في زمن غير مناسب

جاسم الليل

هكذا كانوا يسمونه . «جاسم الليل» . انه شقيق جدي . وما كان الليل للعائلة لقباً . لكن للأمر حديثاً :

لقد كان شاباً نزقاً ، يقضي أكثر لياليه خارج بيت العائلة الكبير، أما في حجرته بالبستان ، أو مع سمار لياليه . وكان يجمع إلى نزقه تعلقاً بوقار الملبس وهيبته وهندامه . أما عباءته فمحكمة النسج ، رقيقة الملمس غالية الثمن دوماً .

ذات ليلة ، كان عائداً من سهرة بـ «جيكور» القريبة إلى «بقيع» العائلة . كان يسير، وهو يلم أطراف عباءته بين الحين والحين ، إلا أنه شعر - بالرغم من ثمله - بأن لملماته كثرت ، وبأنها تهوي منزلقة من كتفيه . . فيشدها أقوى فأقوى ، وهو ماض في مسيرته الليلية .

حتى إذا بلغ قرية «بقيع» ، والنجوم الأخيرة تتغور في الليل الهادىء ودخل بيت العائلة الكبير، هبت النسوة مرحبات ، لكنهن سرعان ما انكفأن ضاحكات ، لا يجدن لما رأين تعبيراً غير ضحكاتهن تلك .

ويستيقظ جدي ، ليرى شقيقه .

في هذه الأثناء كان البيت الكبير يضج ويدور حول «جاسم»، أما هو فلم يدرك معنى الأمر كله إلا حين لملم عباءته، دائراً نصف دورة، وملتفتاً، ليرى معزى صغيرة مشدودة إلى طرف عباءته بحبل متين!

يومها، خلعوا عليه لقبه «جاسم الليل».

حتى إذا كبر أبناؤه، وشبوا، وانتقلوا من القرية إلى المدينة، ظل اللقب يلاحقهم، ولم يروا في اللقب بأساً، فتسموا هم أيضاً بـ «الليل».

وتمضي السنون، تطحن من تطحن، وتعجن وتبرأ.. ونكبر نحن الصغار، وننتقل بدورنا إلى المدينة، وينتقل «جاسم الليل» إلى مملكة النسيان..

صباح أحد الأيام الخريفية، طرق علينا الباب، وحين فتحناه، رأينا أحد أبناء «جاسم الليل»، وهو يدفع عربة ذات عجلتين، من تلك العربات التي تستعمل لبيع الفاكهة والخضار. في العربة شيخ متهدم، لا يكاد يرى أو يسمع.. ولا يستطيع نهوضاً.

- إنه أبي.

ظل يلح علينا منذ أسبوع ليزور أبناء العائلة.

لقد تنقلنا به، من أبي الخصيب، إلى البصرة، إلى «كرمة علي». وها نحن نبلغكم..

بعد شهر أو شهرين.. أتانا نبأ نعيه.

ربما كان حزني عليه، كالآخرين، أو أقل قليلاً..

لكن «جاسم الليل» ظل معقوداً في ذاكرتي بأمر لن أنساه. فلقد صحبته ذات مساء، إلى عرس في «جيكور»، وفي ذلك العرس، رأيت للمرة الأولى، فتى اسمه «بدر شاكر السياب»..

البحث عن خان أيوب

أسميتها «الكومونة»، ثم «خان أيوب» وأخفيتها بين أضلاعي، ربع قرن

أو يكاد. وكنت إذا ما استبد بي القلق واستولى علي الجزع، آمن إليها، وآنس بها، وأجد فيها ملتجأ وملاذاً.

ظلت واحدة من دارين أزورهما كلما حللت بدمشق، عابراً أو زائراً: هي والجامع الأموي.

كان ذلك عام ١٩٥٧.

«خلفت غاشية الخنوع ورائي»، وأتيت دمشق، فاللاذقية.. ومن رصيف الميناء انطلقنا مبحرين، عبر البحر الأبيض، فالأسود، إلى «أوديسا»، ومن هناك مضى بنا قطار الشمال إلى «المدينة البيضاء» ومهرجان الشبيبة العالمي.

وإذ انتهى المهرجان، وأطفئت أضواؤه ومشاعله، عدنا إلى دمشق.. لنكتشف أمراً عجباً. فلقد استطاعت سلطة نوري السعيد أن تحصل على قائمة وفدنا إلى المهرجان، كاملة معززة بالصور.

حين أرسل اثنان من وفدنا إلى الوطن، ألقي عليهما القبض بسهولة تامة. وصدرت احدى صحف بغداد تحمل هذا المانشيت:

«عائدون من موسكو يقعون في الفخ». توقفت عملية العودة، بانتظار سبل أكثر ملاءمة وأقل خطراً.

في تلك الأيام، اتخذنا «الكومونة» سكناً. انها دار دمشقية عتيقة، ساحة واسعة يتوسطها شذروان، وحجرات تحيط بالساحة من جهات ثلاث، وثمت طابق فيه غرفات أيضاً، وعريشة عنب.

انها خلف الجامع الأموي، بـ «حريقة» الميدان، حيث تتشابك الأزقة، وتلتوي، وتضيق وتتسع. الباب خشب. والعتبة رخام. والطريق إليها يضج بالصناع والسابلة.

هنالك سكنا شهوراً، نشترك في المطبخ، والمأكل، وغسل القدور والصحون، وتنظيف الساحة والحجرات والغرف. كانت لنا كل يوم ليرة

واحدة «مصروف جيب» نشرب بها شاياً ونشتري صحيفة، وربما طعمنا «العربي» أيضاً!

أذكر أنه كان لـ «الكومونه» أفراحها كذلك. فمنها انطلقنا يوماً، هازجين هاتفين، لنحفر الخنادق حول دمشق.

وفيها سهرنا ليلة، في حفلة عرس، لعروسين من سكنة «الكومونة».

تلك الليلة، سمح لـ «الشباب» بأن يشربوا قدحاً، قدحاً واحداً لا غير.. وعلى حسابهم

بدأ سكنة الدار الدمشقية يتضاءلون عدداً. بعضهم مضى إلى أماكن بعيدة، مثل «قرقانيا» أو «جسر الشغور» مدرساً، وبعضهم غادر دمشق إلى العمل في بلدان أخرى. والكثرة الكاثرة عادت إلى الوطن، تؤدي واجبها في مجرى النضال العظيم.

أما أنا فقد ذهبت إلى الكويت، لأدرِّس في ثانوية هناك.
لا أعرف كيف صفيت «الكومونة»، وكيف هدأت ضجتها..
أعرف فقط أن الناس الذين كانوا فيها «وبعضهم استشهد» ظلوا يحتفظون لها بمكان عزيز في ذكرياتهم الغزيرة.

في مهرجان الشعر العربي بدمشق، أواخر ١٩٧١، كان عليَّ أن أشارك.
بلغت دمشق، ولا حرف لدي، ولا فكرة عن قصيدة.

قلت: أزور الميدان أولاً.
دخلت الجامع الأموي، وارتحت حيناً، تحت الثريات الخفيضة والسماء المسكونة. ومنه انطلقت باحثاً عن تلك الدار الدمشقية.

تلك الليلة سألني صديق: ألم تكتب شيئاً؟
قلت: بداية لا أعرف كيف تمتد.
تساءلت حين دخلت المدينة.

عن خان أيوب .
ما دلني أحد .
فالتففت ببعضي ، ونمت .
انها المرة الأولى التي سميت فيها تلك الدار الدمشقية العزيزة «خان أيوب» .

الحاج محمد

هذه الليلة ، تكون في القصر . .

لكن قصور البصرة كثيرة . كل بيت واسع مشيد بالطابوق يسمى قصراً حتى لو تداعت جدرانه ، وتآكلتها الرطوبة ، وتخلعت أبوابه ونوافذه .

كان «باشوات التمر» يقيمون مقاصفهم وملاهيهم في قصورهم تلك ، بعيدين عن العيون والمسامع ، باذلين متبذلين ، في الليل الرطب الذي يستضيء بمولد كهرباء صغير ، بينما تغور القرى في عتمة العصور الأولى .

أما نحن ، الأبناء الفقراء ، فما كان لنا من تلك القصور سوى نظرة عجلة وجلة ، نلقيها من مسافة ، ورنين أوتار وقرع طبول يبلغان مسامعنا وارتعاشة تقترب من القلب . . آه لو ندخل القصر!

هذه الليلة ، نكون في القصر . .

كانت السنة الأولى التي ندخل فيها حياة العمل ، بعد الجامعة . وكنا ما نزال متشبثين بتلك الاندفاعة الحرة التي تجعل العالم صغيراً وهيناً ، حتى لكأنه في راحة اليد . .

إذن . . فلنركب الزوارق «العشارى» من هذه المسناة ، ولنعبر (شط العرب) إلى الضفة الأخرى . . إلى قصر «الحاج محمد» . مضيفنا ، مساء الخميس ويوم الجمعة كاملاً .

ها هي القصباء ، وثمت مربط الزوارق أو محطها ، الممتد لساناً خشباً ، من اليابسة إلى الماء ، حتى لكأنه يلعق الماء في مويجات ناعمة . الأشنات تلتف على ركائز المحط ، مخلفة في الهواء الرطب رائحة الأهوار البعيدة والسمك المزدحم ، والقنب .

نربط الزورق، ونهبط خفافاً على اللسان الخشب المؤدي إلى وسط باحة القصر، تلك المطلة على المشهد المائي.

ينبح كلب مشدود بسلسلة إلى جذع نخلة.
يسرع صبي لاستقبالنا، زاجراً الكلب الغاضب.
هكذا دخلنا، وللمرة الأولى، قصراً.
أيها «الحاج محمد»..

أحدثك الآن، بعد سنوات أربع من رحيلك الأخير، الذي اختتمت به مسالكك في النهر والبحر والبر. أحدثك، بل تحدثني أنت.. تلك الكلمات البطيئة التي تتحرك بها شفتاك، وكأنك تسحب سفينة جانحة أنت الذي كنت قائد السفينة، (نوخذة) الخليج وسواحل أفريقية الشرقية.. أي موانىء ونسوة ساحليات كانت تسكنك. مومباسا، زنجبار، عدن، حضرموت.. رائحة البهار، والأزهار الافريقية الواسعة، وأعذاق الموز، والقرود الماكرة، وعرائس البحر..

كانت عرائس البحر، حقيقة.. امرأة ناعمة، اختطفت أحد بحارتك، ومضت به، بعيداً إلى مملكة الماء، حيث كل شيء جميل.. في العواصف المهلكة، حين البحارة يهللون ويولولون ويصلون، كنت وحيداً مع بوصلتك مع «وردة الريح» التي لا أشك في أنها نسخة أخرى من «وردة ريح» ابن ماجد..

كنت تتشبث بها، وحيداً، صامتاً، ثبت الجنان، عارياً تحت السماء إلا من إزار قطن مخطط. بينما تتخطفك البروق، وأنت في عين الأعصار.. الرذاذ المندفع كالشلال يكاد يقذفك من مستقرك الخشبي المستدير.. وظلام الأعصار يغيبك، فلا يبين وجهك الناحل إلا في تقاسيم البروق..

وأمامك البحارة.. مشدودون إلى الألواح، ضارعون، تصرخ بك عيونهم حين تراها لحظة.

و «وردة الريح» تأكل يديك..

وتفجؤك اللحظة الخارقة:
الاسم الأعظم وحده!
أي اسم أعظم انبثق، في هذه الفجاءة، أيها «الحاج محمد»؟

أي أجيال عريقة من راكبي البحر العربي أبلغتك رسالتك، في تلك البغتة؟

حركة واحدة حركت الدفة. السفينة تستقيم. وها هي تجتاز مرتطم الصخور، مقبرة السفن.. وبين الغياب والحضور تلمح لون سمكة.. تقول: نجونا..

أكانت السمكة عروس بحر؟

المرساة

أتذكر أنني قرأت قصة لسومرست موم يتحدث فيها عن ربان من ربابنة تلك السفن العجيبة التي كانت تجوب البحار الشرقية ذات الممرات والمضائق والمخاطر والأنواء المتقلبة بين ماليزيا وأندونيسيا والفلبين وسنغافورة. كان الربان عجوزاً، كليل البصر، لكن لا أمهر منه في قيادة السفينة، والسيطرة على الدفة، والافلات من كوارث الاصطدام... كان أفضل ربان في تلك المنطقة ذات السفن الهرمة العنيدة... وفي أحد الأيام يكتشف مساعده أن الربان أعمى!

وما كنت أظن سومرست موم إلا مبالغاً حتى قرأت ما رواه حسن صالح شهاب في كتابه «أضواء على تاريخ اليمن البحري»، وهو يتحدث عن ربان «اسمه عوض بن أحمد بن عروة» من الشحر بحضرموت، كف بصره، وهو يقود المراكب، فلم يقعده ذلك عن مواصلة إرشاد المراكب بتجاربه وبصيرته التي لم ينل منها ذهاب البصر وكان يعرف البر من مجرد شم طين قاع البحر أمام ذلك البر. ولا يزال المسنون من بحارة حضرموت يروون له حكايات عجيبة في ذلك. أذكر منها أنه في احدى رحلاته إلى الخليج العربي، أراد النوتية أن يمتحنوا مقدرته على معرفة أي بر من شم طين قاع البحر بجواره، فأخذوا طيناً من قاع مرسى قرية «الحامي»، إلى الشرق من الشحر، وعندما اقترب مركبهم من جزيرة عند مدخل الخليج العربي أراد ابن عروة أن يعرف

موقع مركبه والبر المجاور له، فأمرهم أن يرموا «البلد»، وهو مسبار عمق الماء، ليشم الطين الذي يلصق بـ «البلد»، فطلى البحارة، البلد، بالطين الذي جلبوه من «الحامي»، ثم قذفوا به في البحر، وقبل أن يصل إلى قاع البحر رفعوه، وجاؤوا به إلى ابن عروة، فأخذ ابن عروة شيئاً من الطين اللاصق به، وشمه، والبحارة ينظرون إليه في لهفة، فبان على وجه ابن عروة الدهشة والاستغراب، وصاح قائلاً: «كل هذه المدة التي قضيناها في السفر، ومركبنا لا يزال في بحر الحامي!»... فبهت البحارة، وتملكهم العجب، وأخبروه وهم يضحكون بما صنعوه. ولما رموا «البلد» ثانية إلى قاع البحر، بعد أن أزالوا عنه طين بحر الحامي، وجاؤوا به إليه، قال لهم وهو يشم الطين اللاصق به: نحن بالقرب من الجزيرة الفلانية...».

■

لا أريد أن أحمل الحكايتين أكثر مما تتحملان، ولا أريد أن أقحم السياسة إقحاماً، لكني - والحق - أعجب كل العجب لحكام ما يزالون ينظرون، إلا أنهم يقودون مراكب بلدانهم إلى التهلكة... كأنهم سينجون وحدهم من حطام السفينة حين ترتطم بالصخور وتتناثر أشلاء، وكأن «أنور السادات» قد بعد به العهد حتى دخل أسطورة الأمم البائدة...

■

مالنا وهذا كله؟

ثم من يقول ان الناس لم يسأموا حديث السياسة؟

إذن، فلأحك لكم حكاية أخرى:

قبل أيام، وفي ظهيرة قائظة رطبة، ضقت بالبيت والظهيرة ونفسي. وقلت: الخير في مجانبة النعاس، والالتجاء إلى البحر. الطريق إلى «الشاطىء الذهبي» طويلة. لم لا أذهب إلى جزيرة العمال؟ هكذا مضيت إلى الجزيرة، وأمضيت ساعة ونصفاً في سفينة قديمة غارقة، أتمتع بمنظر

الأسماك والقواقع، وبماء البحر وهو يقطر صفاء وملحاً وبرداً. ثم هبطت من السفينة مستخدماً سلم حبال غريباً. قرب السفينة رأيت، فجأة، المرساة.

انها مرساة ضخمة في الواقع، لا تنتسب إلى مراسي قوارب الصيد التي تستريح الآن متشمسة على الرمل الساخن. دنوت من المرساة. نظرت إليها متفحصاً... مرساة ضخمة التصقت بها القواقع المتحجرة حتى غدت إلى الطلاء البارز أقرب، واستقرت متمددة، ثقيلة، نصفها في الرمل، ونصفها الآخر يشرب ماء البحر. قلت: سآخذها. سأصطحبها في هذه الظهيرة إلى بيتي. سأعود بها وهي ما تزال تحمل رائحة القواقع القديمة ونقيع البحر. مددت يدي أحاول سحبها. المرساة ثقيلة. بحثت عن حبل أعقده على حلقتها الكبيرة لأسحبها به... لم أجد حبلا. بين أمرين كنت: أن آخذ المرساة وأغامر بما قد يحدث لعمودي الفقري، أو أن أتركها متمددة ثقيلة بين الرمل والماء. وفي لحظة حماسة متقدة سببها الظهيرة القائظة، والشمس الحادة، بدأت أسحب المرساة حتى أوصلتها إلى السيارة. والآن كيف أرفعها لأضعها في الصندوق الخلفي؟ ترددت قليلاً. لكن الظهيرة قائظة، والشمس متقدة. وإن لم أرفعها هذه اللحظة تركتها إلى الأبد. هيلا... هوب... واستقرت المرساة في صندوق السيارة. تحسست عمودي الفقري. لا بأس. وانطلقت عائداً إلى البيت، كأنني أحمل كنزاً. وعند الممر المؤدي إلى البيت أوقفت السيارة. فتحت الصندوق.. يا للعنة! كيف أنزل هذا الحمل الأسطوري؟ إن سلم عمودي الفقري مرة، فلن يسلم ثانية. أطلقت بوق السيارة مستغيثاً. ومر فتى مصادفة. رآني في حيرتي. نظر إلى داخل الصندوق.. ابتسم ابتسامة ذات معنى... معنى ليس إلى جانب سلامة عقلي بالتأكيد... المهم أنه أنزل المرساة العتيدة، وسحبها إلى باب المنزل...

والآن... من يعلق الجرس؟

من يجرؤ على إدخال هذه «التحفة» الكبرى؟

قلت: ليكن ما يكون. واقتحمت بها الباب!

لم أكن أتصور أن للمرساة هذه رائحة نفاذة إلى هذا الحد. المرساة عند البحر تختلط رائحتها بالبحر ومخلوقاته وأشيائه، أما هنا، في هواء «المنزل» المعقم، فإن رائحة المرساة أكثر من أن تحتمل!

صبراً آل ياسر! اصبروا علي قليلاً، يومين أو ثلاثة، سأدبر الأمر، كي يظل هواء المنزل المعقم معقماً. سحبت المرساة إلى الشرفة، وهي تترك وراءها أثراً من حديد صدىء وقواقع مسحوقة حتى أوصلتها إلى الشرفة. كنت منهكاً. . تمددت، وتركت المرساة في الشرفة وراء باب مغلقة. . .

في الصباح الباكر، كان صباح جمعة، أخذت مطرقة ثقيلة، وشرعت أطرق المرساة. . . في كل طرقة كانت تتساقط أولاً طبقة القواقع، ثم تأتي طبقة الحديد الصديء المهترىء. المهمة شاقة، فالمرساة ضخمة، والطرق ينبغي أن يكون شديداً، والجيران ما يزالون نائمين في صباح حلت به اللعنة.

استمر الطرق يومين على حديد بارد. يا للمرساة العتيقة! . . لقد تضاءل حجمها إلى النصف، وكادت حلقاتها تكون في رقة الأساور. . .

المهم أن العملية نجحت. فالرائحة النفاذة لم تعد تعكر «صفاء» الهواء المنزلي، والقواقع لم تعد تتناثر على أرضية البيت مع فتات الحديد الصدىء.

في اليوم الثالث، حلت المرحلة الجديدة: الطلاء. وأي لون نختار؟ اخترنا الأسود، فمن تراه سمع بمرساة حقيقية ذات أفواف وتزاويق؟ وأين نضعها؟ عند الباب. . . الأقرب إلى الباب. لماذا؟ حتى نستطيع إخراجها إذا شئنا!

لكن المرساة دخلت لتبقى. . .

انها عند الباب، برسوخها وتاريخها، بأسرارها وطرقها البحرية البعيدة. . .

انها عند الباب بعنادها.

■

في احدى الليالي زارني ثلاثة مسرحيين.

جلسنا طويلاً. لم ير أحدهم المرساة، ربما لأنها مركونة في زاوية وراء الباب، بحيث لا يراها إلا من عرفها من قبل. لكن أحدهم خرج وإذا به يعود كمن به مس من الشيطان: كيف تترك هذه المرساة «العظيمة» هنا؟ سألته: أين أضعها إذن؟ أجاب: هنا... في غرفة الاستقبال... في الواجهة... ارفع التلفزيون من هنا، أبعده... وهذه المزهرية العادية... وجهاز الهاتف... ارفع كل شيء (سيدة البيت تستمع كالمصعوقة)... كي نفسح مجالاً للمرساة! اسمع سأهيىء لها ركناً خاصاً. انها بحاجة إلى منظور. وهذه الستارة... اللعنة عليها. يجب أن يكون مكانها شراع أزرق. والستارة الأخرى... شراع أزرق أيضاً. مكان المزهرية سوف آتيك بصخور بحرية كبيرة، مصقولة، جميلة، لتستقر المرساة فوقها.. حرام، يا أخي، حرام!.

لم أكن أراقب المسرحي الآخر. فجأة رأيته يقدم ورقة وضع عليها خطوطاً عجيبة:

اسمعوا، كنت أفكر في ديكور لغرفة الاستقبال يناسب المرساة! (سيدة البيت ما تزال تستمع)... اسمعوا، مرة رأيت عملاً مسرحياً عظيماً في رومانيا، وقد استخدم المخرج مرساة في الديكور... أتعرفون كيف قدم المرساة؟ كانت فكرته شجاعة حقاً... لقد جعلها تتدلى من السقف!

وأسأله: لكنها ثقيلة... كيف نجعل مرساتنا هذه تتدلى من السقف؟

قال بكل الجد: بسيطة... ماذا تفعلون بالمروحة السقفية القبيحة هذه؟ أنزلوا المروحة، وعلقوا المرساة مكانها...

وبعد ساعة من الهرج المسرحي بدا لي العالم كله، على سعته، يضيق بهذه المرساة!

■

في يوم تال زارني صديق شاعر. رأى المرساة في موضعها وراء الباب.

صمت. طال صمته. وأخيراً قال: هذه المرساة. تجعلني أتذكر قصيدتك عن حضرموت!

■

ثمت أناس لا يبقون وراءهم إلا فقاعة الصابون.

وثمت أناس يبقون وراءهم المرساة.

■

وفي عدن يشعر المرء بأهمية المرساة. ويكاد يلمس الأعماق التي يبلغها ثقل المرساة ورسوخها.

الأمواج والأنواء تزيد المرساة قوة ومكانة. والصخور والأعشاب تزيدها متانة. والبحر يمنحها التاريخ والموقع.

والمرساة ليست براقة لأنها ليست فقاعة صابون.

وعدن دكة وفرضة وبحر ومرساة.

وعدن المنارة.

إنطباعات أفريقية
الأسد والشمس والوجوه

إنها أرض اللون الثامن
في قوس قزح: الأسود
إنها الوجه المعتم للقمر
وقد استدار إلى النور.
إنها اللوحة التي حقق فيها الله ضربته العظمى.

تسيجاي جابر ـ مدهن
شاعر أثيوبي

أديس أبابا، هذه العاصمة الامبراطورية أسسها (الامبراطور منيليك الثاني سنة ١٨٨٩)، لم تعد تسطر جدول أمجادها في سجل امبراطوري، بالرغم من كل التماثيل والنصب التي تحكي في الساحات الكبرى مآثر من مضوا. لقد رفض الأسد الأسود تاج الذهب، وها هو ذا يجول في أرجاء أثيوبيا الواسعة (١,٢٢١,٩٠٠ كلم مربع)، حاملاً إلى ملايينها الثلاثين تلك الرسالة الصعبة التي بدأت في الثاني عشر من سبتمبر ١٩٧٤، حين مضى هيلاسلاسي، مغادراً قصره، في سيارة فولكس واجن قديمة، وتاركاً (للمتحف الوطني) عرشه الخشبي الضخم، مختتماً عشرة قرون من الحكم الملكي الاقطاعي، ومخلفاً تركة ثقيلة ما يزال الناس ينوءون بها.

الأسد الأسود يجول في أرجاء أثيوبيا الواسعة، من ميناء مصوع حتى نهر

وابي شبلي، ومن هرر (حيث كان رامبو) إلى بحيرة تانا ومنابع النيل الأزرق، حاملاً رسالته المجيدة إلى أبناء أثيوبيا، أمهريين وتيجريين، كوراجيين وهرريين وبني عامر، عفاريين وصوماليين، هؤلاء الذين يتحدثون بعشرات اللغات، لكنهم يسيرون في طريق واحدة، وعلى هدي «برنامج الثورة الوطنية الديمقراطية» الذي نشر في الحادي والعشرين من نيسان (أبريل) ١٩٧٦، وأطلق عليه «برنامج الحد الأدنى»، والذي جاء فيه أن الثورة تهدف إلى «الازالة النهائية للاقطاع والامبريالية والرأسمالية البيروقراطية من أثيوبيا، وبالجهد الموحد لكل القوى المعادية للاقطاع، والمعادية للامبريالية، تبنى أثيوبيا جديدة، ويوضع أساس متين للانتقال إلى الاشتراكية».

■

لكن الطريق التي على الأسد الأسود أن يقطعها ليست بالطريق السهلة. لقد تركت ثلاثة آلاف سنة من التاريخ، عوائق صعبة أمام التقدم والتحديث. ففي عام ١٩٧٤ مثلاً كانت نسبة الأمية في البلاد تبلغ تسعين بالمائة، وكان ٩٦٪ من سكان الأرياف رعاة وفلاحين لا يملكون أرضاً، وكان حوالي ١٠٪ من سكان البلاد بدواً رحلاً، وكان ٨٥٪ من الأرض الزراعية يعود إلى التاج والكنيسة والاقطاعيين، وكان الرأسمال الأجنبي يتحكم بـ ٧٠٪ من كل الاستثمارات الصناعية، وكانت نسبة الصناعة، في مجمل الناتج المحلي لا تتجاوز ٦٪، وبلغ عدد المرضى بالملاريا والسل وفقر الدم والأمراض الجلدية والجذام وأمراض الجهاز الهضمي ٢٠٠ ألف، وفي البلدات التي يتجاوز عدد سكانها ٢٠ ألفاً كانت ٤٠٪ من المساكن مبنية بالطين بلا أسس ومسقوفة بالصفيح، و ١٧٪ بيوتاً طينية، مسقوفة بالقش.

■

إن أثيوبيا بلاد ذات أنهار عظيمة، ومصادر مائية هائلة، مثل النيل الأزرق ونهر أواش، وهذه الثروة المائية تستطيع أن تحول مئات الآلاف من هكتارات الأرض غير المزروعة إلى ثروة خضراء، لكن الأراضي المنتظمة

الأرواء لم تبلغ مساحتها حتى عام ١٩٧٨ إلا ما بين ١١٠ ـ ١٢٠ ألف هكتار، وهذا يساوي واحداً بالمائة فقط من مجموع الأراضي الزراعية، وربما كان السبب الرئيس وراء الصعوبة في تطوير المشاريع الاروائية قلة الاستثمارات المخصصة (ان تطوير حوض بحيرة تانا وحده مثلاً يكلف حوالي ٣٤٧ مليون بر). . هذه المصادر المائية الهائلة (وهي الثانية في أفريقيا بعد زائير) باستطاعتها (بل باستطاعة النيل الأزرق وحده) أن تجعل كل أثيوبيا مكتفية ذاتياً بالطاقة الكهربائية المولدة من المياه حتى القرن القادم، وقادرة على تصدير الطاقة الكهربائية أيضاً. وتقول إحصائية معينة أن بإمكان المصادر المائية هذه توليد طاقة كهربائية تصل حتى ١٤٣,٥ ألف مليون كيلو واط!

أما الطاقة الكهربائية المولدة حالياً فلا تبلغ نسبتها إلا ١,٤ بالمائة من إمكانات النيل الأزرق وحده (داخل الأراضي الأثيوبية).

لقد دخلت الطاقة الكهربائية للمرة الأولى إلى أثيوبيا عام ١٨٩٧ حين أضيء بالكهرباء قصر الامبراطور منيليك الثاني، وظلت العاصمة الامبراطورية ـ فيما بعد ـ تستهلك حوالي ٧٠ بالمائة من مجموع الطاقة الكهربائية التي تنتجها البلاد، ومن الواضح تماماً أن هذا التعسف في إنتاج الطاقة وتوزيعها يعود إلى اعتبار الحكم الملكي ـ الاقطاعي أن أديس أبابا ليست سوى قصر كبير للامبراطور وأتباعه ومقربيه. . . أما الشعب، فليبق في الظلام!

■

في أغسطس تكون الأمطار في المرتفعات الوسطى (حيث العاصمة) مستمرة تقريباً، صباح مساء، وكل يوم. . .

أحياناً تتراءى شمس قصيرة الأمد، لكنها شديدة السطوع، شمس تذكر الناس بأن هذه البلاد هي «أرض الذين لوحت الشمس وجوههم» وهي التسمية التي أطلقها الأغارقة والرومان القدماء على أثيوبيا. وحين ينقطع

المطر، ولو إلى حين، يجد المرء نفسه في نشوة التجوال تحت سماء ندية، متنشقاً الهواء المتضوع برائحة الصنوبر، والشجر الأفريقي، واليوكالبتوس القادم من استراليا منذ القرن التاسع عشر حين جلب الامبراطور منيليك الثاني هذه الشجرة وازدرعها في العاصمة وحولها كي يهيىء خشب التدفئة الضروري في هذه الأرض العالية.

يتجول المرء في أديس أبابا، منتشياً. الشوارع الفسيحة تغري بالسير، والساحات الواسعة تغري بالتوقف، والتأمل في النصب والتماثيل، هذه التي يأخذ فيها الأسد الأسود نصيب الأسد بالطبع، وتقودك قدماك إلى المتحف الوطني... لكن المطر يهطل، فجأة، غزيرا مدراراً... وتدخل المتحف ذا المبنى الضخم آملاً في أن تقضي وقتاً طويلاً. يصحبك الدليل (وهو متمكن) إلى القاعة الرئيسة في أعلى المبنى. والحق ان القسم الذي يعرض ما قبل التاريخ حتى امبراطورية أكسوم (بين القرن الرابع والقرن السادس الميلاديين) هو أهم قسم في المتحف الذي لم يستكمل ترتيبه الأخير، كما أظن. في هذا القسم نعرف من الهيكل البشري المعروض أن أقدم إنسان على وجه البسيطة عاش هنا، منذ حوالي أربعة ملايين عام!

ونعرف كذلك الأبجدية الأولى القريبة جداً من الخط المسند الذي نراه في أحجار الجنوب العربي!

■

أسد وزردة
في سلة القصب التي جاءت من الغابة
من نبه الغابة
من فتح الوردة؟

●

للصناعة اليدوية في أثيوبيا أهمية فائقة، ليس لأنها تزود السائحين بالطرف التي يبتاعونها ليتذكروا البلاد، ليس لهذا السبب وحده، وإنما لأن

هؤلاء الحرفيين يبلغون مئات الآلاف عداً، ولأن قيمة مجمل منتوجهم تصل حتى ٣٠٠ مليون «بر» سنوياً، وهو مبلغ كبير، مقايسة، علماً بأن ٧٠٪ من الحرفيين اليدويين يشتغلون في صنع الثياب التقليدية (الشاما بخاصة).

لست متأكداً من صحة المعلومة القائلة بأن معظم الصناع اليدويين هم من المسلمين واليهود، وأن هؤلاء الصناع كانوا يعتبرون في الدرجة الحضيض من السلم الاجتماعي.. لكني أعرف تماماً أن المجلس العسكري الإداري المؤقت قد أصدر في يوليو (تموز) ١٩٧٩ قراراً بتشكيل تعاونيات إنتاجية لذوي الحرف اليدوية، كما جرت إعادة تنظيم لمائة وخمسين تعاونية قديمة، وشكلت مائتا تعاونية جديدة، بغية تطوير الحرف اليدوية، وانقاذ الصناع من الوسطاء. جرب الدخول في سوق «ميركاتو»، أو واصل طريقك صاعداً من «متحف البريد» وانعطف قليلاً إلى اليمين عند التقاطع، كي ترى نفسك أمام بهجة لا تصدق، وثراء لا يحد من المصنوعات الشعبية: جلود وعاج وأبنوس وحديد ونحاس وفضة. أقنعة ودروع، رماح محاربين، ومسيح أثيوبي على الجلد. وثمت جلد قرد... وفراء نمر وعصا ساحر!

●

وددت لو أتيحت لي في أديس أبابا فرصة ما للقاء عدد من الأثيوبيين المهتمين بشؤون الثقافة والابداع، لكن فرصة كهذه تبدو ذات صعوبة لا أفهمها، لهذا قررت التفتيش في المكتبات عما يمكن أن يعوض بهذا القدر أو ذاك. وللحق أقول ان مكتبات العاصمة الأثيوبية غنية بالاصدارات الحديدة المتنوعة (حديثي عما هو مطبوع باللغة الانجليزية)، وقد استرعى اهتمامي العدد الكبير من الكتب المكرسة للثقافة والابداع الأفريقيين، خاصة تلك السلسلة التي تصدرها دار هينمان البريطانية مكرسة للكتاب الأفارقة، ومن المؤسف أنني لم أعثر على كتاب لكاتب أثيوبي فيما تعرضه مكتبات أديس أبابا من هذه السلسلة. شاهدت كراساً بالفرنسية عن «أغاني الثورة» لشاعر أثيوبي، فلم يعجبني الكراس، وعثرت مصادفة على قصيدة أثيوبية واحدة ضمن أنتولوجيا ضخمة عن شعر أفريقيا السوداء، وقد أعجبتني القصيدة.

رواية واحدة من أثيوبيا استطعت العثور عليها وهي رواية «تحد» للروائي أبي جوبجنا، وهي من مطبوعات أكسفورد، وقد قرأت الـرواية، وإن يكن حكمي السريع عليها بحاجة إلى إعادة نظر.

على أي حال . . .
ليس من اليسير، ولا من الممكن، أن يدخل المرء دخولاً في ثقافة بلد ما، خلال عشرين يوماً . . .

لكن من الممكن، تماماً، أن يخرج المرء بإنطباع .
وصريحاً أقول : لقد أحببت أثيوبيا . . .
أثيوبيا الأسد والشمس والوجوه .

وريقة خضراء مائلة إلى الحمرة

نتغدى جيداً، غداء ثقيلاً. والأثقل هو الأفضل. ثم نمضي إلى وادي «عقان» حيث الخضرة والماء، وهناك «نقيل» و «نخزن»، و «نفسخ» فيما بعد. أما في المساء فنعود إلى عدن، ليواصل كل منا سبيله الذي يختار. والآن ما رأيكم في غداء «مخبازة» بالشيخ عثمان؟ مخبازة لحم إن أردتم... وثمت بقل وحلبة وبسباس.

لم أتساءل عن «عقان» كثيراً، ما دام وادياً فيه الماء والخضرة، لكنني تساءلت عن المسافة بين عدن ووادي الأحلام فعرفت أن المسافة طويلة، آنذاك قلت في نفسي ان المراد بعيد عادة، ولو كانت إيثاكا قريبة من طروادة لما عرفنا الأوذيسة... ألم يقل أبو تمام:

بصرت بالراحة العظمى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

و «عقان» على أي حال إيثاكا صغيرة. أليس ادلائي إليها شعراء شباباً يرودون أرض العجب؟ بلغنا «لحج» حيث تزودنا بسجائر، ثم غادرناها لندخل أرضاً تأخذ بالارتفاع تدريجاً، ونحس بنفحة برد خفيف. الجبال تنهض أمامنا، زرقاء رمادية، وفي الأفق غيم. أقول لأصحابي: أتؤدي هذه الطريق إلى الحدود؟ يجيبون: نعم. وتتخطف بصري صور سريعة عن حدود اجترت بها. السيارة تنعطف، ونجد أنفسنا أمام نقطة تفتيش عجيبة. وأسأل: لم هذه النقطة؟ والجواب: مراقبة السيارات العائدة من «عقان» والتأكد من

أن راكبيها لا يخبئون باقات القات . إذن ، هي إيثاكا ، لا يعود المرء منها إلا بالحسرة والذكرى . وتنطلق السيارة ، بعد توقف قصير . ويقول ادلائي ، نحن نقترب من «عقان» . واتلفت حولي ، فلا أرى إلا جبالاً تزداد زرقة ورماداً ، وإلا أحجاراً عجيبة مما جرف السيل في العام الماضي . وأفتح عيني إلى أقصاهما ، وأدور بهما ـ كالرادار ـ نحو الجهات ، علني أبصر شجرة . . . لكنني ، والله ، رأيت فيما يرى النائم ، أو من هو كالنائم ، نبتات شائكة متطامنة على جانبي الطريق . وأقول : هكذا الطريق إلى إيثاكا ، يعد ولا يمنح ، فأصبر ، إن الصبر فضيلة ، وكان الله مع الصابرين . السيارة تتوقف قليلاً لنسأل عن الطريق . حقاً ان طريق إيثاكا متاهة يضل فيها السائر ، ويتعثر الساري . والسؤال عن الطريق فضيلة أيضاً . أخيراً ندخل درباً شبه مسوّى ، فيه الحصا والحجر والحصباء . . . وثمت أكواخ ، وشاحنات صغيرة . التراب قذى في العيون . وعلى أرضية الأكواخ نمارق ووسائد هي إلى لون التراب الطائر أقرب . ويقول أصحابي : نشتري هنا القات ، ثم نذهب إلى الوادي . وأطمئن قليلاً . . . فالوادي ما يزال بعيداً . وإيثاكا ما تزال أغنية الروح . يقلب خبير من أصحابي باقات القات ، وينتقي منها ما يكفينا ويزيد . ويقول قائل : لقد أطللت على الوادي . تعالوا أنظروا لننزل إليه . وأنظر مع الناظرين ، وإذا بي أمام مسيل أثري ، ليست فيه قطرة ماء واحدة . انه فصل الجفاف . والوادي لا يتدفق بالماء إلا زمناً يسيراً ، يكون فيه الماء هادراً مزمجراً يجرف أمامه كل شيء . وأكتم غصة كادت تأخذ مداها . وأتذكر الحطيئة وهو يستعطف عمر بن الخطاب : لا ماء ولا شجر . قال أحد الادلاء : نجلس تحت شجرة اذن . وتنعطف السيارة مقعقعة على الحصا والحجر والحصباء ، ونبلغ شجيرات شائكة لا تكاد تقترب منها حتى تخزك أشواكها . . . وهي بعد هذا كله مغطاة بطبقة من الغبار الدقيق بسبب قربها من طريق السيارات وتعرضها لسافيات الرياح . . . تحت هذه الشجيرات جلسنا ، وقد أحاطت بنا الماعز ، متوثبة ، متحفزة . . تنظر بوحشية إلى الباقات الخضر بين أيدينا ، فتكاد تلتهمها وتلتهمنا معها .

ويبدأ «التخزين» . لكني كنت متعباً من طول الطريق ، مختنقاً بالحسرة

والغبار. وأخذت أعزي نفسي بتمتمة أبيات عن إيثاكا، ولم أمضغ من الباقة إلا القليل القليل.

■

في صنعاء، وبعد غداء دسم لذيذ في «دار الحمد»، قيل لنا اننا ماضون إلى «مقيل» جميل. والقات في صنعاء «واجب» اجتماعي، جزء من طقوس حياة يومية تراكمت عبر ستة قرون منذ أن دخلت هذه النبتة الشيطانية أرض اليمن في القرن الرابع عشر الميلادي.

لقد أتيحت لي في صنعاء فرصة أن أرى الشجرة ومزارعها، وتملَّيت طويلاً الشجيرة الغبراء، وتلمست أوراقها، وقطفت الوريقات الطرية المحمرة في نهاية الغصن، ومضغتها متمهلاً. كنت أريد اكتشاف الطعم الأول. من الشجرة على اللسان. هكذا فعلت مع شجيرة البن، في «عين علي» على الطريق إلى «حجة». مضغت متلذذاً الثمرة الصغيرة ذات الحمرة الوردية، وطعم السكر الخفيف المعطر. وأقول الحق... لقد كانت نشوتي بالثمرة الصغيرة أكثر من نشوتي بالورقة الصغيرة. شجرة القات، تحاصر صنعاء، وتقترب من مشارفها يوماً بعد يوم. وقد أخبرني عبدالعزيز المقالح أن الأراضي الزراعية الشاسعة في «عمران» قد غدت خلال عامي ٧٤ ـ ١٩٧٥ ذات نبات واحد هو القات. كما أخبرني عن عالم ألماني يزور البلاد كل عام ليتحرى المساحات الجديدة التي احتلتها شجرة القات، مكتسحة زراعة البن بخاصة، نظراً لشروط الانبات المتماثلة. على أي حال... غادرنا «دار الحمد» لندخل المدينة القديمة، لا من «باب اليمن» وإنما من الناحية الأخرى، حيث بقايا «المسيل» والأسوار التي لم يجر ترميمها. بلغنا منزلاً غير بعيد عن «الجامع الكبير»، وارتقينا سلماً ضيقاً حاداً ذا دورة واحدة لنكون في مدخل مربع... خلع كل واحد منا نعليه، وولج «المقيل» المطل على بستان. يبدو أننا جئنا متأخرين قليلاً، إذ كان الجمع ملتئماً، و «الميادع» داخنة، وكان ضوع من بخور وماء ورد يفعم الغرفة المستطيلة. اتخذنا مجلسنا، قرب النافذة... ووضع أمامنا نصيبنا من النبتة الخضراء. لكنه

نصيب ضخم . أغصان تمنح المشهد بأسره بهاء الغابة الصغيرة تدخل بيتك . تآمرت مع نفسي على استقصاء جلسة القات ، وتقصي مدى تأثير النبتة فيَّ ، وفي أعصابي . كنت أريد أن أستنفد الأمر مرة واحدة ، فقررت أن أمضغ ما استطعت . والحق أن الأوراق كانت طرية . بل رائعة الطراوة ، وكان السائل الذي يتحلب منها أميل إلى الحلاوة الخفيفة ، أو هكذا خيل إلي .

وبدأ الحديث ، وتشعب واستطال . أنا لم أتحدث . لكني كنت أتابع الحديث بانتباه واضح . وبالرغم من كثرة الذين أدلوا بدلائهم إلا أنني كنت أستطيع استعادة ما قاله هذا أو ذاك ، ومتابعة الأخذ والرد ، دون أن أجد في هذه المتابعة عناء . وعجبت لأمري ، أنا الذي يعتريني الملل من الحديث إذا طال ، حتى لأحس أحياناً برغبة في إغفاءة تنقلني بعيداً ، بل انني لأغفو فعلاً ، فأجد حرجاً ما بعده حرج في تبرير ما فعلت . . هذا ، إذن ، كل ما تمنحه الورقة الخضراء الطرية المائلة إلى الحمرة؟

في أحد الأغصان رأيت أزهاراً . كانت أزهاراً صغيرة بيضاء ، لا تسقط بسهولة عن الغصن . لم تكن ذات رائحة . جمعت عدداً منها وأخذت أمضغها . المذاق جيد . سألت : ألا تستعمل هذه الأزهار؟ قيل لي ان الناس يتهيبونها ، لأنها أقوى مفعولاً من الأوراق بست مرات أو نحوها . لكن بعض الناس كان يستخدمها ، إذ يغليها ويشرب ماءها كالشاي إذا أراد أن يظل يقظاً ثلاثة أيام متتالية مثلاً !

أمر عجب . . .

مع آذان المغرب ، انتهى المقيل ، وانفض السامر . وخرجنا من الغرفة المختنقة بالدخان والأنفاس والبخور ، لنتنسم ليل صنعاء البارد ، ونحدق مذهولين في أضواء البيوت الخافتة تأتينا عبر زخارف النوافذ والزجاج الملون . تلك الليلة لم تنطبق أجفاني دقيقة واحدة !

■

في الفترة ما بين ١٨ - ١٩/ ٣/ ١٩٧٩ نظم مركز الدراسات والبحوث

اليمني ندوة خاصة بالقات حضرها عدد من الباحثين والاختصاصيين الاجتماعيين والأطباء، باعتباره ظاهرة اجتماعية وعامل استنزاف ومخدراً، خاصة بعد أن اعتبرته الأمم المتحدة (منظمة الصحة العالمية) وجامعة الدول العربية من المواد المحرمة دولياً.

■

يقول د. عودة أحد المشاركين في الندوة:

«يكون القات جزءاً من التركيب الاجتماعي في مرحلة تاريخية معينة، وفي ظل علاقات داخلية وخارجية محدودة. ولنتصور أن هناك تفكيراً جدياً في بناء الاقتصاد الوطني، وهو أمر لا يمكن تصوره بدون الاستقلال الاقتصادي، ولنتصور، من جهة أخرى، أن الريف اليمني يزرع القات عموماً، فوضع كهذا يؤدي إلى استنزاف موارد المدينة لصالح الريف الذي يفترض أن يكون هو الممول للمدينة، كما يعمق الاعتماد على استيراد سلع كثيرة من الخارج، من ضمنها المواد الغذائية، أي أن الاقتصاد سيعتمد على الخارج إنطلاقاً من سياسة التداول الحر. لكن لو افترضنا وجود خطة اقتصادية فلا بد من توفر الحد الأدنى من النمو الاقتصادي وضمان الحاجات الأساسية، وهذا كله على ارتباط بالعلاقات الدولية، ولكن كثيراً ما تتغير العلاقات الدولية، فقد تنقطع المواصلات مثلاً، بفعل حرب كونية، ويصبح، بالتالي، استيراد المواد الغذائية متعذراً، وفي حالة كهذه يصبح وجود القات غير مجد. ومن جهة أخرى يقودنا هذا إلى الاستنتاج التالي: وهو، لا ازدهار حقيقي ما لم تهدف الزراعة إلى إنتاج المواد الأساسية وتحقيق سياسة الاعتماد على النفس.

وإذا كان القات سيقوم بوظيفة الاتصال الاقتصادي والاجتماعي، فهذا جانب سلبي للغاية، إذ لا بد أن تكون وسائل الاتصال الاجتماعي أكثر عقلانية، وإلا بررنا كل الشرور الاجتماعية كالرشوة والجريمة مثلاً. وفي اعتقادي تعتبر المؤسسات الأماكن الأكثر ضماناً لحل الكثير من المشاكل التي تحل أثناء مجالس القات».

■

الأطباء المختصون تناولوا القات من زاوية اختصاصهم. وقد ذكر د. الشرعي أنه «يجب التأكيد، من ناحية أخرى، على محدودية الشهية عند (المخزنين)، فهم لا يأكلون كثيراً إلا من يستخدم منهم الكحول. ومرض الهزال وفقر الدم (الانيميا) ظاهرة عند المواطنين الذين يقطنون مناطق إنتاج وتعاطي القات. والنشاط الناتج عن القات ما هو إلا نشاط إنفعالي تظهر انعكاساته على متعاطيه في الصباح. فيكون في حالة اعياء وخمول». أما د. عتلة فقد أجرى بحثاً لمعرفة مدى تأثير القات على البروتينات والمواد الدهنية والمعادن في الجسم. يقول «فكرة البحث تقوم على أساس تقسيم متعاطي القات إلى ثلاث مجموعات وفقاً لمقاييس الكم النقدي. الأولى ويدخل فيها كل من يتعاطى القات في حدود عشرة ريالات (يومياً). والثانية يجمع في إطارها كل من ينفق في شراء القات عشرين ريالاً. والثالثة تتكون من أولئك الذين ينفقون ثلاثين ريالاً فأكثر. وإلى جانب المجموعات الثلاث اختيرت مجموعه رابعة ممن لا يتعاطون القات، وذلك بهدف البحث والمقارنة، وقد اتضح أن جميع مكونات الجسم لا تتأثر عند متعاطى المجموعة الأولى والثانية والعكس عند أفراد المجموعة الثالثة الذين يتأثرون كثيراً بسبب الفعل الحاد الناجم عن نسبة الدهون في الدم وثقل نسبة البروتينات، مما يؤدي إلى زيادة نسبة تكسيرها، وبالتالي إلى بروز ظاهرة التهديم في الجسم، مما يؤثر سلبياً على بنية الجسم وتجديده».

■

بين عقان وصنعاء طريق وشجرة.
والناس في أمر الشجيرة مختلفون.
لكن العلم قال ويقول، وسيقول أكثر.

الإقامة في الأرض

هذا الصباح، السابع من مارس، استيقظت مبكراً كما اعتدت، خرجت إلى الشرفة أتنشق نسيم الساعات الأولى، وأتملى أوراق الشجر القريب وهي ما تزال تحمل شيئاً من ندى الليل.

البحر صامت. لا أدري لأي سبب. والغراب الذي كان يوقظني في الرابعة والنصف لم يأت شجرته الأليفة، ولا أدري لأي سبب. اليوم تبدو الأشجار ثابتة، كأنها تماثيل أشجار، أشجار من الصخر الصبيغ بالأخضر. حركة الكون (من زاويتي الضيقة هذه) هامدة، مع أن الساعة تقترب من السادسة. حتى الغربان صامتة... وإن كان تنعابها يأتي واهناً من بعيد. ها هي ذي اللمسات الأولى لمدينة تستيقظ بعد الليل الرطب: هدير محرك سيارة... دراجة نارية... ونافذة تفتح في شقة مجاورة. بعد قليل تأتي سيارة الخبز. ثمت أطفال ينتظرون، وآباء يترقبون الأطفال عائدين بخبز الصباح. عند الشاطىء تقعي الكلاب، وتتآلف الغربان والنوارس، وتجلس القطة عند رأس كلب نعسان. السرطانات الصغيرة تندفع خفيفة في الرمل الممهد بماء المد، ثم تغور في بيوت عجيبة لا أول لها ولا آخر. سوف يعود الصيادون الآن، منهكين راضين بعد رحلة الأمل، يدفعون قواربهم لتستقر على الرمل، فتقترب الكلاب والقطط والغربان والنوارس، ويأتي الأصدقاء وعشاق البحر المبكرون، والصياد هادىء، مزاجه بين الملل والتكبر... شباكه التي تعلقت بها أعشاب البحر

و «أبو مقص» وأطراف المرجان، تنضح برائحة قوية نفاذة. انه يلقي إلى الكلاب والقطط أسماكاً لا يأكلها أحد. وسوف تأتي الغربان والنوارس لتأكل ما خلفته الكلاب والقطط... وبعدها، بعد أن يمضي الجميع، يأتي الشاعر ليجمع قواقع وأصدافاً وينشر منديله ليحمل الصياد والزورق والشباك والكلاب والقطط والنوارس، ليحمل الشاطىء، والبحر كله، ويمضي...

■

الساعة السادسة. وتنقل مؤشر المذياع الصغير إلى الـ «بي. بي. سي». إذن بقي هلموت كول مستشاراً في ألمانيا الغربية! يا للعنة! كيف حصل حزبه وحلفاؤه على تسعة وأربعين بالمائة من أصوات الناخبين؟ والاشتراكيون الديمقراطيون؟ يقول المذياع انهم حصلوا على ثمانية وثلاثين بالمائة... كنت أتأمل في نسبة أعلى لهم، وفي نسبة لأنصار البيئة «الخضر» تتجاوز الخمسة بالمائة التي نالوها، لو حدث هذا لتغيَّر وجه أوروبا الغربية... لكن الأمور أشد تعقيداً من الأماني، وللسياسة مداخلها ومخارجها التي لا تستطيع لها فهماً.

المذياع ينقل إليك أيضاً جانباً من الانتخابات المحلية في فرنسا، وتجد أن اليمين يزيد من ضغطه، ويرتفع صوت جاك شيراك ثانية. بعد أن صمت طويلاً.

أي صباح هذا!

وبغتة تهتز لنبأ...

فلقد أسفرت الانتخابات الاسترالية عن فوز حزب العمال، واستقال رئيس الوزراء المحافظ مالكولم فريزر.

هكذا، وصل حزب عمالي إلى حكم قارة كاملة!

لكنك تعود ثانية إلى ألمانيا الغربية، وتقلب الأمر على وجوهه... العمى! كيف صوت الألمان إلى جانب هلموت كول، وهو الذي أوصل

بطالتهم إلى مليونين ونصف المليون، وهو الذي تعهد بأن ينصب في حدائقهم ومزارعهم وغاباتهم صواريخ بيرشنغ؟ صباح مختلط الوقائع والانطباعات . . . لكنه صباح على أي حال.

■

هذه الاقامة في الأرض . . .

كم تكلف المقيم!

أحياناً يتعين على المرء أن يدفع حتى حياته من أجل أن يظل حلمه بإقامة كريمة على الأرض، نقياً صافياً.

أحياناً يقضي المرء سنين وسنين خلف القضبان من أجل الحفاظ على فكرة تتصل بتنظيف الأرض من أوضارها.

وثمت، في هذا الكوكب، أناس يحملون أسلحتهم، فجر كل يوم، ليقاتلوا بغية إقامة شريفة ونظيفة في الأرض.

الأرض ليست فندقاً، أو محطة مسافرين، وأتذكر قصيدة لناظم حكمت جاء فيها:

لا تعش دنياك مستأجراً
كمن جاءها ليصطاف.
عش دنياك كأنها بيت أبيك.

لكن «بيت الأب» قد يتعرض للاقتحام، وربما أخذه آخذ غلاباً أو اغتصاباً، آنذاك لا بد لك من وقفه المناضل أو المقاتل.

في احدى المحاكمات الأخيرة التي جرت بجنوب أفريقيا، كان سيمون موجويران ذو الأعوام الثلاثة والعشرين متهماً بقتل شرطي من شرطة النظام العنصري. قال سيمون موجويران في المحاكمة: «كان أمراً سخيفاً أن أتناول أوراقاً، وأخط عليها شعارات، لأن الشخص يمكن أن يُقتل (بضم الياء) رمياً

بالرصاص، لهذا السبب. لذا قررت الحصول على بندقية لأ قاتل هؤلاء». في السلفادور ونحن نستبعد دائماً أرض العرب نشهد، ببسالة خارقة، الأيام المجيدة لثورة تنتصر... الأيام المجيدة لشعب عرف كيف يجعل الاقامة في الأرض قضية عظمى.

■

ان مصائر الرجال الذين يناضلون في سبيل إقامة كريمة جديرة بالتتبع. وقد لا يتلمس المرء مصائرهم، التلمس الحي، حين ينظر إليها مجتمعة. أما إذا تناول «حالة» فالأمر مختلف حينذاك.:

«كان ساتورينو أوكامبو (وهو من مانيلا عاصمة الفلبين)، ابن فلاح فقير يزرع الرز. لكن ساتورينو استطاع أن يشق طريقه في الصحافة، ليكون كاتباً معروفاً في شؤون المال والأعمال. إلا أن الحال اختلفت عام ١٩٧٢، حين فرض الرئيس الفلبيني فرديناند ماركوس الأحكام العرفية، وأغلق صحيفة «مانيلا تايمز»، وسجن معظم محرريها بتهم غامضة عن «التخريب». تمكن ساتورينو أوكامبو من الافلات، وعاش مشرداً مختفياً عن الأنظار أربع سنوات. أخيراً ألقى العسكريون القبض عليه سنة ١٩٧٦، ودمغوه بتهمة «التمرد»، وقالوا عنه أنه قائد شيوعي، واتهموه مع اثنين وتسعين شخصاً بالتآمر على تهريب الأسلحة إلى الثوار الشيوعيين. أما العقوبة القصوى لهذه التهمة فهي ـ الأعدام.

يقول أوكامبو ان رجال الشرطة حاولوا ـ بعد أن ألقوا عليه القبض ـ انتزاع اعتراف منه. وظل لأسبوع كامل، عارياً، معصوب العينين، متعرضاً للضرب الشديد، وقد استعمل رجال الشرطة ولاعات السجائر لإحراق حلمتيه وأعضائه التناسلية، كما ربطوا سلكاً كهربائياً بإبهامه وعذبوه بالصدمات الكهربائية ثم ربطوه ثلاثة أشهر إلى سرير حديدي وهو مقيد بالسلاسل. أما حراسه فقد شدوا حبلاً رفيعاً بقدمه ومرروا الحبل من تحت الباب، وعلقوا بطرفه علب طعام فارغة. هكذا كانوا يعرفون أدق حركة منه، فما أن يتحرك قليلاً، أو يذهب إلى الحمام مثلاً حتى تقرقع علب الصفيح عندهم.

ويقول محامو ساتورينو أوكامبو أنه الوحيد ـ من بين المتهمين جميعاً ـ الذي رفض أن يوقع اعترافاً. ويقول ساتورينو أوكامبو: «لم أوقع على أي شيء، لكني حين رأيت أخيراً، السجناء الآخرين، وعرفت أنهم وقعوا على إفادات، فهمت لماذا وقعوا». بعض هذه الاعترافات تستعمل الآن باعتبارها «دليلاً» ضده.

ان أوكامبو يعيش الآن في وضع السجين المنسي، وهو وضع يعتبر بحد ذاته تعذيباً. لقد استمرت حاله خمس سنين.

يؤخذ أوكامبو، بانتظام، مع المتهمين الآخرين، في حافلة تنقلهم من السجن إلى غرفة التحقيق بنادي ضباط الجيش الفلبيني في العاصمة مانيلا. وهناك يواجهون هيئة محكمة من طراز محكمة كافكا، حيث لا يبدي أحد، أدنى اهتمام بحل القضية. في آخر جلسة من جلسات هذه المحكمة، جاء أوكامبو مرتدياً سروال جينز وقميصاً أزرق، وكان يتحدث بكل كبرياء عن سجنه وتعذيبه اللذين يعتبرهما عملية انضاج وتصليب... «لقد تعلمت أن أكون صبوراً». كما قال انه أمسى أكثر تأكيداً على حقوقه. وقد نظم إضراباً عن الطعام. احتجاجاً على ظروف السجن السيئة، مما دعا الرئيس الفلبيني ماركوس إلى أن يقول عنه: «انه معتقل عنيد شرير». ساتورينو أوكمبو متألم لأنه لا يستطيع أن يرى طفليه وهما يترعرعان.

أمه تزوره في السجن.

أما زوجته ـ وهي صحافية أيضاً ـ فليس بإمكانها ذلك، إذ أنها مطلوبة أيضاً للحكومة...

ساتورينو أوكامبو، سجين محظوظ مقارنة...

أن قضيته معروفة مشهورة. رجال الصحافة يرونه، ورئيس الجمهورية يتحدث عنه، وصورته تنشر.

لكن ما المصائر الشخصية لسجناء الرأي في العالم... وهم يقدرون بمائتي ألف سجين؟

■

في ١٩٦٢ عرفت السجن للمرة الأولى .

أصدرت مع مجموعة من المثقفين نداء لتشكيل لجنة تحضيرية خاصة بأحد مهرجانات الشبيبة العالمية . نشرت صحيفة ما ، النداء .

بعد أيام استدعيت إلى الشرطة . سئلت . ظننت الأمر منتهياً بالسؤال ، لكنهم أغلقوا علي أسبوعاً ، ثم أخذوني مكبلاً إلى بيتي حيث جرى تفتيشه ، وبعدها نقلوني إلى منطقة «السيبة» البعيدة عن مركز البصرة والمواجهة لمدينة عبادان الايرانية ، هنالك وضعوني مع مجموعة مهربين ، واعتبروني موقوفاً خطراً يمنع الاتصال به . حتى زوجتي ما كان بإمكانها زيارتي إلا بعد تقديم طلب إلى مدير أمن البصرة ، والحصول على موافقة هذا المدير . كانت المقابلة تجري بحضور الشرطة ، ووجود شرطي على سطح المبنى ، مستعد برشاشة .

ومنذ ١٩٦٢ عرفت سجوناً كثيرة ، وتعلمت أن الإقامة في الأرض ، الإقامة الحرة ، تكلف كثيراً . . . تكلف المرء حريته !

ألا رعى الله نخلا . . دخلته بالمكلا

بين «الدان» والأغاني المترحلة كان المساء يدخل في الليل، بينما تتضوع الحجرة الوسيعة باللبان، وتختنق ـ أو تكاد ـ بالدخان، حتى ليرى الداخل جلوسها أشباحاً لا يتبين الواحد منهم إلا بعد انعام نظر وتدقيق. كان الليل حضرمياً، في تلك الحجرة العدنية. أغنية وأوتار عود، وعصبة ممن يجيدون إيقاع الكفين مشدداً مشدوداً:

كنا إذا صفقت نستبق الهوى ونشد شد العصبة الفتاك

أما بيت شوقي الذي يتلو، فهو لي، وحدي:

واليوم تبعث في حين تهزني ما يبعث الناقوس في النساك

ومع اللبان والدخان ترحل الحجرة، تدخل في الزمان دخولاً. ثمت أغان، والأغنية العريقة قوة بشر وتاريخ. أمقاربة غنائية إذن، لما كانت حضرموت، أو لمكانة حضرموت؟ وبين محمد عبدالقادر بامطرف وجواد علي ودائرة المعارف البريطانية وخرافات التوراة وأنساب الهمداني تدور الرجال والقبائل والأمكنة، وتدور حضرموت في تيه الآراء، تائهة تياهة. . أليست «بلاد اللبان» تؤنث وتذكر بلسان يوناني فصيح؟ ألم تذكر الأخبار «أن يعرب تولى الملك بعد قحطان، وكان ملكه باليمن، وقد غلب بقايا عاد وزرع أخوته في الأقطار، فأقر أخاه «حضرموت» على الأرضين التي عرفت باسمه فقيل لها

حضرموت ، وعين «عمان» على أرض عمان ، وولي «جرهما» على الحجاز؟» بطليموس وسيف بن ذي يزن وارم وبابل وظفار . . أسماء ورايات ، وسفن وأسواق ، هجرات غامضة وفتوح ، وسحاب ثقافة وعمائر وقلاع .

■

يقول المغني :

ألا رعى الله نخلا

دخلته بالمكلا

والحق أن نخل المكلا بعيد الطريق ، قريب الأعذاق ، غريب اللون والمذاق . وعليك أن تقطع أكثر من ستمائة كيلومتر كي تبلغه ، فإذا بلغته أخذتك الحيرة في أمره ، وتسأل عن زراعته ورعايته ، وأنت ترى النخلة الطويلة ناشبة الجذور والساق بست نخيلات قصار . هذه النخيلات الست تقتلع في العراق ، لتغرس بعيداً عن النخلة الأم ، كي تعيش الأم طويلاً وتعطي كثيراً ، وكي تزداد المساحة المزروعة وتتجدد . والتمر ما يزال بعد ، في حضرموت ، كما كان في الماضي ، غذاء أساساً للناس ، وما تزال له باعته ودكاكينه . . . لكن النخل في الساحل ليس كالنخل في الوادي حيث يلقى الرعاية والعناية والاكرام ، سنة وضرورة ، وحيث أقيم معمل التعليب .

ويبدو لي أن حال النخل في المكلا كحال شاطئها . كتب ألبير كامو مرة عن «وهران» ما معناه أنها المدينة التي أدارت ظهرها للبحر . ورأيت «المكلا» قد أدارت ظهرها للبحر أيضاً . أنت من البحر تتطلع إلى صورة مدينة جميلة . لكنك من المدينة لا ترى البحر ولا المدينة ، فإن حاولت أن ترى البحر وتلامسه كانت محاولتك جهداً جهيداً ومشقة بالغة ، فالشاطىء مفترش بالوسخ والوضر ونفايات الناس والحيوان والروائح التي تزكم الأنوف . . وليس على الشاطىء كله مكان نظيف ترتاح فيه النفس والحواس .

ولولا سقائف خشب ثلاث . إقامتها جهات مختلفة ، على نشز عال ، وبعيداً عن المدينة ، لما توافر لمحبي البحر مرأى البحر .

النخل والبحر والشوارع في المكلا تسعى إلى «ديوان المظالم».

■

أشياء عديدة يمكن أن تأخذ وجهاً آخر، جديداً، بلمسة واحدة، لمسة واحدة حسب. الشارع الرئيس في المكلا أظنه أطول شارع تجاري في الجمهورية، والأكثر حركة ودكاكين ومخازن... ومن هذا الشارع تتفرع دروب وأزقة ومماش تكون عصب منطقة تجارية أخرى فيها «سوق النساء».

هذا الشارع الرئيس، رأيت من يكنس جانبيه، فيرفع ما كنس من الشارع إلى الرصيف، والرصيف تراب... حركة الأقدام وحدها ـ دع عنك الريح ـ كفيلة بإعادة التراب في دقائق إلى الشارع. إن كان تعبيد الرصيف بالأسفلت مكلفاً، أفليس بالإمكان رصفه (أو رصعه) بالحصا.. وما أوفر الحصا في المكلا! ألا يمكن أن يقال لصاحب كل دكان: أرصف بالحصا تلك المساحة الضيقة من الرصيف المتصلة بدكانك واحرص على نظافتها؟

والدروب والأزقة والماشي المتصلة بالشارع الرئيس والمتفرعة منه، يمكن أن تعالج بالطريقة المقترحة ذاتها.

وإلا ظلت «المكلا» بين المدن البحرية، هي التي تتمتع بأعلى نسبة غبار!

إنني أعتقد أن المقارنة ما تزال ممكنة بين مرفأ «بئر علي» المهجور مثلاً، وبين المكلا التي يبنى فيها ميناء خلف الجديد.. من ناحية الغبار والمزابل.

في «بئر علي» وفي الجانب الآخر من الطريق العام، بمواجهة «النقطة» يستقر مدفع ألماني من القرن التاسع عشر، إلى منتصفه، في التراب. فوهة المدفع صوبت نحو البحر، وظلت مصوبة حتى الآن.

آنذاك كان البحر خطراً، بحر الغزاة والليل والاحتراب.

لكن البحر سيكون مفتاح المكلا إلى «التحديث».

فلتكن نافذة نظيفة على البحر!

■

يبـدو أن المدينـة «مـكتفية ذاتياً» بما لديهـا من البـان ومنتجـات البـان. «القطيب» العدني لا تعرفه، وتشرب ما لديها من لبن رائـب هو «الـروب». أترى هذا الماعز الذي يحتل الشوارع والأزقة هو الواهب اللبن كله؟

إن كان الأمر هكذا، فما أجمل أن نقيم في احدى ساحات المدينـة تمثالاً لمعزى، اعتزازاً وإكراماً، وما أجمل أن نمضي أبعدفي اعتزازنا وإكرامنا، فنجمع هذا الماعز المتوثب، التياه، المرح، من شوارع المدينة وأزقتهـا. حفاظـاً على كرامة الحيوان، وعناية بالبيئة، ونضعـه في مأوى، ونمنـع تعرضـه للخطـر في الشوارع.

الناس هنا، يعتنون بتغذية الماعز. رأيت الصغـار في الصبـاح يشتـرون حزمة البرسيم، وفي المسـاء كذلك... لهـذا لا ترى الماعـز في المكلا هزيلاً ضامراً كماعز عدن الذي يمضغ الصحف.

وبالمناسبة... ألم يمنع على الماعز التجول في شوارع عدن؟

ما أن تخرج من «فندق الشعب» حتى تدهمك الحيرة: إلى أين تمضي في المساء؟

المقاهـي مكتظـة، وهـي على اكتظاظهـا المريح بعيدة عن شروط الصحـة والراحة في الغالب.

والمطاعم تعرض أطعمتها ولحومها وتقدمها بطريقة غير صحية أو لائقة.

وتتساءل: ألا توجد قوانين وأنظمة تنبغي مراعاتهـا في خدمـات المقاهـي والمطاعم؟

قلنا: لنذهب إلى «استراحة العمال».

والحق أننـا طلبنـا شاياً، ثم غادرنـا المكان بدون أن نشرب، فالحـوض الواسع يملؤه ماء آسن، هو فردوس للبعوض... والطـاولات متسخـة... وعشب الحديقة بلا تهذيب ولا تشذيب.

ما أحوج المكلا إلى يد!

■

هكذا خرجنا من «المكلا» لا كما دخلنا.
كنا في سحر التاريخ، فوجدنا أنفسنا في مضيق الوقائع.

إذن، إلى «غيل باوزير» نمضي. و «الغيل» هو الماء وما يلتف حول الماء من نبت وشجر. وفي «الغيل» ماء غزير، مثقل بالكلس، يأتيها من منابع قريبة هي في الواقع مسارب طبقة كاملة من المياه الجوفية تحت قشرة رقيقة من الأرض.

وقد احتال أهل الغيل على الطبيعة، وعلى هذه المياه، فزرعوا أرضهم القليلة نبتاً يغل الكثير ويدر الكثير. التبغ والحناء بخاصة. وجعلوا من بلدتهم مثالاً جيداً للتنمية الريفية والاجتماعية. ان «الغيل» هي البلدة الوحيدة التي رأيتها ذات مركز يتوسطها، وتدور حوله، أو تشرف عليه، مؤسسات أساسية... كما أن المجهود الثقافي بارز فيها، مقارنة... فالمكتبتان مملوءتان بالقرّاء والمراجعين، والصحف تصل في اليوم التالي أو في يوم صدورها أحياناً، و «المدرسة الوسطى» تفخر بأنها قائمة هناك منذ ما يقارب الثلاثين عاماً. وثمت دار للسينما، وناد رياضي ذو شأن في الدوري العام.

للتنباك أهمية كبرى في اقتصاديات الغيل. رأيت الرجال الذين يعملون في تجفيفه وخزنه وإعداده للتسويق، ودخلت مكاناً يعمل فيه عدد منهم. كانت الرائحة نفاذة. وذرات التنباك المتطايرة تجعل التنفس مرهقاً. قلت لأحدهم: الأفضل أن تستعمل كمامه بسيطة. إذ أن ذرات التنباك المتطايرة تؤذي الرئتين.

في الظهيرة، تدخل البلدة في نعاس القائلة. وهناك، في السوق، تتضاءل الحركة حتى تتلاشى. سكون موحش، لا أحد يتحرك. لا شيء يتحرك.

فجأة يدخل الديك. يمر في ساحة السوق الخالية، متمهلاً متكبراً زاهي الريش.

مرحبا يا سيدي الديك!

■

الخير أن تبحث عن «المكلا الجديدة» خارج «المكلا».

هناك في «فوه» حيث تشيد المؤسسات الصحية، ومعاهد التعليم العالي والمهني، وحيث البوادر الأولى لمشروع سكني. يقال ان مستقبل المكلا هو في تطوير هذه المنطقة.

والحق أن تطوير المكلا الأصلية، عملية صعبة معقدة. وأعمال التهديم أو الانشاء تحتاج إلى دراسة تفصيلية بحيث يمكن تجنب الهدر والتشويه. ولا ينبغي أن تتم هذه الأعمال إلا بعد توافر تصميم شامل للمدينة تعده هيئة متخصصة ذات خبرة في تخطيط المدن.

لكن الأمر الأشد إلحاحاً، في الوقت الراهن، كما أرى، هو التوصل إلى ملموسية في الخدمات المتعلقة بالبيئة. وإقناع الناس بضرورة مراعاة القواعد الصحية والجمالية، ووضع ضوابط دقيقة تتعلق بالمخالفات المتصلة بهذه الأمور. والحفاظ على موروث التاريخ وصيانته وترميمه.

■

أغادر «المكلا» واحتفظ بصورتين:
ميناء «خلف» الجديد، وهو يكتسب ملامحه تدريجاً.
والفتيات يذهبن إلى مدارسهن مجلببات بسواد «الشرشف».

ألا رعى الله نخلا
دخلته بالمكلا!

قريباً من الأرض البعيدة

في آذار مارس تبدأ درجات الحرارة تدرجهـا إلـى أعلـى . هذه السنـة امتلأت صهاريج عدن التاريخية حتى فاضت في مسيل دافق نحو البحر. ومن أعالي الصخور البركانية التي تحيط بحـي «كريتـر» هبـط فجـأة شلال هائـل عجيب . المعبد الهندوسي اللائذ بمغارة ضخمة في السفح لم يجرفه الشلال . كان الشلال يصب أمام المعبد مباشرة، وتماثيل المعبد حائرة في هذا الأمـر الذي لم تشهد له مثيلاً . قال بعض المسنين : منذ مائة عام هطل مطر غزير، وامتلأت الصهاريج . في «لحج» رأيت أشجار الموز نائمة حتى أعذاقها في الماء . أما في المشارف الرملية فقد تفتحت أزهار ربيعية، كأن في كل قطرة مطر تويجاً . والناس في أيام العطل يقصدون لحجاً وزنجبـار، متـراكضين مغنين، متمتعين بجلسـة العشـب الطـري والأرض التـي سكنهـا المطـر وأسكنها . المياه الجوفية سوف تزداد، ويمكن للآبار التي كادت تطوى أن تستعيد حياتها ولو إلى حين، ولو إلى اليوم الذي ينبع فيه المـاء من محطـة تحلية مياه البحر المنتظرة . جبل شمسان أخضر يكسوه نبات ذو أوراق صغيرة وقابلية عجيبة على الانتشـار . قبـل عامين حين رأيت عدنـا للمـرة الأولـى، وجبالها السود، راودتني فكرة غريبة : ماذا لو صبغت هذه الجبال بالأخضر. وارتدت الفتيات فساتين خضراً ! .

في آذار تبدأ درجات الحرارة تدرجها إلى أعلى، فهـل يذوي النبـات

الأخضر على الجبل فيكون هشيماً تذروه الرياح تحت شمس قاسية وحجر بركاني متقد؟

بعض المهتمين بالتطورات المناخية يقول ان المنطقة تمر بدورة تبدل مناخي، وسوف تعود، تدريجياً، إلى ما كانت عليه قبل ثلاثة آلاف سنة، جنة عدن التي تحدثت عنها الكتب والرحالة والأساطير. ومن يدري، لعل محافظ المدينة استبق الأمور وأعد لها العدة، فزرع ثلاثين ألف فسيل من فسائل جوز الهند داخل عدن، وحولها، وعلى امتداد الطرق المؤدية إليها..

وأي بأس في هذا؟ أليست الجنة الموعودة ذات نخيل وأعناب؟

لكن من أراد دخول الجنة فلا بد من أن يمر عبر برزخ وصراط. والأمطار هذا العام فعلت فعل الصراط، ففي محافظة «أبين» اندفعت السيول هادرة مزمجرة، وإن كانت أخف وطأة وأقل ضرراً من سيول العام الماضي التي جرفت سداً وجسوراً ومزارع ومنازل وماشية عزيزة.. زرت المحافظة، والناس ينتظرون السيل، ويقومون بتقوية الحواجز والقنوات.. ويرهفون السمع لهدير خطر قد ينجم في أية لحظة. الآن يقوم السوفيات ببناء السد الذي جرف. لكن ما يبنونه سيكون عصياً على السيل الدافق، بل سيروضه عبر قنوات وشعاب تشكل الشبكة المائية لـ «دلتا أبين» ذات الزراعة الكثيفة.

■

يقال ان الحديث عن الجو فاتحة الحديث.

وأنا لا أريد أن أعد بشيء كثير، فليس بين يدي إلا القليل.

حين جئت عدنا قلت انني سأقرأ كثيراً، وأعيد بالقراءة المتأنية وأستعيد. خططت لكتابة رواية.. ولمشروع شعري معين.

لكن الأمور ليست تماماً كما يتمنى المرء. إذ جابهتني أولاً مسألة القراءة. فأنا منذ سنين أقرأ باللغة الانجليزية، ولا أتناول الكتاب العربي الحديث إلا لضرورة، أو صداقة صديق.

هنا، لا أجد الكتاب الذي أريده. وجدت في «التواهي» مكتبة تضم كتباً باللغة الانجليزية . . . لكن هذه الكتب صدرت منذ عشرين أو خمسة عشر عاماً، ومعظمها مغامرات وشرطة. مع هذا لا بأس أن أعيد قراءة مارك توين وحتى همنغواي. أحياناً أقضي ساعة كاملة أقلب الكتب المشربة بالتراب، كي أعثر على واحد منها يصلح للقراءة أو إعادة القراءة. . آخر ما عثرت عليه سيرة سطحية لشارلي شابلن!

■

بالرغم من هذا كله، فالحياة ليست كتباً، والمرء ليس دودة كتب.

هكذا أحاول أن أدخل فيَّ اطمئناناً ما.

■

ثم ان لي شرف المشاركة في المسعى العظيم لهذه الجمهورية العربية الفريدة. قد أستطيع أن أفعل شيئاً في الثقافة، والاعلام أيضاً، وربما منحت نفسي حتى حق التحدث في السياسة وتفصيلاتها، كل هذا من أجل أن أنتفع بالوقت، وأنفع في الوقت ذاته. هنا يحس المرء بأن البذرة هي في أرضها، وأن هذه البذرة ستنبت، وأن نبتتها ستستقيم وتسمق، وتثمر وتزهر.

وماذا عن الشعر؟ أهو مؤجل؟

الحق أقول: ان قصيدتي لم تتوطن بعد.

ليس أمراً هيناً أن تكتب خارج الدهشة. في زيارتي الأولى لعدن كتبت داخل الدهشة «يوميات الجنوب، يوميات الجنون». . . أما الآن فأواجه مهمة عسيرة هي التفرس في الواقع، قبل أن تستمد القصيدة مشروعيتها الفنية والأخلاقية. هل الثقة بالنفس، عادة؟ أم تراها وهماً نضفيه على معادلات باردة؟

حكاية لرأس السنة

عشر فتيات خرجن من قريتهن، ليطفن في القرى القريبة، باحثات عن أزواج.

بلغن القرية الأولى، فحياهـن الفتيان قائلين: «سـلام عليكن جميعـاً، وسلام خاص على تلك الفتاة الجميلة التي تمشي وراءكن!».

الفتيات التسع اللواتي كن يمشين في المقدمة، غضبن، وقررن معاقبة تلك الفتاة على جمالها. وهكذا مسخنها سكيناً.

أما الفتاة التي اعتادت أن تكون الأولى في المسير فقد دست السكين الجديدة في زنارها، وبعد هذا سارت الفتيات يتبعنها، الواحدة تلو الأخرى، نحو القرية الثانية. في هذه القرية أيضاً خرج الفتيان يحيونهن قائلين: «سلام عليكن جميعاً، وسلام خاص على تلك السكين الجميلة اللامعة عندكن!». مضت الفتيات قدماً، في الغابة، وهناك حولن السكين «يقطينة» مما يستخدم للحليب أو الماء.

في القرية الثالثة وجدت الفتيات التسع من يتزوجونهن. ومضت تسع أمهات بالعرائس التسع إلى فتيانهن. وكانت ثمت أم عاشرة لم تجد إلا يقطينة، فمضت باليقطينة إلى ابنها كي يشرب منها الماء.

في الصباح التالي، مضى الناس جميعاً إلى الحقول للعمل، إلا بنتاً

صغيرة ظلت في الكوخ . فجأة رأت البنت الصغيرة ، فتاة شابة تخرج من اليقطينة ، وتهبط من الرف الذي اصطفت عليه القدور .

شرعت الفتاة تطحن الذرة ، وهي تغني :
أنا ناروبوكو بنت اليقطين
أطحن ، أطحن ، خير طحين .
أنا ناروبوكو بنت اليقطينة
أطبخ ، أطبخ ، خير عصيدة . .
أنا ناروبوكو . . . امرأة في ثمر الماء .
ضيعني الأعداء . . .

هيأت الفتاة ، العصيدة ، ودعت البنت الصغيرة ، وتغدت الاثنتان كلتاهما .

وفي المساء ، حين عاد الناس من الحقول ، حكت البنت الصغيرة لأمها وأخيها الأكبر حكاية ما رأت : «ان بالبيت فتاة شابة تسكن في اليقطينة ، واسمها نارو بوكو ! » .

ما إن سمع أخوها الخبر العجيب حتى قرر الاختباء للتأكد من الأمر بنفسه .

وفي الصباح التالي تظاهر بأنه ذاهب ليقضي نهاره يعمل في الحقول ، إلا أنه عاد متسللاً ، واختبأ قرب الباب .

ورأى ، وهو بالغ الدهشة فتاة جميلة تخرج من اليقطينة الموضوعة على الرف ، وتقفز من الرف ، وتشرع في كنس أرضية الكوخ . ثم رأى هذه الفتاة الجميلة تتناول جرة ، وتذهب إلى البئر لتستقي ، ورآها تعود إلى الكوخ ، حاملة الجرة على رأسها ، تتهادى في مشيتها ، بكل جمالها الأخاذ .

أوقدت الفتاة النار تحت الماء ، وطحنت الدخن ، وطبخت العصيدة .

ثم جلست هي والبنت الصغيرة تأكلان غداءهما ، وتتحدثان مبتهجتين .

بعد الغداء، حفظت الفتاة بقية الطعام للأم.

وبينما كانت الفتاة توشك أن تقفز داخل اليقطينة، وثب الشاب من مخبئه، وأمسك بها، معانقاً حاولت التملص من ذراعيه، لكنه كان يمسكها شديداً، وهمس لها: «أريدك أن تكوني زوجتي!».

وهكذا احتفظت بهيأتها البشرية.

عاد الناس الآخرون إلى القرية، وبلغهم النبأ. وأخذ الشبان الذين تزوجوا أولئك الفتيات التسع يلومون أمهاتهم: «لم لم تأخذن اليقطينة بدلاً من هؤلاء الزوجات المشاكسات!».

أما الفتيات التسع وقد سمعن الخبر، فقد آعتزمن التخلص من الفتاة الجميلة ثانية.

ذهبن إليها، وأقنعنها بالسير معهن إلى الغابة كي يجمعن الحطب. مضت الفتاة الجميلة معهن، وما زلن يخترقن الغابة حتى بلغن مستنقعاً، وهناك هجمت الفتيات التسع، فجأة، على الفتاة الجميلة، وأمسكن بها، وأغرقنها في الماء وسط البردي الكثيف، وغطينها بالطين وطحالب المستنقع. لم ير فعلتهن أحد من البشر، غير أنّ القبرة الرمادية رأتهن، فطارت حتى وصلت القرية، وحطت على أحد سقوفها، بينما كان الناس كلهم في ساحة القرية. وصدحت القبرة كي يستطيع الناس سماعها:

خذ يا فتى
خذ قصب الصيد
وخذ شباك الصيد، والأصحاب ولتتبعوني كلكم.
كي تبلغوا مستنقع الغابة.
سوف أريكم أعجب المصائد..
وسوف تمسكون أعجب الكنوز!

أنصت فتيان القرية إلى الطير الصادح بلغتهم...

وتهيأوا، فوراً، لمهمة اصطياد. تتبعوا الطير حتى المستنقعات.

وهناك، حط الطير على البردي، وشرع يصدح:

ناروبوكو بنت اليقطينة
ألقتها تسع بنات في الماء . . .

شرع الفتيان يبحثون عن الفتاة، وتوغل زوجها حتى بلغ البردي حيث الطير . . . وأخذ يبحث بين الجذور . . . فجأة أمسك بذراع، وظل يسحب، حتى خرجت الفتاة، حية، معافاة.

ناروبوكو والفتى في سعادتهما القصوى.

أما الفتيات التسع الشريرات فقد طردن من القرية إلى الأبد!

■

هذه الحكاية الكونجولية التي اخترتها لرأس السنة، متداولة هناك، متنقلة من جيل إلى جيل.

ان فيها السذاجة (الظاهرة) للحكاية الفولكلورية، لكن فيها، أيضاً، ذلك العمق الرمزي العجيب للحكاية الفولكلورية في الوقت ذاته.

لا أريد، وأنا في رأس السنة، أن أزيد من صداع الرأس، بحديث عن الفولكلور علماً.

أريد، حسب، أن أشير إلى أن السكين كثيراً ما تتخذ رمزاً للزواج، ليس في أفريقيا وحدها. الجزء المعدني منها يعني الرجل، أما المقبض الخشبي فيعني المرأة.

القدر كذلك، تعني المرأة.

وما دامت القدور في أفريقيا الأولى تتخذ من اليقطين، فقد ساد معتقد مؤداه أن هذا الوعاء النباتي يستعيد طاقة خصبه بالاستعمال . . . هكذا فتاة اليقطين التي استعادت إنسانيتها بالحب!

■

والآن . . . والحق أقول لكم!

ما كنت لأختار حديث الفولكلور وحكاياته في هذا المكان، ولا في هذا الزمان حتى لو كان رأس السنة . . .

الحق أقول لكم انني محاصر الرأس والقلم . . .
أريد أن أقول كل شيء ، فلا أتمكن حتى من شيء !
أريد أن أطلق رصاصة تنوير، فأخشى أن ترتد علي .

في الأسبوع الفائت كتبت شيئاً عن أيامنا السريالية، واضطررت إلى أن أحجب ما كتبته عن النشر، بسبب أن الأيام والأحداث كانت تتلاحق بسرعة لاهثة جعلتها أكثر سريالية مما تصور المرء .

ومع ازدحام المشهد السريالي، تزدحم الخطوط الحمر، تزدحم عوائق الكتابة ومحاذيرها.

أنت تكتب لتقدم رأياً . لتقدم جديداً . لتقول الخلاف . لتنتبه وتنبه . لكن الخطوط الحمر تزدحم . . . وإذا بك لا تستطيع حتى الحديث الصريح ، مثلاً ، عن مقر القيادة لقوات التحرك السريع الأميركية . . . أين هو المقر؟ أين تقدم تسهيلات الطائرات والسفن الحربية؟ من وقع على اتفاقيات هذه التسهيلات ؟ وماذا يفعل الوطنيون العرب إزاء ما يجري؟

أشباح وظلال . . . .
والرأس والقلم محاصران .
أ «تستقيل» من مسؤولية الخطاب العام، إذن؟
أتكتب في اللاثقافة واللاسياسة؟
أتكسر قلمك في عينيك؟

■

وفي هذا كله، في هذا المطْهرِ (بفتح الميم وسكون الطاء)، المطهر الذي لا خلاص منه إلا بالجنون الخالص، في هذا المشهد العربي الذي لم يعد يوصف ، يشعر المرء بالعجز أو ما يماثله ، ما دام غير قادر على فعل أمر ولو هين، أمر يغير ولو قليلاً من استقرار المعادلة المستحكمة، حتى لا تنتج هذه المعادلة السوداء عاداتها وتقاليدها وتسلكاتها، في النفوس، وفي وتيرة

المسعى السياسي، ونبضه. وهل من بأس هنا في أن أقدم لكم بضع مفردات لم يعد الحديث عنها، وفيها، ممكناً؟ (أعني هنا الحديث الفعال الصريح):

- طرابلس.
- ما بعد طرابلس.
- الحرب العراقية/ الايرانية.
- القواعد الأميركية والتسهيلات الممنوحة للأميركيين في المنطقة.
- الرد الثوري العام.. أين؟ متى؟ كيف؟
- سل العظام في حركة التحرر الوطني العربية.
- القمع المركب، ومركب القمع.

ويقينا، أيتها السيدات، أيها السادة، سوف تمتد هذه المفردات -إن لم نقمع امتدادها- حتى تغطي الصفحة، والصفحات، والصحيفة.. حتى تغطي وجه الوطن العربي كاملاً...

■

إذن... ليكن الحديث في الفولكلور!
كن «مسلياً» لا شاعراً...
لكنك لن تكون...

الضوء الأول يقترب

المرتفع الصخري في المساء المبكر يشرف على بحر عجيب، بحر تبدو فيه السماء كالماء، أفقاً أزرق، ناعم الزرقة، يوحد بين العناصر في بهاء فريد. المرتفع ينحدر انحداراً حاداً نحو البحر، بحيث لا ترى البحر إلا إذا وقفت لصق النافذة حين تكون داخل الغرفة الواسعة، وإلا إذا خرجت من هذه الغرفة متمهلاً متأملاً. وقت للطبيعة، وما المرء إلا ابنها. غير بعيد عن الشاطىء الصخري، وفي قرارة الهاوية، حيث الأمواج تتلاطم في عنف معتدل، سرب من أربع أسماك ضخمة.. تقول: القرش. ويقول آخر: الدلفين. الأسماك تلعب متعابثة، تظهر وتغيب... لعبة الأطفال في المساء قبل أن يدخلوا ملكوت النعاس. وتتذكر سؤال بدر شاكر السياب: «والسمك الساهر هل ينام في «السحر»؟ «بويب» ليس هنا. انه جدول ينسرب الآن، صامتاً، ضحلاً في غالب الأيام، بين النخل والتوت، وتحت قناطر الجذوع، في البصرة البعيدة، بل في جنوبها القصي:

«بويب... بويب
أجراس برج ضاع في قرارة البحر.
الماء في الجرار، والغروب في الشجر...».

لكن هذا البحر الذي تواجهه هذه الساعة، من أعلى المرتفع الصخري، بحر القرش والدلفين والحوت... هذا البحر يليق بـ «موبي دك»

وملفيل . . . وبعد، ألم يطارد الكابتن آخاب حوته الأبيض الضخم حتى هذه البقاع؟

«المعاشيق» يغمرها الآن، تماماً، ليل رصاصي رطب. ويكتسي الصخر والماء والسماء لوناً واحداً مكتنزاً بالخلجات.

■

وفي الغرفة الواسعة، كانت الطقوس مقامة. متكآت ومساند، واضغاث «ريحان» جني ويابس، وأحاديث يأخذ بعضها برقاب بعض. كنا جمعاً من اليمن ولبنان وفلسطين والعراق . . . أما الهم الجامع فكان الثقافة العربية في زمن الاختلال، وهل من سبيل إلى استنقاذها مما هي فيه، كي تسهم بدورها في «إعادة الأمل» إلى ضمائر الناس على امتداد المضطرب الواسع للوطن العربي، بعد أن فقد الناس الأمل أو كادوا . . . قال أحدنا: أن ما نحن فيه الآن هو نتيج منطقي لاستيعاب الرجعية خطر الثقافة. كيف؟

لقد كانت الرجعية أكثر ذكاء من أن تلقي بالمثقفين الديمقراطيين في زنزاناتها وأقبيتها، فوظفتهم في خدمتها. . في خدمة هدفها البعيد، وهو الاحتفاظ بسيادة الفكر الرجعي. كيف؟

هذه الرجعية استحدثت عشرات المجلات، ومراكز «الأبحاث»، والمعاهد، والمكاتب، وفتحت أبوابها، وأبواب إغرائها المادي، أمام هؤلاء المثقفين، وجعلت تكلفهم بمهمات تبدو بريئة في الظاهر، بل هي بريئة إذا أخذناها بصورة منعزلة عن مجمل العملية السياسية الثقافية . . . لكن هذه المهمات تؤدي غرضين واضحين، أولهما الابتعاد بالبحث عن الأولويات الاجتماعية والسياسية الملحة، ثانيهما القضاء على استقلالية المثقف الديمقراطي وجعله تابعاً، بشكل أو بآخر، لمنظومة الاخطبوط الرجعي.

يقولون لهذا المثقف، مثلاً أكتب لنا بحثاً عن «السلاح في القرن الثالث الهجري». ويقولون لذاك: أكتب لنا عن «تطور نظرية الكم في الفيزياء

النووية». ويقولون لذلك: دبر لنا شيئاً عن «انحرافات الأطفال في سنتي الدراسة الابتدائية الأوليين».

لو دققنا قليلاً في عناوين هذه الأبحاث لرأينا خطورة التوجه، بالرغم من أي منهج قد يتخذه الباحث في معالجته.

فالعنوان الأول يهتم بالتراث، وبناحية مغرية ذات رنين خاص هي السلاح، وربما توصل الكاتب إلى نتائج قيمة في حدود الموضوع نفسه: استخدام النار اليونانية والمدافع الأولى... قد يحصل هذا كله... وقد يحظى الكاتب بالثناء والتقدير. لكن التوصل الأكبر هو ما حظيت به الرجعية، بإبعادها الباحثين عن النظر في القضايا الجوهرية والخطيرة من التراث، والتي ما زالت ذات فاعلية في النسيج الاجتماعي، كالدين المقارن، والتطور المذهبي والجنس. هكذا تركت التراث بلا مراجعة، ولا نقد ولا معاينة جادة، وأبقت عناصره المتخلفة، سيدة، سائدة، مهيمنة بثقلها المقدس على البنية الاجتماعية والفكرية والسايكولوجية..

أما المبحث الثاني عن «تطور نظرية الكم في الفيزياء النووية» فالقصد من اختياره إيهام القارىء المهتم بالتكنولوجيا الحديثة... إيهامه بأن المركز (أو المعهد أو المطبوع) يتبنى العلم الحديث ونتائجه... لكن الباحث في واقع الأمر لم يقم إلا بجهد تجميعي معين، وربما قام بكتابة مثل هذه الأبحاث شعراء يتقنون لغة أجنبية أو لغتين.

أي ان الاهتمام بالعلم الحديث ليس مؤسساً على أرضية حقيقية من مؤسسات العلم التطبيقي ومنشآته، ولا هو قائم على مسعى علمي تنويري متصل متواصل، إنه نوع من التغريب، وستار دخان يحاول إخفاء النزعة الرجعية المعادية للعلم... إنه واجهة العلم المزيف، أو تزييف العلم.

المبحث الثالث المتعلق بـ «انحرافات الأطفال في سنتي الدراسة الابتدائية الأوليين»، ينم عن اختيار ذكي أيضاً. فهو يوحي بأن المركز (أو المعهد أو المطبوع) يركز على البحث الاجتماعي، بل على غائية البحث

الاجتماعي، حين يربط هذا البحث بالتنمية والموارد البشرية، ومعاينة العملية التربوية . . . الخ.

قد يأتي الكاتب بإحصاءات دقيقة، متشعبة الاهتمام، وقد يتوصل إلى معاينات محترمة، لكن المتوصل الأكبر، هنا أيضاً، هو المركز الرجعي، حين وجه البحث الاجتماعي الوجهة الأكثر أماناً، والأقل خطراً، متحاشياً اهتمامات خطيرة مثل: انحلال الأسرة. البغاء. الأسرة الفلاحية. أسباب الهجرة. الشذوذ. الفئات الاجتماعية الجديدة. القبلية. الجذور الطبقية للمؤسسة العسكرية.

■

هكذا فرضت الرجعية سيطرتها على هذه القنوات الثلاث: مراجعة التراث. البحث العلمي، السوسيولوجيا، ومنعت ـ بصورة غير مباشرة ـ المثقفين الديمقراطيين من ممارسة دورهم التنويري والتحريضي، حين شغلتهم بما تريد، وحين قدمت من الاغراء المالي ما يجعل هؤلاء مرتبطين بها، طبقياً (مستوى المعيشة)، فكرياً (الكتابات). ومن المضحك أن الرجعية فتحت عشرات المراكز والمعاهد والمجلات، خارج حدودها، وهي لا تسمح بأن تدخل إلى أراضيها حتى المجلات التي تصدرها مراكزها ومعاهدها هذه!

■

وهنا تساءل متسائل من أقصى الغرفة: إذن، ما الذي نفعل؟

وقال قائل: نجلس في هذه الغرفة طويلاً . . . وننتظر. ألم يبلغك نبأ الافلاسات في مرابع النفط؟ ألم تسمع بأن هذه الدول أخذت تقترض بعد أن كانت تقرض؟ ومن يدري . . . يقال ان إحدى الجنات النفطية لم يبق لها من احتياطها النفطي سوى ما يدوم عشر سنين . . .

هكذا تأتي الخطوات الثلاث: تقرض ـ تقترض ـ تنقرض!

ومع الخطوة الثانية من الخطوات الثلاث تنقرض المراكز والمعاهد

والمجلات . . . لقد بدأت الانقراضات الأولى، وأغلق عدد من المراكز والمعاهد والمجلات أبوابه، وسوف يليه عدد آخر!

■

هنا، وبعد الانقراض الذي رأيناه ـ ونحن في الغرفة ـ رأي العين، وبين أضغاث «الريحان» التي أمست أكثر بعثرة تحول مجرى الحديث إلى نقطة أشد حساسية وإرهافاً، نقطة تستلزم مسؤولية وهدوء في العرض والتناول، إذ قال قائل ما:

«عرفنا ما فعلت الرجعية بالمثقفين الديمقراطيين . . . ونريد الآن أن نعرف ما يمكن أن تفعله المؤسسة التقدمية للمثقفين الديمقراطيين . . .

أجاب أحدنا: ان المؤسسة التقدمية أقل استفادة من المثقفين الديمقراطيين مقايسة بالمؤسسة الرجعية . . .

وكيف؟

لقد اعترفت المؤسسة الرجعية بهامش ووظفته لصالحها، مثلما جرى الحديث الذي سمعناه جميعاً . . . أما المؤسسة التقدمية فتريد أن تكون كلَ شيء: المتن والهامش. ومن هنا نرى إلى حرج المثقف التقدمي في المؤسسة التقدمية. انه لا يعرف ما يراد به وله. أمستقبله في المسعى الإبداعي (وهو ما يميل إليه)؟ أم في التسلسل المؤسسي (وهو ما يغري به)؟ وإذا لم يعط ما لقيصر لقيصر، وما للناس للناس (وعذراً للمثل حيث لا مماثله)، فكيف يكون بمقدورنا أن نغدو أمناء على نظرية ترى في حرية الابداع أقصى فرح يمكن أن يهبه الإنسان لنفسه؟

ثم . . . من يهب المنجز والأمل لحمه ودمه؟ من يصل الواقع بالممكن، والممكن بالمعجز، والمعجز بالمستحيل؟

من . . . إن لم يكن ذلك المبدع المتصل بالمؤسسة التقدمية؟

وهنا اعترض معترض قائلاً: «المتن والهامش» تعبير أرضي بنصفه

الأول . أما «الهامش» فلا أرتضيه . واقترح بدلاً من الهامش كلمة «الهالة» : المتن والهالة .

■

والحديث ما يزال يدور . والاضغاث يابسها أكثر من جنيها . والبحر يزداد عتمة . والصخر يزداد خفاء ، والسماء بلا نجوم . ونحن في الغرفة الواسعة ننتظر الانقراض (ليس انقراضنا بالطبع) . . . وندخل في الفلسفة ومصطلحها ، ونخرج منها لنعود إليها . ثم يأتي التطبيق . نتحدث بالتعميم فيقال لنا التخصيص أفضل . ونبدأ ـ حذرين ـ بالتخصيص ، فتأتينا النصيحة : عمموا!!

أخيراً قالت امرأة تراسل من نيويورك مجلة لبنانية :

لقد غادرت المنطقة العربية قبل ثلاثة عشر عاماً . والآن ، وأنا أزورها للمرة الأولى بعد كل تلك الأعوام . . . أشعر بأن ما سمعته الليلة قد سمعته قبل ثلاثة عشر عاماً .

وعقب أحد الجالسين : لكن ظروفنا كانت أفضل . كان الأمل باقياً . . .

■

والأمل باق .

والمؤسسة التقدمية تشق طريقها ، وسط كل المصاعب ، تعلم وتتعلم ، تخطط ، وتدفع خطوط المستقبل إلى أمام . .

وفي مسيرتها البهية تعيد النظر في المتن والهامش ، جادة متجددة ، تمنح الساعات الأربع والعشرين معنى وجوهراً ، تثبت وتتثبت .

والضوء الأول يقترب من «معاشيق» .

يوم أول، يوم أخير

سأل جندي روماني، رفيقه: كيف تقول انك لست على الصليب؟

أجابه الآخر: لأنني تحت الصليب.

كان الاثنان ينظران إلى السيد المسيح وهو يرمقهما في عذابه بنظرة أخيرة، نظرة آتية..

■

اليوم الأخير من كل عام، يعود بي إلى اليوم الأول. بل انه ليرتد بي على مراجعة سيره، كما يراجع النهر منبعه.

يقول الياس أبو شبكة: كم جدول في الأرض راجع منبعه!

هكذا إذن، لا نعرف الشيء إلا بسواه. لا نعرف الضد إلا بالضد.

انها سنة الأمور. من الجرة إلى المجرة. ومن الفيزيقا إلى الميتافيزيقا.

■

واليوم الأخير من كل عام، ملتجأ يتفكر فيه المرء ويتذكر.

ولطالما أغنت الذكرى الفكرة. بل ربما أغنت الذكرى عن الفكرة، مثلما يغني المجسد عن المجرد.

وهذه أيضاً من سنن الدنيا، ومن نكدها أحياناً.

■

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قصدت يوماً دار الوزير قمر الزمان، أبتغي نبأ عن اقليم دارستان الذي تعاورته النوائب، فاجتزت بفتيان يتقاذفون أغصاناً مزهرة، ويرقصون في الساحة، مهللين للعام الجديد، وكانت الساحة تضج بأصواتهم، وتتأرج بزهر أغصانهم، فامتلأ قلبي غبطة، وانشرح صدري، وانبسطت أساريري، ووددت لو أعانتني ساقاي الكليلتان فأرقص هازجاً مع الفتيان.

ثم دخلت دار الوزير، فإذا بها مونقة مزوقة، فيها من الرياش ما لا أغرب ولا أعجب. وفيها من الند أطيبه، ومن الصندل أعلاه. ورأيت في ركن من القاعة الوسيعة شجرة ذات أغصان فائقة الخضرة، تشير بفاكهة وأزهار، فدهشت، والله، لاجتماع الثمر والزهر، ودنوت من الشجرة، أتقراها بأناملي، وإذا بها تمثال شجرة، لا شجرة.. آنذاك تذكرت الفتيان الراقصين في الساحة، المتلاعبين بالأغصان المزهرة، واستروحت أرج الساحة، وبهجة العام الجديد، وعجبت للوزير قمر الزمان كيف استبدل بالحطب شجراً طيباً.. وكيف أرتضى أن يستقبل الدنيا الجديدة بخشب قديم..

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك: الناس ليسوا سواسية أيها الملك الهمام. فمنهم من يستقبل الدنيا، ومنهم من يستدبرها. والوزير قمر الزمان أراد استقبال الدنيا فلم يحسن الاستقبال. وكان خيراً له أن يحمل غصناً مزهراً فيكون مع الفتيان الراقصين الهازجين في الساحة.

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد، والله، أمرته..

■

في اليوم الأخير من العام نشرب قهوة الصباح، حلوة مرة. العام الماضي لم ينته، والآتي لم يهل بعد. أم أن الحياة كلها هكذا. في كل لحظة يوم أخير ويوم أول؟

■

إن كانت الحرية، هي الوسيلة والغاية، فإن الحاحها يكون أشد حين يريد المرء أن يطمئن إلى خطوته.

ولربما أثارت حركة الزمان خواطر كتمتها العادة.

وما دمنا نعرف الشيء بسواه، والضد بالضد، فما أحرانا أن نتثبت من كلمة الحرية ذاتها. وفي لغتنا، كما أرى، لا تمتلك كلمة «الحرية» حريتها. الكلمة مقيدة بنسقها ما دامت «العبودية» الطرف الآخر من الخيط.

نحن، في لغتنا، وهي ليست مصطلحاً ميكانيكياً بالتأكيد، لا نعرف الحرية إلا بالعبودية. هكذا جرت العادة: الحر والعبد. وفي هذه الحالة لا يعود الحر حراً، لأن شرطه وجود العبد. وفي نفوسنا التاريخية يعيش هذان الشخصان. يقتتلان ويصطلحان. ان ملكوت الحرية يعني قطيعة تامة مع الضرورة.

وبهذا المعنى لا أجد كلمة «الحرية» في لغتنا مؤهلة لبلوغ ذلك الملكوت. أم ترانا نحن، غير المؤهلين؟

■

قبل سنوات، وفي أعياد رأس السنة، كنت مع صديق لي، في «مليلية»، هذا الجيب (الاسباني) بالمملكة المغربية، على البحر المتوسط.

كنا قادمين من الجزائر. قطعنا الغرب الجزائري بالقطار، ومن هناك عبرنا الحدود إلى المملكة المغربية عند مدينة «وجدة»، ثم اتجهنا شمالاً لندخل «مليلية». كان الوقت عصراً. والليلة ليلة عيد. كل واحد منا يحمل حقيبة صغيرة. حين اقتربنا من وسط المدينة، رأينا أناساً عديدين يقتربون منا، يباركون الحقيبة، ويؤشرون عليها بأصابعهم شارة صليب. الأمر غريب. استفسرنا فقيل لنا: كل مسافر في هذا اليوم مبارك. انهم يتذكرون الملوك الثلاثة الذين جاؤوا من الشرق إلى بيت لحم ليشهدوا المسيح الوليد، مستهدين بنجم ثاقب.

لكنتنا لسنا ملوكاً، ونحن الآن نبحث عن نزل، نودع فيه حقائبنا، ونريح رؤوسنا بعد منتصف الليل.

كانت المدينة مزدحمة بالناس المحتفلين، والمقاهي والمشارب تكاد تغص بروادها، ونحن ننتقل بينها وبين الفنادق... لا فائدة... الفنادق كلها ممتلئة. قررنا أخيراً التخلي عن البحث، وانطلقنا في تطواف عبر المدينة.. الساعات تمضي، مفعمة بالبهجة والألوان... والليل لم يعد ليلاً. في وسط الساحة الرئيسة تنتصب شجرة ميلاد هائلة. والناس حولها يرقصون ويغنون. إنتصف الليل تماماً. أطفئت الأضواء لحظة، وما إن اشتعلت ثانية حتى انهمرت مئات القناني التي كانت مترعة، لتتهشم على الأرض، ولتفرشها بنثير زجاجي. أنها التحية الأخيرة.

وبدأ الناس يتفرقون.

والآن... إلى أين نمضي نحن؟

الساحة تخلو شيئاً فشيئاً، حتى تكاد تقفر. والبرد ـ بعد مغادرة الناس ـ أمسى شديداً.

إلى أين نمضي؟

أعدنا جولتنا بين الفنادق. لا مكان. ذهبنا إلى مركز شرطة ليساعدونا في إيجاد مأوى ولو لليلة واحدة... هذه الليلة فقط. لا مكان.

وها نحن نجرجر أقدامنا المتعبة في الليل القارس. البارات والمقاهي مغلقة. وكأننا وحدنا في هذه المدينة.

أخيراً جلسنا عند مدخل عمارة. مر بنا رجل يريد أن يدخل العمارة. قال لنا: «ادخلا لا تتكلما. امكثا هنا في هذا الركن المعتم أسفل السلم. بعد نصف ساعة يغلق الحارس باب العمارة وسيفتح الباب في الصباح الباكر. لا تدعاه يسمعكما أو يراكما».

تسللنا مثل لصين. اختبأنا في ذلك الركن المعتم. أحكمنا شد معطفينا

حولنا. كنا نشعر بنعاس ثقيل. لكن البرد شديد. لم تغمض لنا عين. كانت أقل حركة منا تصدر صوتاً نحسبه ضجيجاً.

سمعنا المفتاح يدور. البوابة تغلق. حارس العمارة يرتقي درجات السلم. نحن سجينان إذن حتى الصباح.

ربما كانت تلك أطول ليلة!

البرد يزداد لذعاً. والمعطف صار أشبه بورق صحيفة، لا يرد عنا شيئاً، لكنه يقرقع ويقعقع مع أدنى حركة. اللعنة! ماذا سيحل بنا لو سمع الحارس صوتنا فظن بنا الظنون؟

الأجفان لا تنطبق. والهمس ممنوع.

متى تفتح بوابة السجن؟ متى تهبط الأقدام الرحيمة على درجات السلم، لتمتد اليد التي تمنحنا هواء الانطلاق؟

بعد ساعات ثقيلة مريرة عسيرة، بدأ الظلام المطبق يشف. كانت عيون أربع مرهقة تترصد البوابة الحديدية.

ها هو ذا المفتاح يدور أخيراً. البوابة تنفتح. الحارس يعود إلى غرفته بعد أن أشرع البوابة للريح، ولنا.

أول الساكنين يخرج، متمهلاً.

بعد قليل يخرج ساكن آخر..

نتحفز. ننتظر قليلاً. نرفع حقيبتينا متمهلين. ثم نندفع عبر البوابة إلى الشارع الذي كان يفرك راحتيه.

■

صباح العام الجديد يغسل بأنواره المدينة والبحر. السفن تبدو نظيفة جداً. نظيفة كالطيور.

وفي المقهى المبكر، كان طعم القهوة الأولى يكتنز دفئاً وروائح مزارع استوائية، وثمت ضوع غائم من كحول البارحة والتبغ الأسود.

تلك الأيام . . . ذلك الأرَج

أواخـر مايو (أيار . مايس . ماي!) من هذا العـام، هبطـت بي طائـرة الأنترفلوك في مطار القاهرة . كنت قادماً من برلين في طريقي إلى عدن . وكان مقرراً أن تحملني «اليمنية» إلى عدن عبر صنعاء . هكذا تقول التذكرة .

وصلنا . المسافرون مضوا في سبيلهم إلـى القاهـرة . أنـا كنـت العابـر الوحيد . جاءت مسؤولة الترانزيت . أخذت تذكرتي وجاءت بعد قليل لتقول أن لاحق لي بدخول قاعة الترانزيت. لماذا؟ لأن ممثل الشركة الناقلة غير موجود في المطـار . أين أذهـب؟ قالـت: تنـزل إلـى القاهـرة. لكنـي لا أريد . إذن هي بوادر مشكلة . أردت أن أجادلها أكثر، لكنها اختفت في فجاءة عجيبة لتتركني وحيداً أواجه ضابط الجوازات . قدمت جوازي وتذكرتي . هو لا شأن له بالتذكرة. سألني عن مهنتي، وقال: تفضل . إلى أين؟ قالوا لي: الآن لاحق لك بالعودة إلـى مبنـى الترانـزيت . ضابـط جوازات في مكتـب آخـر يأخـذ جوازي . قال لي : انتظر . أخيراً جاء من يصحبني إلى ممـر داخلـي . ثمـت حجرة تحمل لافتة عن مكافحة المخدرات ، وزاوية معتمة يشرب فيها عدد من العاملين الشاي . الممر رطب . أخشاب متناثرة وأعمال ترميم بسيطة . قالوا لي : اجلس . قلت في نفسي (هذه المصطبة تشبه مصطبات الانتظار في دوائر الشرطة) . وحدي في الممر . المدخل يحرسـه رجـلا أمـن يرتـديان ملابس مدنية . قلت لأحدهما : ماالأمر؟ قال : اصبر . وتمر الساعة الأولـى والثـانية

والثالثة . . . جاء رجل أمن وأدخلني غرفة فيها أربعة رجال . سألني أحدهم وهو يقلب جوازي : فلسطيني؟ لماذا تريد أن تدخل القاهرة؟ أجبته : لست فلسطينياً، ولا أريد أن أدخل القاهرة، أنا مسافر عابر.

رد علي : بلى، أنت فلسطيني . قلت : كما تشاء .

وتتوالى الأسئلة : وماذا كنت تفعل في برلين؟ كان عندكم مؤتمر؟

قلت له : لن أجيب . ويسأل : متى زرت القاهرة آخر مرة؟ وأجبته : قبل سبعة وعشرين عاماً، أيام جمال عبدالناصر. ويعود : والآن لماذا تريد أن تدخل القاهرة؟

قلت : لا أريد أن أدخلها. أنا مسافر عابر. أريد العودة إلى قاعة الترانزيت وانتظار طائرتي . وسأل : ما اسمك؟ (كان يقلب الجواز مدققاً) . لم أجب .

وتستمر لعبة «القط والفأر» . . .

ويزداد المتفرجون . كنت متعباً جداً . قلت أخيراً :

لن أرد على أي سؤال . بإمكانك اتخاذ الاجراءات التي تراها . أنا الآن ـ كما أعتقد ـ في «التخشيبة» . فقط أريد حقيبتي، إذ قد تضيع هناك .

ضحك أخيراً : الله يسامحك . . تخشيبة؟ .

وتستمر اللعبة . لكن قواعدها صارت أشد انضباطاً . بينما أعصابي تزداد توتراً . شأن أية لعبة، لا بد من نهاية . لذا حرصت ـ برغم توتر العصب ـ أن أظهر الهدوء. وهكذا انتهت هذه اللعبة أيضاً، باعتذار، وبعرض سخي لأن أقضي في القاهرة الوقت الذي أريد. تسلمت حقيبتي، وصحبني رجل أمن عائداً بي إلى قاعة الترانزيت . أمضيت الليل قائماً .

وأقضي في ترانزيت القاهرة ليلة أخرى . وأتدبر أمري مع طائرة الايروفلوت في صباح مبكر.

■

أعود الآن، كما يغوص المرء في نديف قطن، ثمانية وعشرين عاماً إلى روائح الجنة. عام ١٩٥٧ عقد مهرجان الشباب والطلاب العالمي بموسكو.

في العراق كان الحكم ملكياً، وكان رجل اسمه نوري السعيد قام بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي.

لكننا شاركنا في المهرجان، غادرنا العراق إلى سوريا. ومن مرفأ اللاذقية حملتنا الباخرة السوفياتية جروزيا إلى ميناء أوديسا (السلالم الشهيرة والمدرعة بوتمكين وايزنشتين) ومن الميناء إلى موسكو بالقطار في رحلة عجيبة.

في موسكو (البعيدة جداً آنذاك) تعرفنا للمرة الأولى على حقائق كنا نتتبعها في الكتب، وعلى أناس كنا نراهم في شخوص الرواية الروسية فقط. ان تلك «اللمسة الأولى للأرض السوفياتية ما تزال حتى الآن طرية في عيني وأناملي، كأنها حدثت أمس... أمس هذا، ولم أفقد منها سوى «بالالايكا» عزيزة لا أدري في أي مضطرب من فضاء الله أضعتها.

انتهت أيام المهرجان وطويت أعلامه لنحملها في القلب، ونمضي، كل إلى سبيله. ذهبت إلى بولندا بدعوة من اتحاد المعلمين البولنديين، وطفنا البلاد من وارشو إلى كراكوف حتى بحر البلطيق... بل حتى بيت شوبان الذي حملت بضع وريقات من أشجاره ودسستها في كتاب كان يلازمني.

وتنتهي الأيام البولندية أيضاً.

وتبدأ رحلة العودة إلى العراق. هذه الرحلة التي لم تكتمل حتى يومي هذا... الطائرة حملتنا إلى القاهرة. ومن هناك سنمضي إلى دمشق. ومن دمشق سوف «نتسلل» بغداد...

■

حين هبطت بنا الطائرة في مطار القاهرة (وكنا ثلاثة فقط)، لم يسائل أحدنا، الآخر، عن إشكالات معينة وشكليات لا بد منها... ربما كان لاندفاعة الشباب الحارة أنفاسها فيما اعتبره، الآن، اقتحاماً.

على أي حال. نحن في يوم من عام ١٩٥٧، أمام ضابط جوازات بمطار القاهرة، عاصمة مصر عبدالناصر.

● الأخوة من العراق؟ أهلاً وسهلاً . . .

- نريد البقاء أياماً في القاهرة.

● ولم العجلة؟ من أين أنتم قادمون؟

- من موسكو ووارشو. كنا في مهرجان الشبيبة.

● لا أختام على جوازاتكم. حتى ختم الخروج من سوريا غير موجود.

- نعم . . . ولا نريد ختم دخول إلى مصر على جوازاتنا. فنحن نعتزم العودة إلى بغداد.

● آه . . . نوري السعيد. تفضلوا. ارتاحوا قليلاً.

جلسنا. جاؤونا بمرطبات. بعد حوالي نصف الساعة تقدم إلينا ضابط متقدم الرتبة: هذه جوازاتكم أيها الأخوة. لم تختم حفاظاً عليكم. بإمكانكم البقاء في القاهرة ما تشاؤون. نحن نقدر شعب العراق وكفاحه.

بهذه البساطة العظيمة خرجنا من مأزق فعلي، لندخل في القاهرة العزيزة.

وحين غادرنا مصر إلى سوريا لم تختم جوازاتنا بختم المغادرة.

لكننا بعد عودتنا إلى دمشق واتصالنا برفاقنا فوجئنا بالنبأ: لقد سلم أحد موظفي اللاذقية قائمة بأسمائنا وأرقام جوازاتنا إلى دوائر حلف بغداد لقاء ثمن معلوم. وصدرت احدى صحف نظام بغداد تعلن إلقاء القبض على عدد من رفاقنا العائدين، بالصيغة الآتية:

(عائدون من موسكو يقعون في الفخ)

وبما أننا عائدون من موسكو ولا نريد الوقوع في الفخ، تقرر بقاؤنا في دمشق، حيث سكنا، مع جمع كبير، منزلاً شامياً عتيقاً في أحد الأزقة المتصلة بالجامع الأموي. من بين هذا الجمع أتذكر من استشهد، ومن غادرنا، ومن

واصل المسيرة حتى اليوم. انهم الآن، متناثرون في المدن والعواصم، لكنهم في أية مصادفة لقاء، يعودون إلى تلك الأيام، إلى ذلك الأرج، إلى الشباب . . . روائح الجنة في الشباب.

الأسابيع تنسرب، ونحن في المنزل الشامي العتيق، إلا أن عددنا أخذ يتضاءل، بعضنا ذهب إلى دراسة، وآخر إلى عمل داخل سوريا أو خارجها، وهناك من عاد إلى البلاد وواجه العقوبة.

أما أنا فقد ذهبت إلى الكويت. دبرت أمر التذكرة، ونزلت هناك عند صديق.

كانت التربية آنذاك إدارة لا وزارة، يتولاها السيد عبدالعزيز حسين، وهو الذي أصدر أمر تعييني مدرساً بمدرسة الفروانية المتوسطة. كانت الفروانية أو (الدوغة) تماثل قرية بدو على أطراف الصحراء. وكان لنا في البيت بئر تستقي. في تلك الأيام الكويتية تعرفت على غسان كنفاني وناجي علوش وعلي السبتي وخالد المسعود، وعلى أناس سواهم أحبوا أمتهم ومنحوها بقدر طاقتهم ما يستحق الاعتزاز.

كانت الحركة الثقافية ـ السياسية نشطة غنية بالجدل والفعل. وحين هب الشعب اللبناني يواجه الإنزال الامريكي الذي جرى بطلب من كميل شمعون، انتظمت في الكويت حركة شعبية واسعة للتبرع وإرسال المتطوعين إلى لبنان:

كانت المنطقة العربية تهتز. ونوري السعيد يزداد غروراً في بغداد. وفي الكويت يسألك الناس كل يوم: أين الشعب العراقي؟

■

أوائل العطلة الصيفية ١٩٥٨ (كانت مع شهر مايو في الكويت) ذهبت إلى القاهرة. استأجرت طابقاً من عوامة، وأقمت في هذا المنزل الخشبي المترجح على النهر الخالد، أهبط إليه من الرصيف على درجات خشبية و «الريس» يأتيني بما أحتاج؛ والزوارق المحملة بالخضر والفواكه تزور

العوامات، واحدة اثر أخرى، وتبيع في الصباح الندي هذه النعمة السابغة.

انتهت مدة إقامتي، وكان علي أن أقصد «المجمع» لتجديدها. ذاك النهار استيقظت ضحى تناولت جواز سفري وقطعت (الكوبري) في طريقي إلى المجمع أحسست بشيء غير اعتيادي. حركة الشارع. تصرفات الناس. تجمعات صغيرة تستمع إلى أجهزة الراديو المفتوحة في الحوانيت والأكشاك والمقاهي. وفي «المجمع» سلمت جواز سفري إلى الموظف المختص. ابتسم وقال: ثورتكم مثل الثورة الفرنسية في يوم ١٤ يوليو!

ظننته يسخر. كان اليوم بالفعل هو الرابع عشر من تموز (يوليو)... لكن ما شأن الثورة؟ أخذت جواز سفري وخرجت من المجمع قاصداً جمعية الطلبة العراقيين.

لم أكد أبلغ المدخل المؤدي إليها، حتى وجدت التظاهرة والاعلام الخافقة والهتافات. معنا... إلى السفارة. كانت لافتة «سفارة الجمهورية العراقية»، جاهزة مخطوطة. حين وصلنا وجدنا السفارة تحت حراسة مشددة. هتفنا، وأنشدنا، وأردنا أن نعلق لافتتنا لكن الجنود منعونا. كان فرحنا أعمق من تعليق لافتة، وكانت معدة برنامج «على الناصية» معنا، تسجل هذا الفرح.

■

تلك الأيام... ذلك الأرج!

أهذا ما أحس به السودانيون حين أطاحوا بالنميري؟

أهذا ما نحس به حين نفتح الأبواب الموصدة؟

موسكو
ليست في بهو الفندق

انني شاعر، كما ترين .
امرؤ يسمى كل شيء باسمه .
ويسرق الأريج من الزهرة الحية .

«الكسندر بلوك»

بعد ثمانية وعشرين عاماً (ثمانية وعشرين عاماً فقط!) تزور هذه المدينة، موسكو، للمرة الثانية . الطريق إلى هذه العاصمة، كان بعيداً جداً، خطراً جداً، في تلك الأيام، كان عليك اجتياز الحدود العراقية، والذهاب إلى دمشق، حيث تظل متخفياً أو شبه متخف، ثم السفر إلى اللاذقية، فالالتحاق بالسفينة التي ستحملك إلى أوديسا، ومنها بالقطار إلى تلك الضاحية الموسكوفية حيث يقيم وفد شبيبة العراق وطلبته إلى المهرجان السادس للشباب . هذا هو طريق الذهاب، أما طريق العودة فلم يكتمل حتى الآن! .

إذن، زرت موسكو يوم لم تكن الطريق سالكة، أما حين أضحى السبيل سالكاً ممهداً فقد كان عليك أن تنتظر كل هذه الأعوام الثمانية والعشرين كي ترى، من جديد، المدينة التي أحببت، والتي عنها كتبت، ومن أجل راياتها وهبت من عمرك ما وهبت .

قلت لصديق سوفياتي ونحن نسهر في مطعم «سويوز» : جئت موسكو شاباً، وعدت إليها شائباً، لكنني وجدتها أكثر شباباً! .

والحق ان هذه العاصمة الكبرى تقابلك في فجاءة لست لها مستعداً. بل انها لتواجهك مواجهة، تهاجمك وأنت غافل أو كالغافل، فتظن للوهلة الأولى أنك لن تستطيع لها سبراً، ومن يدري.. فلولا أنك امتلكت من شمائلك صبراً لغادرتها عجلاً، ولقلت (في سرك): اركب الليث ولا أركبها! هكذا هي المواجهة الأولى.

لكن المدينة العصية، أو التي بدت لك عصية، تشرع في إبداء محاسنها، متمهلة، متفضلة.. وها أنتذا تطمئن إلى معالم وشوارع، هاأنتذا ترود مكاناً وآخر، وها هم أولاء أصدقاؤك، يصل بينك و بينهم ود عميم، حتى ليتصل نبضك ونبضهم، وتتقرى بالملمس والمتنفس حرارة الرباط الإنساني العميق، ودفقة السلوك الأخلاقي الذي طال تعهده، وغار في النفس جذوراً، وتفتح زهورا.

إن موسكو ليست في بهو الفندق الذي تسكن، ولا حول مائدة المطعم الذي تؤم. موسكو ليست في حاشية السائحين والمتبضعين، بل انها ليست حتى فيما تظنه التقاطة ذكية في هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الحياة حولك.

موسكو عاصمة حضارة بديلة.

لذا، عليك أن تحسن النظر، وأن تبحث تحت البشرة. عليك ألا تتعجل في قول أو فعل أو حكم، هدوءاً، إذن. والروس يحبون الهدوء (تيخا! تيخا).

تمثال ف. أ. لينين الجديد، الذي دشن في احتفالات أكتوبر ١٩٨٥... أرأيت إلى الناس وهم يتمتعون برؤيته؟ كان الثلج يسقط غزيراً، على أضواء الزينة، والمعاطف وما تعتمره الرؤوس... وكان الحشد يزداد، كان يزداد بهدوء عجيب، لكن الساحة امتلأت حتى آخرها بأناس هادئين يشاهدون تمثالاً جديداً تحت ثلج غزير.

■

بين جدل القوة، وقوة الجدل، يولد جو من العمل السياسي والفكري

الجدير بالاهتمام والمتابعة، ومع هذا الجو يمكن للمرء أن يسمي ظاهرة شعبية تفصح عن نفسها بألف لسان، هذه الظاهرة هي «الأمل». ان حماسة من نوع جديد شرعت تأخذ مداها، في الشارع، في المعمل، وحتى في التصرفات اليومية الأقل دلالة. هذا الأمل، وهذه الحماسة، مرتبطان بالتجدد، بالتحديث الذي هو أكثر من ضروري، مرتبطان بالقوى الشابة التي يزخر بها المجتمع السوفياتي، مرتبطان بالتراكم الهائل لإمكانات تريد أن تشق طريقها، من أجل قفزة ضرورية. ليس مصادفة، إذن، أن يكون الواجب الثاني لعضو الحزب (في مشروع النظام الداخلي للحزب الشيوعي السوفياتي)، هو: «أن يكون قدوة في الموقف النزيه والخلاق من العمل، والانتظام والانضباط العاليين، ويصون ويكثر الملكية الاشتراكية، الأساس الاقتصادي للنظام الاجتماعي السوفياتي. وأن يسعى بإصرار إلى بلوغ رفع فعالية الإنتاج، والنمو الثابت لإنتاجية العمل، واعتماد إنجازات العلم والتكنيك الحديثين في الاقتصاد الوطني، ويرفع كفاءته ويدعم وينشر التجربة الطليعية، ويكون نصيراً نشيطاً لكل ما هو جديد وتقدمي».

لقد راقبت الناس، وهم يشاهدون من على شاشة التلفزيون المؤتمر الصحافي لميخائيل غور باتشوف في باريس، ثم في جنيف....

أأقول ان المشاهدين كانوا مفعمين فخراً؟ ليس من شك. لكنني أقول انهم كانوا مفعمين أملاً، متقدين حماسة.

الشباب يشق طريقه، وانه لمجترح المعجزات.

■

جو العمل السياسي والفكري الذي أشرت إليه، يحمل معه مستلزماته، وأولها النقاش. ان نقاشاً هائلاً يدور الآن في المجتمع السوفياتي، مستدعياً، ومستعيداً، تلك المثل الجميلة في النظرية والتطبيق، المثل التي أضعفت من مضائها عوائد وتقاليد، وورقيات يعود بعضها حتى إلى ما قبل الثورة.

لكن النقاش الهائل هذا، ليس ترفاً وتزجية وقت، ليس تجريداً أو

إنسراحاً. إنه نقاش بالملموس، نقاش تتبعه خطوات وإجراءات، نقاش ثمرته تحديث هذا المرفق الإنتاجي أو تلك الهيئة السياسية «والحزب يهتم بأن يعمل العاملون الشباب الواعدون كتفاً إلى كتف في القطاعات كافة مع الكوادر الخبيرة من الجيل الأكبر وأن يكتسبوا خبرتهم وصلابة العود اللازمة. وهذه عملية طبيعية لا يجب الاخلال بها، لأنها تشكل الضمان الأمين ضد الجمود والركود والإرادية» - مشروع برنامج الحزب الشيوعي السوفياتي (الصياغة الجديدة) -.

في مؤسسة «سفيت» (أي الضوء) للكهربائيات، بلينينجراد، يستطيع المرء متابعة هذا النوع العجيب من النقاش الدائر. لقد جرى تغيير جذري في طبيعة الهيكل الإداري، وتم التخلي عن ثلاث قنوات إدارية، وجرى إشراك فعلي للعمال والمهندسين في إعداد خطط المؤسسة، وأمكن إحلال وسائل مخاطبة واتصالات حديثة محل المخاطبة الورقية، كما أدخل الروبوت بصورة فاعلة في العملية الإنتاجية.

أحد الصحافيين سأل مدير المؤسسة: لو اشتغلت أنا عندكم، فبعد كم سنة أحصل على شقة؟ انه النقاش...

■

جيورجي ماركوف «الأمين العام لاتحاد الكتاب السوفيات» قال في كلمته التي ألقاها في ملتقى «لأجل السلام على الأرض» بلينينجراد ما يأتي:

«إن مقترحات الاتحاد السوفياتي التي قدمها ميخائيل غورباتشوف خلال زيارته فرنسا، قد أثارت إهتماماً هائلاً في العالم أجمع، واستشارت آمالاً جديدة في الملايين والملايين من الناس. طبيعي أن أعداء السلام سيحاولون ثانية، التقليل من أهمية المبادرات السوفياتية، لكننا نعتقد اعتقاداً جازماً بأن الحقيقة ستشق طريقها، وأنها ستخرس الأكاذيب والأعمال الاستفزازية». معلوم أن الاتحاد السوفياتي قدم مقترحاً بتخفيض الترسانة النووية بنسبة خمسين بالمائة، من جانبه ومن جانب الولايات المتحدة.

لكن وليم كوبر، الكاتب البريطاني قال في مداخلته : «في تبادل هجوم نووي (بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي) فإن لدى كل من الطرفين رؤوساً نووية كافية لإبادة الطرف الآخر خمس مرات (وإبادة بقيتنا معهم). الاتحاد السوفياتي يقترح تخفيض خمسين بالمائة من كل طرف. ان أي تخفيض في عدد الرؤوس النووية أمر جيد. لكن تخفيض خمسين بالمائة من كل طرف يعني بقاء الخمسين بالمائة الأخرى - وهي ما تزال كافية لإبادة الطرفين مرتين ونصف المرة، وإبادتنا نحن أيضاً معهم.

إن إمكانية الجنون الأقصى ما تزال قائمة».

انه النقاش أيضاً....

■

قلت لغائب طعمة فرمان: في المرة الأولى (قبل ثمانية وعشرين عاماً) جئت موسكو صيفاً. أما هذه المرة فلن أغادرها حتى يسقط الثلج! وسقط الثلج الأول في الثامن والعشرين من أكتوبر. لكنني لم أكتب عنه إلا مع الثامن عشر من نوفمبر حين كسا الساحات:

في هذه الليلة أيضاً سقط الثلج.
دعيني أتلمس وردة الهدب، اذن.
ساحتنا بيضاء
والأيدي التي تدفأ بالأيدي نسيناها.
فلم تعتنق الاصبع حتى اصبعا أخرى.
ولم نترك على راحاتنا ما يترك الطير على الغصن.
انطباعاً أو طباعاً.
هذه الليلة أيضاً يسقط الثلج
فهل ننتظر الصبح لنلقاه على الشرفة مرشوشاً كملح البحر؟

هل ننظر في المنفضة الملقاة كي نملأها بالورد مسحوقاً؟

■

القصيدة، مثل العديد من شؤوننا، لم تكتمل بعد.

مساء المدينة الكبيرة

لنختتم أمسيتنا، فالوقت متأخر
ولكن . . ماذا سأغني؟
«بوشكين»

هاتفني ايغور يرماكوف (من القسم العربي باتحاد الكتاب السوفيات) مقترحاً أن نمضي نهار الأحد في أرخانجلسك بضواحي موسكو، محدداً الساعة العاشرة موعداً لوصوله مع زوجته إلى فندق أوكرانيا، حيث أقيم. وافقت فوراً، فتمضية الأحد تحتاج فعلاً إلى إعداد مسبق، والأحد يوم ليس كسواه من أيام الأسبوع، انه يوم العطلة الثاني بعد السبت، والخير ألا يقضيه المرء وحيداً، أو منكباً على أوراقه، و «يد الله مع الجماعة» . . على أي حال.

بعد إجابتي بالموافقة، أزحت الستارة عن النافذة. كان كون أبيض يمتد أمامي. أبيض ناصع لامع، وكان ثلج خفيف يتساقط بهدوء. وفكرت: هل أغادر دفء الغرفة لألقي بنفسي، هكذا، تحت رحمة عناصر الطبيعة التي لم اعتدها بعد؟ لم يكن لدي وقت كثير. لذا دبرت أمري لأكون عند باب الفندق في تمام العاشرة. الساعة العاشرة بالضبط وصلت السيارة، وانطلقنا إلى أرخانجلسك. كانت أرخانجلسك، فيما سلف من الأيام، ضيعة إقطاعي اسمه أوسيبوف. أما لماذاخلدت الضيعة، وظل تمثال صاحبها على حاله،

فلأن الرجل كان شغوفاً بالفن، يجمع اللوحات والتماثيل، ويشجع الفنانين الروس (من أبناء الأقنان). بل إنه ليرسل عدداً منهم إلى ايطاليا ليستزيدوا علماً ودربة ودراية. ثم ان هذا الرجل كان محباً للأدب وأهله، يستضيف اعلامه، ويهيىء لهم من أسباب الرفاه والهدوء ما يعينهم في كتابة، أو يعينهم على مجالدة العيش وشؤونه.

بوشكين كان يقيم هنا ضيفاً. وكتب قصائد شهيرة. وما زال في الحديقة - الغابة ممر ضيق بين الشجر يدعونه «درب بوشكين» حيث كان شاعر روسيا يتأمل، وهو يتمشى متمهلاً.

تدخل القصر - المتحف، وعليك أن تخلع نعليك (فإنك في الواد المقدس) لتحتذي خفين يخففان من الوطء الثقيل، ويمنعان الصوت. ويحفظان الأرضية الخشب من تآكل. هكذا تدور بين نماذج الخزف (الفرفور) واللوحات، الأصيل منها وغير الأصيل، وتتابع ولادة الرسم الروسي، وتطور تقنيته وموضوعاته، وتتلمس (ليس بمعنى اللمس) طريقة حياة يومية، ونكهة عصر، وتعجب لأولئك البلاشفة الذين كانوا أمناء، منذ البداية، على نظرة تعتبر الثقافة استراتيجية لا تنال منها زوابع وأهواء.

تكاد الدورة تنتهي. وتنظر من النافذة الوسيعة إلى ما امتد أمامك من تماثيل رومانية على جانبي الممر المؤدي إلى البحيرة. تماثيل بيضاء تحت الثلج وهو يتساقط هنا أغزر مما كان في موسكو.

ويقول ايغور يرماكوف: الآن نتمشى في الغابة.

وأتساءل في سري. تحت هذا الثلج؟

لكن، لا بد مما ليس منه بد. إلا أن المفاجأة كانت في أن البرد لم يكن بالشدة التي توقعتها. بل انك لتحس. وأنت منطلق تحت الثلج، بدفء غريب، وبأنفاس طليقة، ونشاط طالما افتقدته.

■

في أرخانجلسك مطعم شهير وسط الشجر، يقدم طيوراً من الغابة، ونبيذاً

جيداً. لكنكم تفضلون العودة إلى موسكو، بسبب ارتباطات معينة، وبما أنكم عدتم متأخرين، في حوالي الساعة الثالثة، لذا فإن مطعم فندق أوكرانيا هو المكان الأكثر عملية لتناول الغذاء. وتفاجأ في بهو الفندق بأصدقاء لم ترهم منذ زمن ليمتد الغذاء معهم إلى حوالي الساعة السادسة مساء. وحين يتفرق الشمل، وتعود إلى غرفتك، تفكر بالمساء، بالوحشة التي تغمرك لو أمضيته وحيداً، وأبواب المساء التي ستتفتح لو طرقتها مع الناس. وبينما أنت تفكر، يناديك صوت عربي ليقترح عليك مشاهدة «دون كارلوس» على مسرح الكرملين، وليخبرك أن ثمت تذكرتين، وأن العرض يبدأ في الساعة السابعة.

حين تقترب السيارة من بوابة الكرملين المؤدية إلى المسرح، ترى حشداً من الناس مسرعين في دخول البوابة، وتجد نفسك وسط موجة بشرية مندفعة . . . أهي تظاهرة؟ إنها تظاهرة حقاً. للفن وحبه، للإبداع واحترامه، وللتربية الجمالية العميقة لدى الشعب السوفياتي.

المسرح هنا، على مستواه الرفيع، ليس أمراً مترفاً. انه مؤسسة شعبية، تقدم خدماتها السامية إلى الجماهير الواسعة، وتحفظ تراث الحضارة البشرية من النسيان والضياع، وتطور أشكالاً جديدة، بينما تصون إنجاز الماضي وتبقيه ماثلاً في الذاكرة.

وحين تفكر بتلك المسارح والفرق السمفونية التي تضطر إلى إغلاق أبوابها في الغرب الرأسمالي، لتترك المواطن تحت وطأة «الثقافة الجماهيرية» المعلبة، تشعر بعمق الاختيار الثقافي للاشتراكية.

■

ولربما كان «مسرح الغجر» بموسكو مثالاً ساطعاً لهذا الاختيار. زرت المسرح في غمرة الاحتفالات بثورة أكتوبر. وكنت أظن مسرح الغجر، بسبب ما شاهدته في غرناطة، مكاناً لتقديم منوعات فولكلورية استعراضية، تثير الاستطراف أكثر مما تثير الاحترام، بل كنت أظنه سرادقاً أو كالسرادق، يضم عربات غجرية، وغجراً مسلحين بالسكاكين، وغجريات ذوات صنوج

نحاس. لكني فوجئت بأنني في مسرح عريق، جيد التجهيز، وبأن المسرح مكتظ بالمشاهدين حتى أقصاه، وبأن تقليده في العرض لا يختلف عن تقاليد المسارح الأخرى في العاصمة السوفياتية.

معلوم أن الغجر شعب جوال، تعرض للاضطهاد طوال تاريخه، وأرغم على ملازمة موقع هو في أدنى السلم الاجتماعي، كما عانى من المذابح في بلدان عديدة، وما يزال المرء يتذكر ما فعله النازيون بالغجر، وكيف كانوا يستخدمونهم في التجارب «الطبية» الرهيبة، مثل خنازير غينيا، تلك التجارب التي تنتهي عادة بموت بشع.

تلك الليلة، في مسرح الغجر، كانت تروى سيرة هذا الشعب الجميل، المراحل التي قطعها، والطغاة الذين شهدهم، والنضال الذي توج بالحرية مع انتصار أكتوبر. كان الرقص متقناً، يوائم بين أصول الرقصة الغجرية ومستلزمات العمل الفني الراهن. أما الغناء فكان في غاية الجمال والتأثير وبخاصة الغناء الانفرادي.

مدير المسرح، وهو مغن مرموق، تحدث وسط عاصفة من التصفيق، بعد انتهاء العرض، قائلاً ان هذا المسرح هو الوحيد في العالم للفن الغجري.

■

في موسكو، تستطيع أن تختار وجه مسائك: المسرح. السينما. الأوبرا. الباليه. المطعم... وإن شئت فهناك السيرك!

المطاعم، عادة، تقدم استعراضاً موسيقياً راقصاً، وفترة لرقص الحضور، لكن الموسيقى ضاجة صاخبة، أكثر من اللازم، ومن المستحيل في هذه المطاعم أن تسمع موسيقى هادئة تتيح لك ولمن معك الحديث، حتى بالصوت العالي، ولست أعرف سبباً لهذه الضجة الهائلة التي تقرع قرعاً آذان أناس مرهفة في سماع الموسيقى.

إلا أن لمطعم اتحاد الكتاب شأناً آخر، ونكهة خاصة. انه يضم اثنتي عشرة مائدة تقريباً. وهو لا يقدم الكحول الحادة كالفودكا. الحديث فيه

همس، والمأكل جيد. إنه المكان المفضل لتبادل الرأي والتعارف والسهر الهادىء، وغالباً ما تجد فيه عدداً من الأسماء اللامعة في الأدب السوفياتي. غواة الفودكا هجروه، فاختفى الصخب، وقل دخان السجائر، وعاد إليه الأدباء الذين يريدون قضاء أمسية صافية.

■

مساء موسكو، مع كل ما يقدمه، لا يشكل إلا نصف الصورة. أما النصف الثاني فهو بيوت الأصدقاء، الأصدقاء العرب تحديداً.

وحين يكون المرء في زيارة عابرة، أو غير عابرة فإنه يتحمل مسؤولية لقاء الأصدقاء. وقد توصلت بالتجربة، إلى أن أفضل اللقاءات هي التي تتم قبل الظهر. أما المساء، فأعباؤه باهظة وأحاديثه طويلة مريرة، وآخر ليله بكاء!

■

لن أكون الغريب المغنى هنا
لن أكون الغريب.
لن أكون الذي يتساءل عن فندق الضاحية
لن أكون الذي يتهدل في زاوية
أنا من ساعة البرج
من ساحة الثلج، أنقل خطوي الخفيف
إلى جامع القيروان...
أقول لعقبة:
عقبة، أين الخيول
وأين نريد الوصول؟

■

في احدى الأماسي، قال لي محمد عمر البحاح: سنسمر الليلة! حسناً. دخلت شقة البحاح. يا للعجب! أي شيء هذا؟ قات في موسكو؟ كان

المجلس مهيأ، حسب التقاليد. جلسة الأرض والمتكأ. الشراب والماء. السجائر. ثم . . . قات هرري!

المساء يمتد. . . والحديث يطول، الليل يطول. والصباح يطل. تلك الليلة لم يكن آخرها بكاء!

حسناً . . الحياة مستمرّة

جلسة الافتتاح في معهد سمولني

في الثلج البكر أتجول
والزنابق الطريئة تملأ قلبي .
المساء يشعل نجمة شمعة
ليدلني على بيتي .
مشتجرات معتمة !
لكن حولي حقول ثلج صاف
تسر النواظر
وددت لو طوقت بذراعي
فخذ الصفصافة الخشبي .

«سيرجي ايسينين»

لم يكن الثلج الأول قد هبط. الثلج ما زال بعيداً عن لينينغراد في صباح السابع من أكتوبر هذا. وعليَّ أن أنتظره في موسكو في شهر نوفمبر. لكن ايسينين يلاحقني بنظرته التي تستغرق الطبيعة والبشر في لحظة خاطفة كالبرق. الست في بيتربورغ «بتروغراد ثم لينينغراد»؟ وما دام فندق استوريا العتيق قائماً فإن موعدي مع هذا الشاعر (١٨٩٥ ـ ١٩٢٥) يظل قائماً. وبعد أيضاً؟

الكسندر بلوك، مارينا تسفيتاييفا آنا أخماتوفا. . كلهم من هذه المدينة، مدينة الثورات الثلاث، حيث تألقت ثريا الشعر الروسي، ذهبية، جديدة، متجددة حتى اليوم في أنامل الشعراء الشباب وأفئدتهم.

صديقي ليس بعيداً، ومن هذا الفندق على نهر النيفا، الذي يواجه قصر الشتاء، أستطيع أن أعبر بذاكرتي الجسر وأتمشى هادئاً، لأبلغ مبنى البلدية، ثم أتطلع إلى فندق استوريا، مدققاً في الطوابق باحثاً عن الغرفة الأخيرة لسيرجي ايسينين، مردداً أبياته الأخيرة:

إلى اللقاء، صديقي، إلى اللقاء.
أيها العزيز، أنت هنا بين أضلاعي.
علينا الآن أن نفترق
لكن هذه الساعة تعلن لقاء آتياً.

ولقد أتى اللقاء، مثلما أتى مع الملايين الذين أحبوا ايسينين وشعره. الست الآن في لينينغراد، قريباً هذا القرب كله، مشاركاً في ملتقى «لأجل الحياة على الأرض» الذي ينظمه اتحاد الكتاب السوفيات، ويحضره كتاب من زهاء أربعين بلداً؟

في الثامن من أكتوبر ١٩٨٥، جرى افتتاح الملتقى. ولقد اختارت لينينغراد موقعاً عزيزاً للافتتاح. لقد اختارت معهد سمولني، بل القاعة المهيبة التي أعلن ف. أ. لينين من على منبرها، السلطة السوفياتية. وكان ممن تحدثوا في جلسة الافتتاح: جيورجي ماركوف الأمين العام لاتحاد الكتاب السوفييت، وجوكوفسكي رئيس تحرير «ليتراتورنايا جازيتا» ومسؤول لجنة الحزب المنطقية، ونائب رئيس اتحاد الكتاب البلغار، وأرتورو آلابي الأمين العام لاتحاد كتاب كولومبيا، والكاتب الفرنسي المعروف بيير غامارا، وادريس نايدو من جنوب أفريقيا الذي تحدث باسم حزب المؤتمر الوطني الافريقي، وكذلك «طحاوى» من قازاخستان، ويوليا درونينا الشاعرة التي كانت ممرضة في جبهة لينينغراد أيام الحرب، وذهبت إلى برلين «لتقتل الحرب» على حد قولها. كانت الأحاديث تدور بصورة واضحة عن دور

الكاتب في معضلات العصر الكبرى، وعن تلمس أساليب تجعل دوره أكثر جدوى وفاعلية. وقد أشار جوكوفسكي إلى أن لكل كاتب رؤياه الفردية، لكننا متحدون في جبهة معاداة الفاشية، وبيننا وبين هنريش بول وبيتر فايس أكثر من آصرة. لقد وضعنا قواعد أخلاق جديدة للنفوس البشرية، وقمنا باختيارنا بين فولتير وكروب. وتساءل ارتورو آلابي الكولومبي عن إمكان التوصل إلى خطوة أولى من عمل مشترك بين كتاب العالم، واقترح يوماً للسلام يبادر إليه كتاب لينينغراد. بول دركان الشاعر الايرلندي الحائز على جائزة برتريك كافانا (وأشهد أنه شاعر جيد بعد أن قرأت ديوانه)، بول دركان تحدث عما يجري في وطنه ايرلندا. وبعد ستة عشر عاماً من المقاومة استنتج أن الصحافيين، لا الشعراء، هم الذين رفعوا صوتهم من أجل ايرلندا. ووجه نداء حاراً إلى الشعراء: افلقوا ذرة الإنسان كي تصلوا إلى العالم. ليس على الشاعر أن يختار فيقف مع طرف. ان طرفه الوحيد هو السلام.

كانت القاعة الشهيرة بمعهد سمولني تتنفس الهواء الساخن للتاريخ الماثل، وللحاضر المناضل، وللمستقبل المهدد، بينما المنبر الذي أعلن لينين منه السلطة السوفاتية يعلن بمختلف الأصوات واللغات، تلك الرغبة القديمة الصميمة في أن يعيش الناس بسلام، متفانين «لأجل الحياة على الأرض».

كان العرب أربعة في الملتقى: الطاهر وطار الجزائري ذو رواية «اللاز» المعروفة، ويوسف القعيد المصري كاتب «الحرب في بر مصر» و «شكاوى المصري الفصيح»، وسميح القاسم الفلسطيني القادم من الأرض المحتلة، وأنا. نحن الثلاثة نرى سميح القاسم للمرة الأولى. ويتساءل أيغور يرماكوف «من اتحاد الكتاب السوفيات»: أصحيح هذا؟ أنه لكابوس! ونقول له: لو لم نلتق، على هذه الأرض الأمينة، لما التقينا الرجل إطلاقاً على أرض عربية.. الاسرائيليون يمنعونه أن يدخل أرضاً عربية، وبعض العرب يحرمون مصافحته، بل يمنعون قصائده المقاومة من أن تدخل كتاب نصوص مدرسياً! لكننا ندعوك هذا المساء إلى جامعة لينينغراد لتشهد كيف يلتقي العرب.

كانت المناسبة مرور أربعين يوماً على رحيل المناضل والمؤرخ

الفلسطيني اميل توما. وندخل المدرج الجامعي وسط عاصفة من التصفيق. كان المدرج مكتظاً كما لم يكتظ يوماً (هكذا حدثنا الطلبة)، وجاء الفلسطينيون جميعاً، جاء الطلبة العرب جميعاً، من مختلف أقطارهم وأنظمتهم. أنشدوا بصوت واحد نشيداً كتب كلماته سميح القاسم، وانصتوا للصوت الهادىء العميق، وهو يدعو إلى النضال والوحدة. كان اميل توما حياً في هذا المدرج الجامعي، في عيون الطلبة وأفئدتهم. في هذا المساء أبلغ اميل توما رسالته. لقد وحد هذا الحشد العربي في مسيرة النضال، ووهب النضال عمقه اللازم، واثار في النفوس الفتية حماسة طالما أوهنها النقاش اليومي المسدود.

في الملتقى كانت «مائدة مستديرة» أيضاً، بل موائد أربع توزعتها مواضيع أربعة:

● الاتجاهات المناهضة للفاشية والعسكرة في الأدب المكرس للحرب العالمية الثانية.

ويجري التعامل مع هذا الموضوع انطلاقاً من مؤلفات الكتاب المعاصرين.

● الشعر والأنشطة الراهنة المناهضة للحرب.

● مساهمة الكتاب في قضية السلام والوفاق والتعاون.

● التربية الإنسانية للأجيال الناشئة، واجب على الكاتب المعاصر.

يجري التعامل مع هذا الموضوع انطلاقاً من الكتب السوفياتية الموجهة إلى الأطفال والفتيان.

هذه الموائد المستديرة الأربع احتلت أربع قاعات من فندق لينينغراد. أما نحن فقد توزعنا عليها: الطاهر وطار على مائدة أدب الأطفال. سميح القاسم ويوسف القعيد على مائدة السلام. أنا اخترت (بالطبع!) مائدة الشعر.

مائدة الشعر حافلة، حضرها شعراء من ايطاليا وأنغولا وكوبا والاتحاد

السوفياتي. جرى حديث عن ماياكوفسكي والسلام، عن شاعر سيبيري قتل في الجبهة، وعن جيل الشعراء الذين ولدوا في الخنادق.

الشاعر الكوبي فليكس كونتريراس تحدث عن العلاقة التاريخية بين الشعر والنضال الثوري في كوبا، مبيناً أن أول مجموعة شعرية طبعت في كوبا كانت لخوزيه مارتي الزعيم الوطني الخالد للشعب الكوبي.

أما أنا، فقد وجدت مفخرة في تفصيل الدور الذي نهض به الشعراء العرب في تلك الشهور الصعبة من صيف **١٩٨٢** ببيروت. تحدثت عن الاذاعة، عن صحيفة «المعركة»، عن الشعراء الشهداء.. وقد نشرت «ليتراتورنايا جازيتا» مداخلتي هذه.

في لينينغراد، كانت لي أمسيتان شعريتان. واحدة أقيمت في قصر الكومسومول، واشترك فيها أربعون شاعراً، اثنا عشر شاعراً سوفياتياً، وثمانية عشر من بلدان العالم الأخرى، أما العالم العربي فقد قدم اثنين: سميح القاسم وأنا. كانت القصائد المكتوبة بغير الروسية مترجمة سلفاً، بحيث يلقي الشاعر خمسة أبيات أو ستة باللغة الأصلية، ثم يتلو المترجم، القصيدة، باللغة الروسية.

قرأت أبياتاً من «نجمة سبارتاكوس»:

نجمة في خطى الفقراء
نجمة في الخلايا التي لم تزل بعد سرية
نجمة في جبين المناضل
نجمة فوق خوذات من قاتلوا عند أبواب موسكو
ومن قتلوا في شوارع مجهولة.. عبر قاراتنا الخمس.
من أجل نجمة...

التلفزيون سجل الأمسية كلها وعرض لقطات منها في نشراته الاخبارية.

الأمسية الثانية كانت في الجامعة. قاعة صغيرة، كبيرة. الحضور طلبة عراقيون وعرب. كان في الأمسية حديث عن الثقافة الوطنية، ونصوص شعرية. الجو متقد. كأن شمعة تشتعل في كل يد.

هل ستودع لينينغراد في عجلة السائح؟ أنت لم تهبط، بعد، سلم راسكولنيكوف؟

لم تزر بوشكين وبلوك. . . لم تزر معهد الاستشراق مرة أخرى وفاء لكراتشكوفسكي.

لم تتناول البيرة في مشرب صغير. لم تطابق بين الأميرالية وقصيدة مارينا تسفيتاييفا.

ولم تلتق ايسينين في كونستانتينوفو. . حسناً. الحياة مستمرة!

عن الثلج وسواه

كل شيء هنا ملك لحبك
والأرض المسكينة تنظر بانشداه
راقده مثل الجميلة النائمة
التي سممتها التفاحة .

اضرب الثلج بقدمك، وتنفس بين أصابعك
أحبب الأرض المصابة أقصى الحب
إذ عليك أن تعرف
أن قبلتك العميقة وحدها
يمكن أن تكون ترياقها .

«يونا موريتس»

■

نحن في أوائل ديسمبر (كانون أول)، وشقة «برهان الخطيب» في حي «أكاديميكا أنوخينا» قرب محطة مترو «يوغاز ابودنـايا» تطل على ساحة دائرية فسيحة وتستشرف، في المدى غير البعيد، غابات الضواحي التي غدت سوراً بفضل الشتاء (أم بفعله). الساحة الآن مفروشة بثلج سميك، كل صباح تأتي الجرافة هادئة، ثم هادرة، وهـي تفتـح للسيارات طريقـاً يدور مع الساحـة وتزيح الثلج إلى الجانبين. وما دام الثلج يسقط باستمرار، فإن إزاحته تجري

باستمرار. مداخل البيوت ينبغي أيضاً أن تظل مفتوحة، وإلا أغلقها الثلج هي الأخرى. هذه المداخل يزاح عنها الثلج بالمجارف. يقول برهان الخطيب: «شغلة سيزيف.» . لكن الحياة تتكيف بسرعة لهذا البياض القادم، الذي سيظل مقيماً. لقد أشرقت الشمس، وهطل مطر (ثلج نصف ذائب)، لكن البياض ثبت في مكانه، لم يتزحزح، ولم يتشقق، ولسوف يظل يتراكم، ويزداد ارتفاعاً وصلابة وجمالاً . . . اختفت الندوب، وعثرات الطرق، ومخلفات الصيف والخريف. كل ما حولك بياض ناصع، وحين تتنفس، تحس بالهواء شفيفاً خفيفاً. الوجوه تتورد، والعيون تزداد بريقاً، يصبح الناس أكبر مما هم. منذ أسبوعين تكتظمخازن الأدوات الرياضية بالمتهافتين على مستلزمات الرياضة الشتوية، وانه لمنظر شائع رؤيتك الرجال والنساء يحملون عصوي التزلج الجديدتين.

الساحة الدائرية تضج بالأولاد وهم ينزلقون بزحافاتهم على منحدر المرآب، أما الأمهات الشابات فتبدو الواحدة منهن في غاية الفرح وهي تسحب وراءها زحافة يمتطيها طفل متورد الوجنتين، متضخم الحجم من الملابس الثقيلة، وهو ينظر أمامه بوقار عجيب، أو يرخي جفنيه في إغفاءة أعجب تحت النديف المتساقط.

يتحول الأطفال في الشتاء إلى دببة صغار، ملابسهم الثقيلة الجميلة تضاعف من حجمهم، ومشيتهم غير الواثقة تبدو كمشية الدب، وهم يتناوبون الاعتماد، أثناء السير، على هذه القدم ثم الأخرى فيميلون بأجسامهم، مع هذا التناوب، إلى اليمين فالشمال، دببة صغاراً.

مع سقوط الثلج الأول تكثر حوادث السيارات، بالرغم من السعة الهائلة لشوارع موسكو، فالناس ما زالوا في ذكريات الصيف، وعادات الشتاء لم تستحكم بعد. ان هذا البياض المتراكم ملك شامل السلطان، يفرض احترامه على الجميع. في أحد الأيام دعاني غائب طعمة فرمان إلى جولة بسيارته على الطريق الدائري المحيط بموسكو لا أدري لم أحسست بصوت سيارته المنطلقة أعلى من المعتاد. . . سألته: هل تحولت سيارتك البيجو إلى دبابة

ت ٥٤؟ ضحك قائلاً: آه. . . لقد ركبت عليها عجلات الثلج!

وتذكرت السيارات التي تقطع المفاوز الرملية، وكيف تشد على عجلاتها سلاسل متينة تمنع انغرازها في الرمل الغدار.

أشجار البتولا التي تحيط غاباتها بالعاصمة السوفياتية تلبس رداءها الأبيض على قامة سوداء، والصنوبر في بهجة شجرة الميلاد، بينما نحن منطلقون للغداء في مطعم «الكوخ الروسي» المشرف على انحناءة نهر موسكو. في طريق العودة، أخبرني غائب بأنه سيدخل سيارته غداً في مرآب، طوال الشتاء، ولا يستعملها إلا مرة في الأسبوع حين تلح الحاجة، ذلك لأن إزاحة الثلج المتراكم عليها، وتشغيلها في الصباح، يكلفانه جهداً جهيداً، ثم ان الشتاء هو الفصل المناسب هنا للكتابة المتأنية، أو لتنفيذ مشروع كتابي ما. الشتاء خارج ما هو مسقوف. أما المساكن فمدفأة كلها، ساخنة الماء كلها، مركزياً. ان أمراً كهذا، في عاصمة مترامية الأطراف هي موسكو، يعد من المعاجز. ألم تنفق سلطات المدينة أكثر من مليار روبل كي تهيىء هذا الدفء العميم لسكان العاصمة؟

أحد الأصدقاء كان يردد دائماً: نظرية توينبي في التحدي والاستجابة، لم تصح كما صحت على علاقة الروس بالثلج!

■

بعض المثقفين السوفيات يتمسك بصراحة مبتغاة بل ضرورية في الحديث معنا، نحن المثقفين العرب الذين تلعب المصادفة دورها في لقائنا معه. إنه يقول بتلك الصراحة المبتغاة والضرورية: ماذا لديكم؟ شعركم ـ مثلاً ـ رديء.

أنا، بالتأكيد، لن آخذ هذا الحكم مأخذ الهزل أو الاستنكار. لكنني سآخذه، تأكيداً، مأخذ التساؤل. لماذا صدر حكم كهذا؟

ما أصوله؟ ما حيثياته؟ ما المقدمات التي أدت إلى هذه النتيجة؟ ما الاستقراء الذي أدى إلى هذا الاستنتاج؟

إلا أنني أريد أن أدخل إلى المسألة من مدخل آخر: لم لا نقول ان الشعر الروسي رديء؟ بل، لم لا نستطيع أن نقول هذا، بينما استطاع هذا المثقف السوفياتي أن يقول رأيه صريحاً، بلا مواربة، ولا تردد؟

الجواب هنا، أننا ـ بالرغم من عدم معرفة اللغة الروسية (بالنسبة لي في الأقل) أتيحت لنا فرصة الإطلاع على الإرث الحديث للقصيدة السوفياتية، مترجماً إلى الانجليزية والفرنسية بطبعات مختلفة في بلدان عديدة، وقد كان هذا الاطلاع بمستويين، مستوى الأنثولوجيا، والمستوى الفردي، عبر ثقات متخصصين.

هكذا كان بإمكاننا أن نتابع البانوراما المجيدة للشعر الروسي والسوفياتي، وبخاصة تلك الفترة الذهبية التي قدمت للعالم أسماء: بلوك وماياكوفسكي وايسينين واخماتوفا وتسفيتاييفا وباسترناك وغيرهم، إضافة إلى الأسماء الأكثر حداثة. صحيح أننا «نفاجأ» أحياناً، بشعر رديء، تسلل فيما يشبه المصادفة إلى ذلك الجهد الرائع في تقديم الشعر الحقيقي. . . لكن هذا لن يؤثر إطلاقاً في مشهد البانوراما البهي.

أما تقديم الشعر العربي الحديث إلى القارىء السوفياتي، فأمره مختلف، مختلف جداً، إلى الحد الذي جعل ذلك المثقف السوفياتي يحكم انطلاقاً مما بين يديه، أن شعرنا العربي رديء!

■

في موسكو، التقيت بامرأة ما زالت في ثوب الحداد منذ أكثر من عشرين عاماً، التقيت بـ «ثمينة سلام عادل» ـ أم إيمان ـ.

حدث الأمر مصادفة. كنا في «معهد السينما» أثناء أمسية للطاهر وطار. لم تكن الأمسية بدأت. فجأة وجدت نفسي بمواجهتها. كنت أتمنى غير هذه المواجهة المفاجئة. . . على أي حال، تحدث الطاهر وطار عن تجربته، عن علائقه، عن هواجسه القديمة والجديدة، وحين بدأ النقاش معه، كان لـ «ام ايمان» صوتها الواضح ـ فهمت فيما بعد أنها حاولت إنجاز أطروحة أكاديمية عن القصة العربية ـ ولم تكن في مداخلاتها دخيلة، أكيداً.

قلت لها: سأزورك لنستكمل حديثاً انقطع.

أخذت العنوان، ورقم الهاتف، وأوقفت سيارة أجرة أوصلتني بسرعة (قياسية كما قالت أم ايمان).

هذه السيدة، تستحق من الاحترام، بقدر ما تستحق من الوفاء. لقد زرت عدداً من البيوت، وأطلعت على رفوف الكتب، أو احتمالاتها، أو بقاياها... لكني لم أجد ـ إلا في منزل أم ايمان ـ غرفة امتلأت بالكتب إلى حد لم يترك مجالاً لحركة صاحبة الغرفة أو حريتها.

ودار حديث طويل (توسطه غداء سمكة مشوية من أسماك النهر)، كان الحديث عن الشعر والشعراء، عن بدر شاكر السياب ومظفر النواب، عن الجواهري الكبير، وحب سلام عادل للشعر... وعن ذكريات حميمة عن نضال، وبيوت سرية، ومطابع أكثر سرية.. خارج الشقة كان الثلج... وفزعت أم ايمان، حين عرفت وأنا أوشك على المغادرة، أن ليس معي معطف... إذن، كيف تخرج؟

■

هل تحب التنزه بين المحطات في باطن الأرض؟
كانت تقول له: ان موسكو تضيق.
يقول لها: الأرض واسعة.
أنظري في العيون الوسيعة عبر المحطات.
وانتظري النبع.
أي البلاد العراق؟
وأي المدائن بيروت؟
ثلج خفيف على شعر غوغول...
جاءت حمامة نوح وحطت سلاماً اذن.

هل يألف المرء موسكو؟ لكن الالفة ليست بهذا الإطلاق. حتى القرية الصغيرة لا يألفها المرء كلها. انه يألف منها زاوية ما، منظومة علائق معينة، ذلك البيت، وهذا المقهى، وتلك القنطرة التي تفصل وتصل بين ضفتين...

كيف إذن بموسكو؟

والمرء ـ بطبيعته ـ ألوف. هكذا قال المتنبي: خلقت الوفا.

وأشهد أنني بدأت آلف المدينة، أعني آلف ما انتقيته من المدينة، ومن اخترت من أصدقاء ومعارف، وما ارتدت من أماكن ومظان . . .

إلا أنني حين رأيت الثلج يرتفع أمام المدخل، ويغطي الساحة والسيارات والشجر، أحسست بما يحسه الطير المهاجر: انه موسم الهجرة إلى الجنوب!

الصعود والنزول

● أنا لا أعرف على الاطلاق. أخبرني إذن من أنت؟

- أنا أكتب، كما تعرف، وسأظل أكتب وأستكمل عدتي، وقد أدرس وأدخل الجامعة.

● تدخل الجامعة؟ ممتاز طبعاً، لكن الاستعداد لدخول الامتحانات ليس مزحة. ثم بم تريد أن تتأهل؟ مهنة أدبية فقط أو شيء في الحياة العامة أيضاً؟

- النشاط العام ليس للشعراء.

نظر إلى الطبيب بشيء من الاندهاش:

● بتعبير آخر، ان نكراسوف مثلاً، ليس شاعراً في رأيك. لكنك، في الأقل، تتابع مسار الحياة المعاصرة. ألست تتابعها ولو بنصف عين؟

«ايفان بونين»
ليكا - من «حياة أرسنييف»

■

هل مضى زمن حياة الطلب؟ هل تيبس الغصن الطري؟ وأوراقه وأوراده... أما زال في العينين وارتجافة القلب شيء منها؟ رزق الله على

تلك الأيام، وسقيا لبستان ظل يهبك حتى هذه الساعة شيئاً من ثمره. كم فكرت، وأنت تكتب، بأداة الكتابة... وربما استغرقك التفكير فحاولت إرجاع الشيء إلى أصله، إلى منبعه، فإذا بك تكتشف ـ يا للمسرة ـ أن عمدتك في أداة الكتابة أو أدواتها تعود، فعلاً، إلى ذلك البستان الأول، إلى زمن الطلب، وأن ما أتى بعد ذلك البستان ليس سوى استزادة واستفاضة وتفصيل، أما التكوين الأساس فهو تكوين أول.

■

وكالباحث عن نفحة عبير، أو ذكرى حب أول، تظل زيارة المعاهد أثيرة لديك، تذكرها وتتذكر بها، وتقيس معها نبضة القلب.

وقد حاولت الأمر ذاته، وأنت بجامعة لينينغراد، وجامعة الصداقة وجامعة سكو.

في لينينغراد زرت بيوت الطلبة، والتقيت بهم في احدى قاعات الدراسة، مرة، وفي مدرج مكتظ مرة أخرى. جامعة الصداقة ترددت عليها كثيراً، وكانت لك أمسية باحدى قاعاتها. جامعة موسكو أتاحت لك فرصة لقاء حميم بالعديد من أبناء بلادك... وفي هذه الجولة، كنت تحاول أن تعرف الطلبة، وتتعرف على ما بين أيديهم من عمل، وما بين أضلاعهم من أمل، وقد ساعدك الطلبة في محاولتك، بما لهم من طلاقة لسان، وصراحة وحرية في إبداء الرأي، والمناقشة.

■

قبل المضي بعيداً، أود القول أن ثمت نوعين من الطلبة العرب في الاتحاد السوفياتي:

الطلبة ـ الطلبة، والطلبة ـ غير الطلبة. الطلبة ـ الطلبة أمرهم معروف، يأتون للدراسة، ينصرفون إليها، يعودون إلى بلدانهم بعد أن يتموها غانمين، ويدخل طلبة سورية واليمن والأرض المحتلة ولبنان ضمن هذا النوع.

وهناك الطلبة ـ غير الطلبة، الذين يأتون للدراسة، فينصرفون عنها، ولا

يعودون إلى بلدانهم، لأسباب كثيرة، منها أنهم لم يتموا الدراسة حتى لو أمضوا فيها خمس عشرة سنة مثلاً، أو أنهم أتموا دراسة لم يظفروا منها بشيء يستخدمونه في الحياة العامة، أو أن بلدانهم مغلقة الأبواب أمام خريجي الاتحاد السوفياتي، أو أن بعضهم اتخذ من وضع الطالب ـ كالجندي في العهد القيصري ـ حرفة يعتاش عليها إلى الأبد.

■

اهتمامي سيكون منصباً، إذن، على الطلبة ـ الطلبة، الذين جاؤوا للاستفادة والاستزادة، والنهل من منبع الحضارة الاشتراكية.

وأود الاشارة هنا، إلى أن الظروف الدراسية، وما يتصل بها، من منحة، وسكن، وتسهيلات، ظروف جيدة، مقارنة بالبلدان التي جاء منها الطلبة أو مقارنة حتى بظروف الدراسة في بلدان الغرب الرأسمالي حيث على الطالب أن يكافح على جبهتين: لقمة العيش، وطلب العلم.

لقد زرت بيوت الطلبة، العازبين منهم، والمتزوجين. وأستطيع القول أن تلك البيوت مناسبة جداً، ما دام الطالب يتصرف باعتباره طالباً. صحيح أن الشقة (وهي ذات غرفة واحدة) يسكنها اثنان، وأحياناً ثلاثة، مما قد يعرقل عملية تحضير الدروس والواجبات، وبسبب مضايقة ما، لكن مكتبة المعهد مكان مثالي لتلك العملية، وبالإمكان تنظيم الاستفادة من الشقة بصورة أفضل على أي حال كما لاحظت عند عدد ممن زرتهم.

بعض الطلبة يشكو من تحديد الزيارات أو تقييدها. وأنا أخالف هذه الشكوى. فالزيارات متاحة، ولكن من وقت معين حتى وقت معين، أما حين تكون الزيارات بلا حدود أو قيود، فإن البيت الجامعي سيتحول، بالتأكيد، إلى مقهى، أو مشرب، مما سيلحق ضرراً بالغاً بطبيعة المكان، ويؤدي إلى فقدان الطالب حريته الأساس: حرية الانصراف إلى ما جاء من أجله، أعني طلب العلم.

لاحظت تمايزاً معيناً بين الطلبة من ذوي الدراسات الإنسانية: الأدب،

الصحافة، مثلاً، وبين الطلبة الذين يدرسون العلوم التطبيقية: الطب، الهندسة. ان طلبة الدراسات الإنسانية يقولون ان فائدتهم التي سيظفرون بها بعد اتمام دراستهم هي معرفة اللغة الروسية (مع تفاوت طبيعي في مستوى المعرفة) أما المادة الفعلية فيعتقدون أنهم لم يلموا بها إلماماً يعتد به، كما يقولون انهم يدرسون مواد بالروسية كانوا أطلعوا عليها فعلاً باللغة العربية، على حساب مواد أخرى متصلة بصميم الفرع، وأن عدداً من تلك المواد متشابه (مثل «تاريخ الاتحاد السوفياتي» و «تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي»)، كما يقول بعضهم ان كتابة الدبلوم أو الأطروحة، تتم في الغالب، بطريقة غير حقيقية.

والحق أنني لا أستطيع إبداء رأي فيما قالوه، كما أنني لا أمنح نفسي حق من يقدر على حجب رأي قيل.

لكنني قادر بالتأكيد على التنويه بأطباء وكيمياويين ومهندسين ومعماريين وسينمائيين تخرجوا في الاتحاد السوفياتي واحتلوا مكانة مرموقة في بلدانهم بعد أن عادوا إليها، وأسهموا في عملية بنائها وتطويرها، وفي الوقت نفسه أجد نفسي عاجزاً عن التنويه بفلاسفة وعلماء اجتماع واقتصاد وكتاب صحافة ونقاد أدب تخرجوا في الاتحاد السوفياتي.

في لقائي، بجامعة موسكو، مع الخريجين والدارسين من أبناء بلدي، أثرت هذه النقطة، مبيناً أننا ـ في معاركنا المستمرة ـ بحاجة ماسة إلى أن نرى من بينكم فيلسوفاً..

■

لم حدث هذا، أو ما يشبهه، لطلبة الإنسانيات؟

أعتقد أن للأمر جذوراً. إذ أن العديد من هؤلاء الطلبة اجتازوا ظروفاً مرهقة في بلدانهم، ظروفاً لم تكن مساعدة في التكوين الدراسي الأول بما يستدعيه من استقرار واطمئنان واستمرار، وهم، حين اختاروا الإنسانيات اختاروها مضطرين أو شبه مضطرين، فاستعدادهم الأساس لم يكن ليؤهلهم

لاختيار العلوم التطبيقية . . . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، لا بد من الإشارة إلى أن الإنسانيات تستلزم مقدمات حيوية في التلقي والمعايشة والتمثل وممارسة الحياة اليومية . . . هذه المقدمات التي لا تنهض بكل فاعليتها إلا ضمن طريقة حياة معينة ومختلفة في آن وهو أمر لن يتوافر إلا بعد سنين طوال من التشرب بالحياة والثقافة في الاتحاد السوفياتي . هنا ، لا بد من إعداد المادة الدراسية كي تكون أكثر حيوية ، أكثر التصاقاً بعملية التفاعل مع الواقع الحضاري . هنا ، يؤخذ بنظر الاعتبار ، أن الطالب القادم من لبنان ، مثلاً ، قد تيسر له الاطلاع ، في بلده ، على آخر منجزات التقنية في الصحافة ووسائل الاتصال ، هكذا يغدو من الضروري الاهتمام بأن تكون المادة العملية متاحة على مستوى التلقي الممكن .

ولكن . . . هل بالإمكان وضع الطلبة أنفسهم خارج المسؤولية؟ لقد لاحظت تراخياً معيناً لدى الطلبة إزاء الانضباط الضروري في فترة التلقي الأساسية . لاحظت نوعاً من الاستهانة بالمادة البرنامجية ، وكأن الإنسانيات الهام لا درس مثابر.

إن وقتاً عزيزاً يضيع في اللاجدوى ، وتضيع معه فرص لا تعوض .

■

مرة ، في جامعة برلين الحرة (برلين الغربية) أقمت أمسية شعرية بالاشتراك مع المغني الفلسطيني مصطفى الكرد .

قيل لي بعد انتهاء الأمسية : أتعرف كم تنظيماً للطلبة هنا؟ لكنهم جاؤوا جميعاً ، واستمعوا ، واستمتعوا . . . انهم بحاجة إلى النداء الثقافي ، الأمر مختلف ، بالطبع ، في الاتحاد السوفياتي ، إلا أن الطلبة العرب هم أيضاً بحاجة ماسة إلى النداء الثقافي . في أمسيات لينينغراد وموسكو ، وفي اللقاءات العديدة ، التي عقدت بحضوري ، أو بحضور سميح القاسم ، أو بحضورنا معاً ، أحسسنا بتلك الحاجة الماسة .

ان العلاقة الثقافية بالبلد البعيد شبه منقطعة : الكتب . . . الصحف المجلات . . . الشخصيات الثقافية .

حتى ممثلو الثقافة العربية حين يأتون إلى موسكو، لا يتيحون لأنفسهم متعة وفائدة اللقاء بالطلبة . . . هكذا يخسر الطرفان، وهكذا تخبو حماسة لا يمكن أن تظل متألقة إلا إذا استكملت جوانبها المختلفة .

ثمت كآبة تاريخية مفهومة .
ومن أجل التغلب عليها، يجب أن نبحث عن منابع حماسة .

والنداء الثقافي منبع أصيل .
واعتقد أن الحركات الثورية في منطقتنا تتحمل مسؤولية في هذا الجانب، فليس يكفي أن يتم «نزول» بين حين وآخر إلى طلبتنا . . . دون أن يتم «صعود» في حماسة من نوع آخر!

تلك الجزيرة في المتوسط

في الثاني عشر من يناير ١٩١٠ كتب فرانز كافكا (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤) في يومياته التي أوصى بحرقها ولكنها ظلت سليمة لأن المكلف بتنفيذ الوصية خالف الموصى، كتب يقول:

«لم أكتب كثيراً عن نفسي هذه الأيام، أولاً بسبب الكسل (إنني أنام طويلاً وعميقاً خلال النهار، ويزداد وزني حين أنام) ولكن أيضاً بسبب خوفي إفشاء إدراكي الذاتي. . هذا الخوف مبرر، لأن على المرء أن يسمح بتبيان إدراكه الذاتي في الكتابة تحديداً، فقط حين يمكن القيام بالأمر مكتملاً تمام الاكتمال، مع كل النتائج المترتبة، وكذلك مع الصدق الكامل. فلو لم يحدث هذا ـ وأنا على أي حال عاجز عنه ـ فإن ما هو مدون، سوف يحل ـ بسبب غرضه الخاص، والقوة الغالبة للمتأسس ـ محل ما تم الإحساس به، فقط بطريقة غامضة بحيث يختفي الشعور الحقيقي، بينما لا تعرف تفاهة ما جرى تدوينه إلا في وقت جد متأخر».

■

لم أورد هذا المقتطف من يوميات كافكا، كي أهجو نفسي، أو أذم (من زاوية معينة) أيامي القبرصية التي كنت آمل منها أن تكون لي عوناً في كتابة قصيدة طويلة أعيش حرقة انتظارها، وإنما لأن المقتطف يعينني في (تبرير؟)

التردد في كتابة القصيدة المرجوة، وفي الوقت نفسه يعين شعراء آخرين في تهيب التدوين. هل الأمر جديد، حد الاستعانة بفرانز كافكا؟ ألم يقل الفرزدق قبل أربعة عشر قرناً: والله إن خلع ضرس مني أهون عليَّ من قول بيت شعر؟

في المساء المبكر، وأنت في الشرفة، تبحث في سماء نيقوسيا، العاصمة القبرصية، عن النجوم، فلا ترى إلا نجماً واحداً. نجوم نيقوسيا لا تظهر مبكرة، إنها متمهلة، شأن الناس هنا.. لكن عينيك، وأنت ما زلت في الشرفة. تلتقطان نجماً يتحرك.. أي عجب! غير أنك تعرف بعد لحظة أن ما توهمته نجماً ليس سوى قمر من أقمار التجسس يتابع مداره، مخترقاً منطقتنا، مترصداً، متربصاً، وفي قبرص محطة من أكبر محطات الاستقبال والتنصت والاعتراض في العالم، وضعها الأميركيون على جبل شاهق، وأحاطوها بالأسوار والأسلاك، وجلسوا يشربون الكوكاكولا، ويتحسسون عبر أجهزتهم المتقدمة، النبض اليومي لأصوات المنطقة وإشاراتها.

المذياع في قبرص تتضاعف قدرته عدة مرات، وتتخاطف عبر موجاته الأصوات واللغات. ثمت محطة إذاعة للجيش البريطاني تبث من القاعدة العسكرية البريطانية، وباستمرار، أغاني وموسيقى و «قفشات» تتخللها بين حين وآخر مادتان خبريتان قصيرتان أو ثلاث.

والدوريات، تجوب قبرص، لا أرضاً فقط (دوريات أمم متحدة، شرطة قبرصية... الخ) فالسماء أيضاً موطىء دوريات (طائرات هليكوبتر وطائرات استكشاف). والبحر يدخل في الصورة، ومع سفن الأساطيل المتزاحمة في المياه التي بين قبرص وشرق المتوسط وجد «الاسرائيليون» مكاناً لهم، بل لقد هدد أحد جنرالاتهم الشاطىء القبرصي ذاته، مهدداً بأن قوته البحرية قادرة على بلوغ أي مكان من المتوسط.

والقبارصة، وسط هذا الضجيج كله، هادئون، متمهلون، يتابعون ابتسامتهم المهذبة، واستمتاعهم بالنبيذ وموسيقى البوزوكي والشواء في الهواء الطلق.

في ميناء لارناكا (اسمها اليوناني لارناكوس) حيث المطار الرئيس، بعد أن اقتصر مطار نيقوسيا على طائرات الأمم المتحدة تستخدمه، بعد تقسيم الجزيرة، أقول في لارناكا يختلط التاريخ بالأسطورة، والكسب الحلال بصفقات المغامرين والمهربين (ألقي القبض مؤخراً على شبكة مهربين تضم أتراكاً ولبنانيين وقبارصة قاموا بمحاولة تهريب أطنان من الحشيش) . .

قرب المطار، كما هو الحال في عدن «مملاح» يسمونه هناك «بحيرة الملح» يعتمدون عليه في جمع الملح وتصنيعه وتصديره فيما بعد. يقال أن المملاح كان بستان عنب تملكه امرأة وأن أحد القديسين مر بالبستان وهو جائع، فطلب من المرأة عنقوداً، لكنها بخلت عليه، فدعا ربه أن يحول أرضها ملحاً. . فكان هذا المملاح الذي يكسب منه أهل قبرص أكثر مما لو بقيت الأرض مثقلة بالكروم!

وفي لارناكا المسجد المفتوح طوال أيام الأسبوع من مسجدي جمهورية قبرص (مسجد نيقوسيا يفتح لصلاة الجمعة فقط). ويقال أن مسجد لارناكا بني تخليداً لصحابية كانت مع الجيش الذي غزا قبرص أيام معاوية بن أبي سفيان، وأن هذه الصحابية مرضت وتوفيت هناك. هكذا كانت السفن التركية حين ترسو في الميناء أو تمر به، تطلق مدافعها تحية للصحابية الجليلة.

في منطقة لارناكا ما يزال يعيش قبارصة مسلمون من الأتراك، وهناك قرية «بيلا» التي تقع على طرف الجانب القبرصي اليوناني من خط التقسيم البشع، حيث التواجد الواضح للقبارصة المسلمين الأتراك، وحيث أقام الجنود السويديون التابعون للأمم المتحدة مركزهم في بيت يطل على ساحة القرية المزدحمة بالمطاعم والمقاهي والدكاكين والبضاعة التركية.

■

العرب في قبرص بين راحل ومقيم. الراحل، مثلي، يقصد الجزيرة ترويحا واستجماماً، وأحياناً زيارة وتجارة. والراحلون لا يقصدون نيقوسيا العاصمة، إلا في النادر، وإنما يتوجهون إلى ليماسول ولارناكا وبافوس، حيث البحر، والسهر، ومفاتن السابحات، وبهجة المقاصف، الليلي منها

والنهاري . ولربما وجد هذا الراحل المتردد على الجزيرة، أن الأسعار آخذة بارتفاع مطرد، وأن ما اعتاد حمله من مصروف لم يعد يكفل له رخاء قديماً، والحق أن القبارصة أنفسهم بدأوا يشعرون بوطأة ارتفاع الأسعار المطرد، بحيث أخذت «رابطة المستهلكين» تنبه السلطات المختصة إلى تفاصيل الأمر بين حين وآخر. بالرغم من هذا، يجد الزائر العربي في يسر الدخول إلى الجزيرة، وتيسير الخدمات، وتهذيب الناس وصدقهم، وقربهم من تقاليد مشتركة حسنة، ما يجعله يتحمل السعر المرتفع . . . أي مكان لم ترتفع أسعاره؟

أما العرب المقيمون فأشتات مختلفة . الكثرة تدخل في تصنيف «التاجر» . وهذا التاجر عجيب النظر، متعدد الأطراف والعيون، قليل المال وكثيره، يسجل شركاته بثمن بخس عادة، وغالباً ما تكون شركاته وهمية أو تكاد، لكنه، على أي حال، مطمئن إلى مقامه، آمن الحل والترحال، ما دام يمتلك رصيداً مودعاً في مصرف قبرصي، وما دام جيبه يضم دفتر شيكات لا يدقق فيه أحد إلا مصادفة .

التاجر، كما قلت، متعدد الأطراف والعيون، ذو دائرة نشاط غريبة، تبدأ من الأحذية القبرصية التي يشتريها رخيصة ويبيعها غالية في بلدان عربية، بعد أن يلصق أو يطبع عليها علامة «صنع في ايطاليا»، وتنتهي بالأسلحة، مروراً بالكتب والمجلات، والفواكه، والأثاث، والرقيق الأبيض أيضاً. كل هذه الأمور معروفة، وهي جزء من المشهد العام في جزيرة تعتمد التجارة والترانزيت والسياحة في منطقة تجارية عريقة، ذات منافسات ومناوشات مستمرة .

إلا أن الاستثمارات الأكثر توظيفاً، هي تلك المتصلة بالصناعة السياحية، من فنادق ومطاعم وملاه، وتطوير مناطق جديدة للسياحة .

هنا، يجد الرأسمالي القبرصي نفسه، في النهاية، بمواجهة الرأسمالي العربي، ينافسه ويناوشه، وربما وجدت المنافسة والمناوشة منفذاً في العلائق الاجتماعية اليومية، مثلما حدث في مدينة ليماسول، حين اشتبك

المئات من الشبان القبارصة واللبنانيين طوال نهار كامل بعد حادث طفيف في مرقص ليلي، مما اضطر الجهات القبرصية إلى تشديد إجراءات الأمن، تحسباً لكل طارىء، واضطرني إلى تأجيل زيارة المدينة، فلم أقصدها إلا في «مهرجان النبيذ». والمهرجان يستحق الزيارة بالطبع. إنه يقام سنوياً، في حديقة الحيوان، الممتدة مع كورنيش البحر. هذه الحديقة الواسعة مكتظة بالآلاف الذين جاؤوا يستمتعون بالنبيذ (يقدم مجاناً بلا حساب) وبالشواء والرقص في جو من المرح الأصيل.

في تلك الليلة، وقبل أن يحين موعد الانصراف، اجتمع شبان لبنانيون ليؤدوا الدبكة. وخشيت أن تعكر ذكرى قريبة، هذه الدبكة وراقصيها، لكن روح المهرجان كانت المنتصرة، وهكذا رقص اللبنانيون حتى أعياهم الرقص، بينما الناس المحيطون يمرحون ويصفقون.

■

وبينما تشهد ليماسول مهرجان النبيذ، كانت نيقوسيا تشهد مهرجاناً آخر، هو مهرجان الحزب التقدمي للشعب العامل في قبرص «أكيل» المقام في عيد تأسيسه. وهنا نستعيد كلمات ميشال أوليمبوس عضو اللجنة المركزية لـ «أكيل»:

«في تموز ـ آب ١٩٧٤، وبعد إنقلاب عسكري نفذته الطغمة الفاشية اليونانية ضد الرئيس المطران مكاريوس، غزت القوات التركية أراضي قبرص وما زالت تحتل ٣٧٪ من مساحتها. عندئذ أكدنا أن الحلين كليهما ما هما إلا وجهان للعدوان على قبرص، ضد استقلالها وسياستها المستندة إلى عدم الانحياز. كانت مؤامرة نسجتها المخابرات المركزية الأمريكية عبر اليونان وتركيا لتدمير جمهورية قبرص، لتقسيم الجزيرة وتحويلها إلى حاملة طائرات لا يمكن إغراقها للناتو في المنطقة. وهذا أكثر وضوحاً الآن. وفي المناطق المحتلة يجري بناء قاعدة جوية عملاقة لقوات التدخل السريع الأمريكية، كما يتم بناء قاعدة بحرية على شواطىء كيرينيا، ومستودعات للصواريخ في شبه جزيرة كارياس».

■

يقول المثل القبرصي اليوناني :

لو سقطت صخرة على بيضة ، فوا أسفاه على البيضة .

ولو سقطت بيضة على صخرة ، فوا أسفاه على البيضة !

الاصطياد في مياه عدن

الماء في خليج عدن ليس عكراً. إنه ماء رائق مترقرق، أخضر حيناً، وأزرق حيناً. لكنه في الحالتين يشف عما تحته من حصى وسمك. إذن، هو ماء يمكن أن يصطاد فيه المرء... إلا أنه ليس الاصطياد في الماء العكر.

والماء في خليج عدن، هادىء عادة، حتى لتظنه مرآة... بل هو مرآة تعكس السماء، وهالة القمر، ووجهك أيضاً إن أردت أن تتملى صورتك. حتى الريح هادئة، تتدافع بين أذرعها الحانية مويجات هينة لينة، رفيقة حتى بالطوافة الصغيرة... إذن هو ماء يمكن أن يصطاد فيه المرء... إلا أنه ليس الاصطياد في الماء العكر، كما قلت.

والناس الذين يجاورون الماء، وديعون وداعة المتسم بالحكمة والفطنة والدعابة الصامتة، ينظرون إليك، هادئين، وأنت تقترب من الماء لتلقي بخيطك، وربما نصحوك باختيار المكان المناسب الذي تلقي فيه خيطك ذا الصنارة. بل ربما قدموا لك شيئاً من «البنجيز» ـ الكالامار ـ كي تغري به السمك أكثر من عجينة «الدقيق».. اذن، هو ماء يمكن أن يصطاد فيه المرء.. إلا أنه ليس الاصطياد في الماء العكر.

أماكن الاصطياد هي الأخرى كثيرة.

تمضي إلى «كالتكس». تترك السيارة خارج المدخل المحروس، بعيدة بضعة أمتار عن لافتة تقضي بمنع «السيارات والمتسكعين والباعة المتجولين»

من الدخول. ثم تخطو خطوات قليلة لتجلس عند الشاطىء، وتتناول صنارتك متمهلاً، وتلقيها في الماء الهادىء، بينما الحارس المشغول المتشاغل باق في مكانه، مستمتع بانتظار نتيجة يعرفها منذ زمن طويل. وهي -على أي حال- في صالح السمك، لا في صالحك.

■

في يوم العطلة الأسبوعية التالي، يخبرك صديق، كمن يخبرك بسر، أو يمحضك نصحاً، بأن «جزيرة العمال» هي الأرض الفضلى للاصطياد، وأن السفن القديمة نصف الغارقة، ذات الحديد المتآكل، هي موطن السمك، وبستانه، ومطعمه المفضل، فيها «أبو مقص»، وقد يقترب منها «الجحش»... بل ان فيها ذلك السمك الأسطوري، سمك «الكلب» الذي يغتذي حديد السفن، وهو سمك ضخم، في لحمه الحديدي غذاء ومنافع للناس.. لكن الخشية الخشية هي منك، وعليك... إذ لا بد أن تكون حذراً، منتبهاً، غير غافل دقيقة... صحيح أن «الكلب» سمك، إلا أنه ليس كالسمك... وإلا لما سمي «كلباً». حذار أن تقطع أصبعك إذا ما التقم «الكلب» الطعم، والتهمة مع الصنارة، واختطف خيطك مندفعاً به إلى أعماق البحر الموحشة... عليك ألا تغفل عن نفسك دقيقة. ثبت نفسك جيداً، وتثبت من مجلسك، فكم من صياد غفل عن نفسه، فسحبه «الكلب» إلى تلك الأعماق الموحشة... لكن، من يدري... أتظن عرائس البحر خرافة محضاً؟

يقال أن صياداً، واحداً مثلنا، كان جالساً هنا، في هذا الموضع تماماً.. وقد ارتحل مع «الكلب» إلى مملكة الأعماق، بسبب غفلته واستهتاره واستهانته، ويقال هنا إن هذا الصياد يتراءى في الليالي المقمرة غير بعيد عن الشاطىء، وقد حملته عروس بحر على ظهرها... أليس الأمر تحذيراً للصيادين؟ أليست الطبيعة رحيمة بالناس؟

هكذا. بين الفزع والترقب والتجلد، تخرج صنارتك، وتثبت الطعم، مرتجف اليدين، مرتعد الفرائص، منتظراً هجمة «الكلب» العقور.

الساعات تمضي . والخيط صامت . والطعم باق . ويا جبل ما تهزك ريح . . السفن نصف الغارقة ، ذات الحديد المتآكل ، ينزف منها الماء . إنه الجزر . والمساء يقبل . قوارب الصيادين تعود . وأنت جائع . . . و «الكلب» الأسطوري يأكل قلبك .

■

اسمع كل هذه الأماكن التي حدثوك عنها لا تفيد . كلها بلا صيد . جربتها جميعاً . لا أدري لماذا يظلون يقصدونها . . . أنا أعرف المكان الذي تتمناه . بعيد هو قليلاً ، لكن الأجر على قدر المشقة . الوصول إليه وعر شيئاً ما ، ذو مرتقيات ومهابط، ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً . ثم ان علينا الانطلاق في الصباح الباكر، وفي الفجر أفضل . . . فالصباح رباح ، والسمك آنذاك جائع ينتظر فطوره . هكذا نصل في الوقت المناسب . ستجد كل سمكة قد فتحت فمها الصغير الجميل ـ آه يا عيني ! ـ وما أن تلامس صنارتك الماء حتى تلقفها سمكة . عملية حسابية سهلة : كل رمية صنارة بسمكة !

أين هذا المكان؟

بعد الجولدمور . . . يسمونه ساحل العشاق ، والأفضل أن ندعوه نحن ساحل السمك . انه ليس بعد الجولدمور تماماً ، فعلينا أن نسلك طريقاً صاعدة ، ثم نلتفت يساراً ، لنهبط عبر ممر صخري إلى الشاطىء الصخري ، ثم نتركه إلى شاطىء رملي ، وندور مع الشاطىء الرملي لنبلغ شاطئاً صخرياً ، ونصعد بعد ذلك ممسكين بالصخور إلى مرتفع جميل يسيطر على البحر كله ، مثل القمة الشامخة ، مثل بيت النسر . . . هناك السمك ، أنواع وألوان . . . أسماك صخرية . أسماك أعماق . أسماك زينة . حتى ثعابين البحر هناك . . . وبالمناسبة يقال ان لحم ثعابين البحر غني بالفيتامين ، لكن الناس لا يأكلونها . . . عجيب ! أقول لك ان السمك هناك أنواع وألوان . . . مرة رأيت دولفيناً هائلاً يخب في البحر مثل حصان . ألا تصدق ؟ ألم تقرأ عن الدلافين ؟

قرأت في كتاب مترجم أن الدولفين أذكى من الإنسان ، وأن طبقته الصوتية عالية جداً بحيث لا تتمكن آذاننا الضعيفة من سماعها . الدولفين أيضاً

صديق الإنسان، ينقذ الغريق من الغرق. يحمله على ظهره... ينشب فيه أولاً أسنانه، ثم يقذفه على ظهره... لكن، لماذا نفكر بهذه الأمور؟

■

وفي فجر مشهود استيقظت. كانت الساعة الخامسة، والفجر لم يطل بعد. تجرعت قهوة سريعة، وانطلقت كي ألقى صاحبي فنتجه نحو ساحل العشاق. بلغنا نهاية الطريق الصاعدة، وشرعنا نهبط الممر الحجري. كان الهبوط صعباً بعض الصعوبة، بسبب البلل الذي أصاب الصخور من مطر رذاذ. وكنا مثقلين بآلاتنا وأدواتنا، وما نزال مثقلي الأجفان بسبب اليقظة المبكرة.. الرذاذ خفيف لطيف... لكنا ما كدنا نبلغ الساحل الصخري حتى انهمر المطر بغزارة عجيبة. اسودت السماء. البرق يتخاطف. والبحر نفسه بدأ أبيض من المطر... قال لي صاحبي: «اجر... اجر سريعاً!». كيس الورق الذي يضم «الطعم» ذاب مثل حبة ملح وتبدد الطعم... كيس الطعام كان سيكون مصيره مماثلاً لولا أنه من «النايلون»... وصاحبي يقول: «اجر!». القميص يقطر ماء والبحر يقطر ماء، وصاحبي يسبقني، وهو ينط من صخرة إلى صخرة في خفة التيس الجبلي.

فجأة قال صاحبي «أدخل»!. المطر يزداد غزارة، والسماء تزداد اسوداداً. وندخل كهفاً يحمينا ولا يحمينا. كان ماء المطر يتسرب من هنا وهناك، بحيث لم تبق من الكهف سوى مساحة متر محصنة ضد المطر. صخور تتدحرج من أعلى الجبل، وتهبط غير بعيد عن رأسينا، ونحن نلوذ أكثر فأكثر بجدار الكهف. قلت لصاحبي: «الأفضل أن نخلع قمصاننا المبتلة ونعلقها، خشية أن نصاب ببرد أو ذبحة صدرية. أغنية المطر ما تزال تتعالى. والأسماك ما تزال تنتظرنا كي تفتح أفواهها الصغيرة الجميلة - آه يا عيني! - ونتناول طعام الفطور الذي جئنا به...

■

هذه المرة، لقينا من دهرنا عجباً!

قال صاحبي: «في الاصطياد، الهواية جيدة، لكنها ليست كل شيء. إذ تلزمها الخبرة، وحين تجتمع الهواية والخبرة فكأنما اجتمعت القدر والنار، أو القدر والغطاء. ثم ان الخبرة الحديثة غير الخبرة أيام زمان. الخبرة الحديثة تستلزم العلم. إذ لا خبرة بلا علم. وغدا سنخرج إلى الاصطياد بكامل السلاح، فلسوف يصحبنا خبير أسماك في رحلتنا. انه يعرف مواطن السمك، ونوع غذائه... وهو يعرف من اتجاه الريح مستقرات «القطعان» السمكية، ويعرف من لون الماء صنف السمك. هو يقول ان السمكة كالطفل، ومن يعرف تغذية الطفل غير أمه؟ والخبير الذي سوف يصحبنا غداً هو أبو الأسماك، إن لم نقل أمها. ثم ان «خبير» على صيغة «فعيل» تصح للمذكر والمؤنث. إذن صاحبنا الخبير هو أبو الأسماك وأمها.

انطلقنا، أولاً، إلى جسر المنصورة. لا شيء. قال الخبير: ننتقل من هذا الموضع فهو ليس من مراعي الأسماك، لأن المنطقة تجف في الجزر وتمتلىء في المد، ولهذا لا تهيىء غذاء ثابتاً للسمك بحيث يجعل من الموضع مرعى.

الرأي معقول. والشاهد في ألفية ابن مالك يقول:

خبير بنو لهب فلاتك ملغيا   مقالة لهبيٍّ إذا الريح مرت

إذن، إلى أين نمضي؟

قال الخبير: نذهب إلى «جزيرة العمال»، حيث أعرف مكاناً يتوسط السفن نصف الغارقة، محمياً من التيارات البحرية والرياح، قليل التلوث، خالياً من الصخور التي تنشب بها الصنارة، مرعى حقيقياً لقطعان السمك.

لكننا لم نكد نبلغ الجزيرة حتى رأى الخبير صديقاً له يملك قارباً يتسع لعشرين شخصاً، وهو يتهيأ للانطلاق في رحلة اصطياد. اركبوا. ركبنا. قال الصديق وهو يوزع على كل واحد منا - وكنا تسعة - «جلباً»: نحن اليوم ماضون لاصطياد «الجحش».

قال الخبير: علينا، إذن، أن نتوغل في البحر. فالجحش الجيد يكون

على مبعدة ثلاثين كيلومتراً عن الشاطىء .

سعلت ماكنة ديزل قديمة من طراز «ليستر» الانجليزي . وزحف القارب إلى خارج المياه الضحلة . لنلق المرساة . وألقى كل واحد من التسعة بـ «جلبة» . انتظار . لا شيء . لنرفع المرساة . والقارب يزحف . لنلق المرساة . وألقى كل واحد منا بـ «جلبه» . انتظار لا شيء . لنرفع المرساة . لنلق المرساة . لنلق الجلب . لنرفع الجلب . والقارب يزحف . والقارب يتوقف . والمرساة تلقى . والمرساة ترفع . والشمس ترتفع . والشمس تميل . والمساء يقبل . و «الجحش» غائب ، مثل حبيب غائب .

فجأة تسعل ماكنة الليستر القديمة ، وتهمد . . .

ويقول قائل : التف خيط الجلب على الريشة .
ويسأل سائل : وماذا نفعل . . . إننا بعيدون جداً .

ويخرج مجذافان طويلان . يقول مالك القارب : كلكم يعرف السباحة؟ لا بأس . هدفنا الوصول إلى الحوض العائم أولاً ، ثم ندبر أمرنا .

بعد جهد جهيد نبلغ الحوض العائم . كنا جياعاً منهكين محترقين تحت شمس قاسية . ظفر كل واحد منا بكسرة «روتي» من أهل الحوض . هل يأتي قارب المؤونة؟ أجابونا : ربما في الساعة التاسعة مساء . خبير الأسماك تمدد على دكة حديد في الحوض العائم . . . ونام وهو يحلم بالمراعي .

أخيراً جاء الغواص . غاص تحت القارب ، وأطلق الريشة من قبضة «الجلب» الملتفة .

علق خبير الأسماك بعد أن أيقظناه من نومته : خرجنا نصطاد ، فاصطدنا قارب صيد!

أتمنى . لي ، ولكم صيداً وفيراً في مياه عدن ، طوال عام ١٩٨٣ .

الطريق إلى يافع

«مكة ولا يافع» . . . .

هكذا قال لي الصديق حين أخبرته أنني مغادر غداً إلى يافع في زورة قصيرة. الوصول إلى مكة ليس صعباً بالطبع، هذه الأيام، لكن هذا الصديق كان يستعيد حتماً أهوال الطريق التي كان الحجيج يلقاها، في الأيام الخوالي، وهو آت إلى البيت العتيق من كل فج عميق.

أجبته: أملي أن أصل هناك واحتفالات عيد الأضحى لم تنته بعد.

رد علي: ليتك!

في صباح السفر، وكان يوم ٩/ ٩/ ١٩٨٤، جاء رفيق السفر بالسيارة، وهي محملة حتى أقصاها بخليط عجيب يبدأ من زجاجات الماء وجالونات البنزين ويكاد ينتهي بالبوصلة، بحيث لم نكد نجد نحن الثلاثة أمكنة مريحة للجلوس في «النيفا» الحمراء.

لم هذا كله يا علي؟ أذاهبون نحن إلى مكة؟

إنها يافع . . والرحلة إلى يافع رحلة!

حسناً. لكننا في محاولة اقتحام القلعة البعيدة، كان علينا أن نختار طريقين: أبين ـ رصد ـ ذي ناخب ـ لبعوس، أو لحج ـ الحبيلين ـ سيلة وطن ـ نقيل الخلا ـ لبعوس.

وبما أن لزميلنا علي منزلاً في أبين، تقرر أن يكون الانطلاق من هناك. اجتزنا «جعار» ومنطقة سد باتيس، وخرجنا إلى الأرض الفضاء، سعداء بأننا قد خلفنا وراءنا عوائد الدعة والرتابة، وانطلقنا في مغامرة أو ما يشبه المغامرة، فهذه الأرض الفضاء خالية من البشر والطير والحيوان، تقطعها، بين حين وآخر، سيارة متعجلة وغير متعجلة، أو جمل تحسبه شارداً وما هو بالشارد أكيداً.

أخيراً يلوح جوسق على جانب الطريق.. جوسق من الأغصان والأعمدة... هنا يقدم الشاي والماء، وأحياناً القات إن كنت محظوظاً. نتوقف عند الجوسق قليلاً، لنحتسي شاياً فاتر الطعم... تأتي سيارة لاندكروزر تحمل السائق وزوجته (كما أظن)... تبطيء السيارة، يحيينا السائق، ويسأل: إلى أين؟ نجيبه: إلى رصد. تنطلق اللاندكروزر، ونتبعها بعد قليل، لكنها قد توارت عن الأنظار. نحن نواصل تقدمنا (على أي حال) في أرض مرتفعة عما يمكن أن يغدو مرتعاً للسيل في أية لحظة، فالبارحة هطلت الأمطار في مكان ما، ومن يدري... ربما بلغت هذه «السيلة» الغدارة. فجأة تلوح اللاندكروزر عائدة. يتوقف السائق، يهتف بنا متعجلاً: استديروا، ارجعوا بسرعة، فالسيل قادم. لم نكد نعي كلماته، وما يتبعها من أمور، حتى كان صوت السيل يزداد ارتفاعاً، مسبوقاً بهبات ريح ساخنة في هواء كان ساكناً تماماً..

يهتف السائق متلهفاً: قلت استديروا... ارجعوا... خلاص... لا سفر اليوم... لقد انتهى الطريق.

في هذه الأثناء، كنا نستدير، السائق يسبقنا مذعوراً كالأرنب، وبغتة نبصر السيل وراءنا، هادراً، عنيفاً، يدفع أمامه أحجاراً وأشجاراً ضخمة وأغصاناً وزبداً طينياً حائل اللون... نندفع بسيارتنا في «السيلة»، وبيننا وبين السيل أمتار قليلة. نقطع السيلة لاهثين، ونبلغ نشزاً من الأرض. سائق اللاندكروزر يستريح، وتستريح أنفاسه اللاهثة. نتوقف عنده قليلاً. حسناً. ان «يافع» العصية تراوغنا، وها هي ذي قد أغلقت طريق أبين أمامنا،

فلنحاول، صباح الغد، طريق لحج ـ الحبيلين ـ سيلة وطن ـ نقيل الخلا ـ لبعوس.

■

في ١٠/ ٩ انطلقنا من عدن ـ الشيخ عثمان. وصلنا الحبيلين حيث استرحنا وأصلحنا بعض ما تعانيه سيارتنا. قبل أن نبلغ العسكرية، وبعد محطة للفحامين، واجهنا أيضاً سيل هادر. كان أناس على جانبي السيل يستريحون، يمضغون القات، ويراقبون السيارات وهي تعبر السيل مثل خيول خرافية. انحدرنا من المرتفع إلى جوار السيل. عبرت لاندكروزر محملة بالركاب الواقفين إلى الحد الأقصى وأكثر. قال لنا السائق: لا تقطعوا السيل. سيارتكم صغيرة، وأخشى أن يجرفكم السيل إذا تعطل محركها وسط الماء. إنكم لا تعرفون هذا السيل... آه للسيارات التي جرفها، وللناس الذين التهمهم!

ما العمل اذن؟

«يافع» العصية ما زالت تراوغنا، وها هي ذي تحاول أن تغلق الطريق الوحيد الباقي أمامنا...

قلنا: لنتوكل. وأحكم زميلنا، علي، شد كوفيته، وعقدها عمامة، واندفع في السيل، مستخدماً «السابع»... كما يقال. السيل يندفع، والسيارة تشق طريقها وسط رشاش واسع من الماء. قرب الضفة الأخرى أحسسنا بالماء يعمق فجأة... هل سينطفىء المحرك؟ السيارة تكاد تتوقف، والماء بنا محيط. خطوة أخيرة. خطوة واحدة. وتلامس العجلات الأمامية أرضاً صلبة، وفجأة نكون في بر الأمان. السيارة تقطر ماء، وتهتز، مثل كلب ينفض الماء، أما نحن فلم نملك إلا أن نطلق هتافاً!

■

لا بد أن يستريح المسافر عند «العسكرية»... إذ تمتد بعد «العسكرية» مباشرة، «سيلة وطن» الشهيرة التي ستبلغك أدنى «النقيل» بعد أربع ساعات

أو تزيد. وإلى العسكرية، قادمة عبر «السيلة» وصلت سيارة نيفا. قال لنا سائقها: لا تدخلوا . . . «النيفا» لن تقطع بكم السيلة . . . لقد كانت ساعات أربعاً قاسية. وهممنا أن نسأله: لكنها قطعت بك الساعات الأربع!

والحق أننا لم نلمس معنى كلماته إلا بعد أن أمسينا نحن وسط السيلة، حيث لا تراجع ولا عودة!

طيب . . . ولنفترض أن السيل داهمنا!

قال لنا رجل ونحن نهبط من العسكرية إلى «سيلة وطن»: انتبهوا! انتبهوا إلى الريح وإلى جوانب السيلة . . . عندما تحسون بهواء ساخن قادم إليكم فهذا يعني أن السيل يتبعه . . . آنذاك أنظروا إلى جوانب السيلة وابحثوا عن منفذ لسيارتكم كي تكونوا بمنأى عن خطر الانجراف، وإلا ذهبتم أنتم وسيارتكم الصغيرة هذه مع من ذهبوا وسياراتهم الكبيرة ضحايا سهلة للسيل.

ونتقدم في السيلة. كان الطريق يبدو للوهلة الأولى «معقولاً» . . . إلا أنه يتحول، فيما يشبه المباغتة، إلى شيء «غير معقول». فالسيارة «تدرج» فعلاً على صخور ضخمة، تكون أحياناً شديدة الضخامة، حتى ليخيل إليك أنك مكتشف طريق، لا مسافر . . . والمصيبة «المخيفة» أنك تدرج «فعلاً» في خط السيل. وأنك تخوض في ماء ضحضاح لا تدري متى يتحول سيلاً عرماً . . والشواهد حولك، وفي كل مكان، من أشجار مقتلعة ونصف مقتلعة، إلى صخور هاوية، إلى جروف قضمها السيل بأسنانه المائية القاسية . . .

لكن، لا بد من السير. . أهكذا إذن: مكة ولا يافع؟

أخيراً، نبلغ «يهر» . . . وهي أول مركز يافعي بعد السيلة الشهيرة. تتسم يهر بزراعتها الكثيفة وبيوتها الجميلة المنتصبة على جانبي الوادي، كما تمتاز بأن لها مركزاً إدارياً واضحاً، وأن الناس ليسوا شديدي التناثر في سكنهم، بحيث يمكن القول أن الخدمات تقدم في «يهر» بيسر أوضح من سواها. كان الوقت عصراً، وثمت فتيان يلعبون كرة القدم قرب دائرة البريد، ورجال جالسون هنا وهناك مع القات والقهوة اليافعية.

علينا أن نواصل سيرنا . . . وإن كانت فكرة المبيت في «يهر» مغرية.

لكن الطريق مغلقة . . . شاحنات عديدة متوقفة . وسائقوها يرتاحون على الأحجار وهم يمضغون القات. قالوا لنا : الطريق صعبة ، والنقيل أصعب . . . لقد هطلت الأمطار ودحرجت الأحجار على امتداد النقيل . . . وستبلغون النقيل في العتمة ، بينما صعوده عسير حتى في النهار، ثم أنكم جئتم بهذه السيارة الصغيرة ، والعجيب أنها أوصلتكم حتى هنا!

ثانية . . . ما العمل؟

اجتزنا موقف الشاحنات قليلاً ، وانتحينا جانباً من «الطريق» ، واستعددنا للمبيت في العراء البارد ، بينما كان النقيل ينتصب أمامنا ، ملتوياً صاعداً خطراً ، حتى ليكاد يبلغ القمر. اسمه «نقيل الخلا» ، لكنني سميته «نقيل القمر»! مرت سيارة لاندكروزر. قال لنا ركابها : لنترافق سوياً في النقيل . . . يشجع أحدنا الآخر. . . لكننا كنا متهيبين ، وفضلنا الانتظار إلى الصباح .

بعد قليل توقفت قربنا ، أسفل النقيل ، سيارتان . كان من فيها قوماً كراماً قادمين من عدن : ماذا؟ أتخافون النقيل؟ لنترافق . . . سنكون قافلة فدائية ، وستكون سيارتكم طليعتها . وهكذا أخذنا ندرج ، صعداً ، في مشتبك الأحجار الذي اسمه النقيل .

■

الأهالي ، في عمل تطوعي ضخم ، هم الذين شقوا هذا الطريق في الجبل . . .

حدثني أحمد ، فيما بعد ، عن الطريق والسيلة والمخاطر ، وكيف عمل الناس في شقه ، كيف رصفوه ، وكيف أقاموا حواجز الحجر على جوانبه المحفوفة بالخطر . . . لكن الأمطارتخربه ، باستمرار . وأحياناً تتحرك صخرة ضخمة من مكانها في الجبل ، وتنتصب مهددة بالسقوط مثل وحش خرافي . قال لي السكرتير الثاني لمنظمة الحزب في لبعوس : كنانضطر إلى قصف هذه الصخرة الضخمة بالمدافع حفاظاً على أرواح الناس . . .

■

ما نزال نعالج مرقاة النقيل الصعبة . . .

وقريباً سوف نبلغ القمر المطل، بل سنتجاوزه.

«نقيل القمر» اذن...

والبيوت في السفوح والقمم تائهة، تياهة في الليل البهيم بأضوائها، ونوافذها الضيقة الجميلة. والبرد يزداد. و «النيفا» ماضية في عنادها.

قريباً نبدأ الانحدار نحو السفح الآخر.

فجأة تبزغ «لبعوس» كأنها نهضت من عالم الغرابة.

أترانا بلغنا الهدف؟

لم أزل غير مصدق...

قلب يافع

تبدو «يافع» كلمة فضفاضة إذا ابتعدنا بها عن الأنثروبولوجيا والجغرافيا الطبيعية، فأنت لا تكاد تخرج من زنجبار حتى تدخل في بعضها، كما أن «الحبيلين» ليست سوى نقطة وصل بين يافع والحوطة . . . وهناك التباعد بين المراكز الذي يزيد الفضفضة اتساعاً، فالمسافة بين «الحد» و «رصد» كأنها المسافة بين السماء والأرض، والنقيل، نقيل القمر، وحده، كاف ليجعل كلاً من «ذي ناخب» و «يهر» إمارتين مستقلتين!

غير أن الأمر مختلف تماماً عما يبدو ظاهراً.

فبالرغم من تباعد المراكز والمناطق عن بعضها (وهو أمر ستذلله طرق المواصلات الحديثة في المستقبل)، إلا أن المرء يلمس نوعاً من التجانس العجيب في العادات والتقاليد ونمط الحياة والمهن واللباس والنتاج الثقافي الشعبي من غناء ورقص وتفاصيل احتفالات وسواها.

إن هذا التجانس ليس افتراضاً نبحث في الفولكلور عن تجلياته بغية إثبات الافتراض، بل هو مؤسس على قاعدة اقتصادية/ اجتماعية واضحة المعالم، ضاربة الجذور في التاريخ. فالملكية الصغيرة للأرض (المستمرة في التضاؤل بسبب كثرة الورثة) هي الشكل السائد لملكية الأرض الزراعية، مع ما يفرضه هذا الشكل من تكافؤ في العلائق الاجتماعية. وهنا يكون من الضروري الاشارة إلى أن «الأرض الزراعية» هي عبارة ذات مبالغة ما، فالناس في يافع

«يخلقون» هذه الأرض الزراعية فعلاً. ان الجبال الصخرية قاسية عنيدة، ويتعين على المرء أن يمهد الصخر الجبلي، وينقل إليه التراب، ويقيم المدرجات والمصدات، ويدبر الحصول على الماء، في ظروف مشقة وكدح.. كي يظفر بأرض زراعية محدودة المساحة، محدودة الغلة.

هذا العمل الزراعي، ذو الجوانب المتعددة، أدخل أفراد الأسرة جميعاً في العملية الإنتاجية، الرجال والنساء والصبيان، ولهذا نلاحظ مشاركة كثيفة للمرأة في مختلف الأعمال، من السقاية والاعتناء بالمزروعات إلى الإدارة الشاملة الكاملة للمنزل والأسرة، وبخاصة حين يكون رب الأسرة غائباً، وهو ما يحدث كثيراً.

من هنا جاءت المكانة العالية للمرأة، ومنزلة الاحترام التي تحظى بها من لدن الرجال. المرأة تتمتع بشخصية قوية ذات دور وظيفي عال في المجتمع، وقد اندفعت إلى التعليم اثر فتح المدارس بعد الاستقلال، وكان عدد الدارسات حوالي ثلاثة عشر ألفاً، وبلغت نسبة الدارسات ٥٥ بالمائة بينما نسبة الدارسين ٤٥ بالمائة، إلا أن عدد الدارسات انخفض فيما بعد من ثلاثة عشر ألفاً إلى أربعة آلاف وثمانمائة، بسبب تسربهن من المدارس، نظراً للزواج المبكر والحاجة إليهن في الأعمال الزراعية والمنزلية، ومن تقاليد الأسرة أن المرأة المتزوجة تظل منصرفة إلى أعمال الأسرة ومشاغلها، ولهذا يكون الانقطاع عن الدراسة، بعد الزواج، أمراً أوتوماتيكياً، إضافة إلى أن الوظائف المتاحة للشابة الخريجة تكاد تنحصر في التعليم والصحة. وكانت الفتاة التي تكمل المدرسة الموحدة تضطر إلى مواصلة دراستها (قبل افتتاح ثانوية لبعوس مثلاً) في لحج، وقليلات جداً من كن يواصلن الدراسة الثانوية، لأسباب اجتماعية واضحة. وحتى الآن تبرز ضرورة أن تفتتح ثانوية في مركز يهر كي يتسنى للفتيات إتمام دراستهن في المركز ذاته.

إن الاقبال على التعليم ظاهرة ملموسة، وقد تم تشييد ٧٢ مدرسة ابتدائية بمبادرات الأهالي. ويتبرع الناس بالأرض العزيزة للبناية والساحة المدرسيتين، ويقومون بالعمل التطوعي، وقد شاهدت مدرسة ذات عشرة صفوف وهي تبنى بالعمل التطوعي. ■

يجرنا حديث التعليم إلى حديث الثقافة.

«لبعوس» مثلاً، ليس فيها دار سينما، أو قاعة للأنشطة الثقافية والفنية. وسيارة السينما المتنقلة أمست الآن ذكرى. وليس في المركز مكتبة أو فرع لمؤسسة ١٤ أكتوبر للتوزيع، بل ان «الثوري» تفتقر إلى مراسل في المديرية، ولم تصل الصحف والمجلات إلا بعد أن أخذ أحد الأشخاص الأمر على عاتقه، خارج القطاع العام... المهم أن الصحف والمجلات قد وصلت بالفعل.

تساءل أحدنا بعد أن رأى الاحتفالات البهيجة أيام عيد الأضحى:

لم لم تشتركوا في «مهرجان الأعراس اليمنية»؟

كان الرد: وكيف نشترك؟ من الصعب (اجتماعياً) نقل عدد من الفتيات إلى عدن، وليس عندنا فرقة أو مشروع فرقة فولكلورية.. كانت لدينا قبل أعوام فرقة طلبةوطالبات، لكن الطالبات تزوجن، ولم يعد بإمكانهن الاسهام في الفعاليات العامة.. هكذا تلاشت الفرقة. نحن نريد فرقة ومدرباً. والنشاط الرياضي؟

الشباب يحبون الرياضة.. كرة القدم على سبيل المثال. وحتى الآن لا يوجد ناد رياضي. لكننا فكرنا في الأمر طويلاً، وتبلور مشروع النادي، وقريباً يبدأ العمل في البناء. نحن نعول على النادي الرياضي كثيراً، ونأمل في أن يكون بؤرة أنشطة رياضية وثقافية واجتماعية.

ألا توجد نواة مكتبة عامة؟

في الثانوية فقط. ونحن بحاجة ماسة إلى الكتب. لكن لا أحد يصلنا، أو يمد لنا يد العون في هذا المجال.

■

والكهرباء؟ الكهرباء للإنارة فقط. في «لبعوس» يعمل التيار الكهربائي من الساعة السادسة مساء حتى الثانية عشرة.

في مركز «الحد» تبرع المواطنون بمبلغ ١٤٠ ألف دينار لمشروع الكهرباء.

والزراعة؟

تشكل الذرة والبن والفاكهة (مع القات) المحاصيل الأساسية. الذرة

للخبز والعصيدة. البن للاستهلاك المحلي والوطني. والفاكهة تكاد تقتصر على الاستهلاك المحلي.

إن شجرة البن هي الركيزة الأشد ثباتاً في العملية الاقتصادية الزراعية، وقد لاحظت توسعاً في زراعتها بدليل الغرسات الفتية.

لكن الشجرة مكلفة، تحتاج إلى عناية دائمة، وسقاية منتظمة.. وعلى زارعها أن ينتظر سنوات خمساً قبل أن تبدأ الغلة. أحياناً تكون الحاجة إلى الماء شديدة، ويكون المزارع بين اختيارين:

إما أن يترك الشجرة الغالية تموت ظمأ، أو يشتري صهريج الماء المنقول بثمن باهظ يحتار كيف يدبره.

ويشدد الكثير ممن تحدثت معهم على أن الطريقة الفضلى لدعم زراعة البن، هي المساعدة في إقامة السدود وحفر الآبار. لقد جربت حوافز معينة مثل: من يزرع غرسة يأخذ ديناراً. هذا صحيح للوهلة الأولى، إلا أن غرسة البن ـ كما أسلفت ـ تتطلب إنفاقاً مستمراً مدة خمس سنوات بدون مردود..

وماذا يفعل الدينار الواحد طيلة السنوات الخمس؟

المنطقة غنية بالمياه، الجوفية، والسطحية.

لكن جهداً أكبر ينبغي أن يوجه إلى إقامة السدود وحفر الآبار، وهو جهد استراتيجي في نظري.

وبعد، فهناك مسألة يتحدث بها الناس، وهي ارتفاع أسعار البن المحلي (نظراً لارتفاع كلفته) مقارنة بالبن المستورد. صحيح أن البن اليافعي من أفخر الأنواع، وربما عمد الباعة إلى خلطه بالبن البرازيلي، وباعوه باعتباره يافعياً.. هذا صحيح، إلا أن الأمر الواقع يظل قائماً، وهو أن سعره ليس تنافسياً إزاء البن المستورد. فهل من حل؟

تشكل المواصلات، بين المديرية وبقية الجمهورية، وبين مراكز المديرية نفسها، أمراً بالغ الأهمية، بالنسبة للتطور الاقتصادي والاجتماعي، الراهن منه، واللاحق.

يمكن القول أن شق الطرقات الترابية قد ربط كل قرى المديرية تقريباً، وهو دليل رائع على حماسة الناس للعمل الطوعي التعاوني، خاصة إذا أخذنا طبيعة الأرض بنظر الاعتبار.

لكن المشروع المقترح لطريق الحبيلين ـ لبعوس ـ الحد، هو الأمل الذي تحول إلى هاجس في أفئدة الناس، وإلى مرارة ما.

■

في المقر السابق لجبهة الاصلاح اليافعية (دار ضيافة الآن)، اخترت النوم مع الناس في القاعة الكبيرة، بدلاً من الذهاب إلى احدى الغرف المعدة.

في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، سمعت من ينام على مقربة مني يتحدث في نومه: «دامر»... «دامر»... دامر يافع!

أعرف أن الرجل ذو علاقة بأمور كهذه.

في الصباح أيقظته: انهض يا عزيزي!

فتح عينيه. قلت له: انهض... إن «الدامر» جاهز...

■

في رأيي أن المديرية تصلح لأن تغدو، في أحد الأيام، المصيف الأجمل والأوسع في الجمهورية.

فهذه الجبال الشاهقة، ذات السفوح والوديان المخضرة والبيوت اليمانية العريقة.. ثروة حقيقية.

وبالامكان تنشيط البحث عن وسائل لإقامة بنية تحتية من الخدمات السياحية تعتمد مبدأ «الموتيل» و«البيت» لا الفندق الباذخ الباهظ في كلفته. المديرية مهيأة لتكون مصيفاً شعبياً.

■

هذا الأمر، وسواه كثير، مرتبط إلى حد كبير بمشروع الطريق، مرتبط بـ «الدامر» الذي كان يهذي به صاحبنا ليلاً، مثلما يفكر به ويخطط له، نهاراً...

وأكيد أن للصديق الكريم المهندس حيدر أبو بكر العطاس همومه المتصلة بهذا «الدامر»... وهو الذي خطط له، وبذل ما يستطيع بغية إنجازه.

■

سقى الله أيام الكويت وأهلها

كان ذلك في العام ١٩٥٧، العمر ثلاث وعشرون سنة، أما عمر النفط في الكويت آنذاك فلم يكن قد تعدّى العقد الأول إلا قليلاً. في تلك الأيام كان أهل البصرة (البصرة بخاصة) لا يشعرون وهم ينتقلون إلى الكويت بأنهم يغادرون إلى أرض أخرى، فثمت قرابة الأرض ووشيجة النسب ودروب النهر والبحر والرمل، وثمة النخل يشتري الكويتي بستانه على شط العرب، ويقيم منزلاً متواضعاً، يقضي فيه ما شاء من أيام، وربما فضّل هناءة عيش هنا بين الخضرة والماء، على هناءة عيش هناك في الكويت حيث مقتضيات الرفاه الحديث لم تكن بلغت ما بلغته، ولن أنسى أنني تعلمت استعمال بندقية الصيد حين زرنا أسرة كويتية اتخذت مسكنها في بستان على شط العرب.

وفي السيف، (بكسر السين) سيف البصرة، كان منزل عال، ذو شناشيل وأبواب خشب مخرمة (لا أدري ماذا حلّ به الآن)، لكننا ـ ونحن فتيان ـ كنا نمرّ به مسحورين، فهو منزل الأمير الصغير، الأمير الذي لم نكن نراه إلا مصادفة، ولم نكن ـ ونحن في تلك السن ـ لنتصور أنه يتصرف أو يتحدث مثلنا، مثل سائر الناس، لكننا في أحد الأيام، ظفرنا بالأمير الصغير، يشتري دفاتر وأقلاماً من محل قرطاسية قريب. قلنا انها فرصتنا، فرصة الامساك بالطائر قبل أن يعود إلى منزله العالي ذي الشناشيل وأبواب الخشب، وفوجئنا به يرتبك ويتلعثم ويحمّر خجلاً حين بادرنا متحدثين. عاد الطائر إلى منزله، وخلفه

رجل يحمل الدفاتر والأقلام. آخر مرة رأينا فيها الأمير الصغير كانت في ضحى رطب. كان الأمير الصغيرفي سيارة فارهة انطلقت به بعيداً عن السيف، باتجاه باب الزبير. سألنا صاحب محل القرطاسية عن رحلة الطائر، فقال أنه لن يعود. لقد ذهب إلى الكويت. . ألا تعرفون أنه أمير، أمير حقيقي؟

زورتي الأخيرة لمدينتي (البصرة) كانت قبل تسع سنوات. ذهبت إلى أبي الخصيب، حيث كان بيت جدي، ولم أذهب إلى السيف. أربعة عقود انطوت منذ غادر الأمير الصغير منزل السيف العالي. لم أعْنَ بالسؤال عنه، فيما بعد. ولست أدري إن كان ما يزال يرتبك ويتلعثم ويحمرّ خجلاً حين يبادره أحدٌ متحدثاً.

■

قلت كان ذلك في العام ١٩٥٧، العمر ثلاث وعشرون سنة، وأنا في الكويت. لا غرابة في الأمر. الغرابة الوحيدة أنني جئت الكويت بالطائرة لا بالسيارة، ومن دمشق لا من البصرة. القصة من أولها إلى آخرها، بسيطة، بالبساطة التي كنا نأخذ فيها امور للمشاركة - سراً - في مهرجان شبيبة وطلبة أقيم صيف ١٩٥٧ بموسكو. انتهى المهرجان، وطويت أعلامه وأيامه ولياليه، وعدنا لتذهب السكرة وتجيء الفكرة. . لقد تكشفت للسلطات العراقية أسماء من ذهبوا إلى المهرجان، وصارت العودة إلى العراق مستحيلة. كان بيننا من عاد ليجد نفسه رأساً في السجن. هكذا بقيت في دمشق، في دار شامية عتيقة خلف الجامع الأموي ذات نافورة وعريشة عنب. منزل جماعة سمّيته «الكومونة». الأيام تمضي، والزملاء تتوزعهم البلدان، والقصبات السورية، ابتداء من منابع بردى، وانتهاء بجسر الشغور وقرقانية. كانت للواحد منا ليرتان في اليوم، منها الصحيفة ولفّة الفلافل وشاي المقهى. . قلت: لم لا أذهب إلى الكويت؟ سأعمل مدرساً. . أوراقي معي، والبصرة قريبة، ولي في الكويت أقرباء وأحبّاء. دبّرت تذكرة الطائرة، وعلى الطائر الميمون. لا أستطيع الآن أن أتذكر المطار القديم، ولا متى هبطت الطائرة. استقبلني صديقٌ كريمٌ - تقطّعت بيننا الأسباب فيما بعد -

ومضينا إلى «السالمية». . سمعت الكثير عن «السالمية» في السنوات الأخيرة، لكنها، آنذاك، كانت في بداية البداية. كان بإمكانك ـ مثلاً ـ أن تأخذ حصيراً من البيت، وتتمشى قليلاً، وتنام على الشاطىء، حتى الصباح، مهدهداً بحركة الموج الخفيفة، والنسيم. . كأن الشاطىء كله ملكك. الليالي البحرية تلك ما يزال لها طعمها، و «سالمية» تلك الأيام ضاعت إلا من الذاكرة.

بعد «السالمية»، أقمت في «حَوَلّي» مع أصدقاء، وزملاء دراسة، معظمهم من الزبير. بعضهم مغن، وبعضهم عازف. وكلهم متعلق بالثقافة والفن على اختلاف محبب في المشارب والأهواء والمنازع. كانوا يتناولون وجباتهم معاً، وكان «جاسم» طباخهم، ماهراً في الرز والسمك وضبط الايقاع. أحياناً كان يذهب إلى البصرة، فيبلغ والدتي السلام، ويعود ليبلغني منها سلاماً عزيزاً.

■

من «حَوَلّي» كانت مشاويري تبدأ، وظلت إليها تنتهي، أسابيع. كانت مشاوير بحث عن عمل (العجيب أن المشاوير لم تنته حتى اليوم)، لكنها في الكويت كانت أقل وطأة، فالأصدقاء والأحبّاء كثار، والبيوت كثيرة. وحين تعود ظهراً، بعد مشوار خائب، تجد من يخفف عنك خيبتك، ويفتح أبواباً موصدة، ويقترح منازه ومنازل، وتجد قائلاً يقول بأنه سيصحبك إلى هذه الدائرة أو تلك، إذ له فيها معرفة وإلفة، حتى إذا تناولت وجبتك، وقضيت حق قائلتك، سمعت من الصوت والنغم ما يسلّيك وينسيك. في تلك الأيام التقيت خالد المسعود (كان مدير مدرسة)، وأشهد أنه كان لي عوناً وسنداً. كنت أقضي أوقات راحة في مدرسته، وأمضي معه إلى البادية، حيث الخيمة المنصوبة، والليالي الرائقة. خالد المسعود هو الذي مهّد لي سبيل العمل مدرساً في مدارس الكويت (كان الأستاذ عبدالعزيز حسين مدير التربية)، وقد تم تعييني في مدرسة الفروانية المتوسطة. أتذكر أن الفروانية كان اسماً غريباً. كلنا يسمي المدرسة والقرية، الدوغة. . لمَ الفروانية إذن؟ الدوغة على مشارف الصحراء. وكنا ثلاثة نسكن بيتاً مستأجراً قرب المدرسة:

فلسطيني وسوري وعراقي. في باحة المنزل الرملية، بئر نمتحها، ونستخدم ماءها للغسيل، ماء الشرب توزعه سيارة صهريج. الأولاد يأتوننا بالضباب (جمع ضب) واليرابيع، ويتفننون في سرد مغامراتهم لاصطياد هذه الزواحف الصامدة. كانوا يجيئون بالضب، وفي اليوم التالي لا نراه، إذ كان يحفر مسربه بطريقة عجيبة ليخرج من سور البيت، عائداً إلى الصحراء الملتصقة بالقرية. كان في الدوغة جزار واحد، ولا أتذكر أن فيها سوقاً. مرة زارني أستاذي الراحل د. فيصل السامر في ذلك البيت، كانت المفاجأة حقيقية. كنت أعرف أنه يعمل في جامعة الكويت الوليد، لكني لم أكن أتوقع أنه يعرف مسكني على أطراف الصحراء.

في العام الماضي، جاء الشاعر فائق عبدالجليل إلى عدن، ضمن أسبوع ثقافي كويتي سألته عن الدوغة (الفروانية).. فحدّثني عجباً. وكان عجبه أكبر حين عرف أني كنت مدرّساً هناك، وكان عجبي أكبر حين أخبرني أنه كان تلميذاً في تلك المدرسة التي أدارها الأخ خالد المسعود.

■

لا أتذكر كم كان مرتبي! ربما ١٠٠٠ روبية (لم يكن الدينار الكويتي قد ولد بعد، وكان التعامل بالروبية الهندية!)، كانت الأشياء بالغة الرخص: إيجار البيت ـ مثلاً ـ كان خمسين روبية نتقاسمها نحن الثلاثة. مع مرور الأشهر تضخم حجم جيبي بسبب الروبيات، حتى قال لي د. فيصل السامر: ألا تعرف أن في البلد مصارف؟ إذهب إلى أحدها وافتح حساباً لتريح جيبك. وكان أن فتحت أول حساب في حياتي، في «البنك البريطاني للشرق الأوسط»، وقد قُدّر لهذا الحساب المتواضع أن ينقل إلى فرع البنك بالبصرة ويساعدني في الزواج! لم تكن في البيت مروحة، لهذا اعتدت الذهاب إلى غرفة الطبيب بالمدرسة (الطبيب يزور المدرسة مرتين في الأسبوع)، أتمدد على سرير الفحص العالي، فأرى مروحة السقف دانية.. أنام عميقاً، لأستيقظ متخشب الأطراف من هواء المروحة القريبة.

مكيفة الهواء أيضاً، تمتعتُ ببردها، في الكويت أولاً. وللمكيفة

حكايتها. أيام العطل لم نكن نعرف كيف نقضيها أو نقضي عليها. وحين تقترب عطلة نهاية الأسبوع يغدو أحدنا مثل طائر كسير الجناح في القيظ اللاهب. عمتي (رحمها الله) كانت في الكويت. ابنتها آمنة متزوجة في أسرة كويتية. ابنها عبدالله ذو سيارة عجيبة عركتها الصدمات والكدمات، كان يقودها كمن يمتطي جواداً جامحاً، وحين يقترب من منزلي بالدوغة أضع يدي على قلبي خوف انهدام سور البيت. من أي طراز كانت سيارته؟.. لا أدري.. لكن الثابت لديّ، حتى الآن، أنها بين الروفر والمصفحة.. يطلق بوقها الداوي فأسرع إليه، ليعود بي إلى المدينة حيث أرى عمتي، وآكل طعامها.. ظلت الأمور هكذا حتى جاءني ذات يوم صديقٌ لي، رفيق طفولة.. قال لي: لنمض الآن! سألته: إلى أين؟ أجاب: إلى الأحمدي.. إني أعمل هناك منذ شهر. نبلغ الأحمدي.. عجباً! حدائق ودور سينما ومخازن ونساء سوافر.. أين نحن من الدوغة؟ ويتجه بي إلى أحد أحياء الأحمدي. عبارة بالانجليزية تشير إلى مساكن العزّاب. وندخل مسكنه. كل شيء جديد. أنيق. حديث. فراش اسفنج. ثلاجة. وبرودة سابغة. سألته: اين المروحة؟ ان مروحة الدوغة لا تأتي إلا بهواء ساخن. وأنت في مسكن ثلجي، ولا حتى مروحة! يومها كانت مكيفة الهواء اكتشافاً!

هكذا صار الأحمدي محجتي الأسبوعية.

الطريق إلى الأحمدي يجعل الدوغة إلى يمينه، و «أبرق خيطان» إلى يساره. كانت أبرق خيطان بيوتاً متناثرة مشيدة من طابوق اسمنت خشن. لم أشعر بما يدفعني إلى زيارتها، وكنت أستغرب أحياناً فأتساءل: لماذا يبني الناس بيوتهم في هذا الفضاء العاري؟

■

شيئاً فشيئاً بدأت الكويت تدخل في العروق. لم تعد مكان عمل فقط. وتعرفت إلى إخوة وهبوا أسماءهم معنى، على تفاوت واختلاف. علي السبتي كان في أول مسيرته الشعرية (إلى أين وصلت الآن؟). غسان كنفاني، ناجي علوش، د. أحمد الخطيب. خالد سعود الزيد. عبد الرزاق البصير. ثمت

نشاط ثقافي، وجدل فعل، ونادٍ نؤمّه يقيم أمسيات . .

لبنان ملتهب، وينزل مشاة البحرية إلى شواطئه . في المدينة اجتماعات عامة . وفي الجامعة ضجة لا تنقطع . وتبدأ حملة تبرعات شعبية واسعة لمساعدة لبنان ونقل المتطوعين . وفي المدرسة كان التلاميذ يسألونني : متى تتخلصون من نوري السعيد؟ لم يكن السؤال على ألسنة التلامذة وحدهم، كان على كل لسان بحيث كنت أعاني حرجاً ما بعده من حرج وأنا أعيد الأسطوانة الطويلة لمستلزمات التخلص من نوري السعيد، والظروف : ذاتيّها وموضوعيّها، إلى آخر ما تلقيناه من رطانة نجهلها نحن قبل غيرنا .

في أحد الأيام سألني تلميذ نابه ماكرٌ إن كان «الكعيبر» قادرين على إزاحة نوري السعيد. كان في عينيه بريق سخرية وهو يلقي سؤاله بجدٍ متكلف . الحقّ أنني لم أكن أعرف معنى كلمة «كعيبر»، ومن جانبه قام بجهد واضح في محاولة إفهامي المعنى، بدون جدوى .

التقيت، فيما بعد، صديقاً، وسألته عن الكلمة . قال لي ان أهل الكويت يطلقونها على الفلاحين العراقيين المهاجرين إلى الكويت تسللاً أو فيما يشبه التسلل، وأن هؤلاء هم من فلاحي الجنوب والوسط بخاصة، أولئك الذين يعتمرون عقالاً ثخيناً (يستخدم للضرب أحياناً) وكوفية زرقاء .

ولم يتأخر الأمر طويلاً، ففي أواسط تموز ١٩٥٨ أزاح أحد أبناء «الكعيبر» نوري السعيد بضربة واحدة . كنت آنذاك في القاهرة، وتمنيت أن أرى تلميذي . . لكنه عرف الجواب أكيداً .

وأعود إلى الكويت، أحزم (حقائبي؟) حقيبتي الوحيدة، وأودع أصدقاء . قيل لي : إبقَ أياماً لتتسلم مرتبات العطلة المتبقية . لم أنتظر، اجتزت بالعبدلي، وفي مخفر سفوان كان ضابط شاب من ضباط الاحتياط يتولى تسيير الأمور . افتح حقيبتك . ماذا بها؟ كتب؟ أغلق حقيبتك .

كلما حللت بقاعة الترانزيت، في مطار الكويت، هذه السنوات الأخيرة، مرّ أمام عيني، بسرعة خاطفة، شريط الحياة هذا . في احدى المرات

كنت مرهقاً تماماً، وكان عليّ أن أنتظر ست عشرة ساعة في قاعة الترانزيت. رجوت المسؤول أن أمضي ليلة في الكويت. . اعتذر بسبب التأشيرة. حسناً، لكن الكويت ليست بهذا البعد، عني في الأقل.

■

من يوميات صنعاء

الدمع؟ . . لماذا . . . ؟

يكاد عام ينقضي على رؤيتي صنعاء في زورة أولى .

والحق أن تلك الأيام الثلاثة التي أمضيتها في المدينة منحتني شيئاً عزيزاً، إذ أكملت لديّ صورة للتاريخ العربي ما كانت لتكتمل لولاها .

ثمت ما يدفعني إلى القول إن صنعاء ليست «مدينة» . . أعني أنها ليست انتشاراً في الحجر القائم، والطريق الممتد، هذا الانتشار الذي يرادف في عوائد أذهاننا كلمة «مدينة» . . صنعاء ليست إنتشاراً . إنها التمام والتئام يريدان العمق ويبلغانه . حتى كأن الأدوار الأثني عشر للمباني القريبة من الجامع الكبير تغور في الأسطورة بقدر ما هي مصعدة إلى السماء ذات الصفاء العجيب . لكن الأسطورة هنا، غير الأسطورة هناك، وبين أروى الصليحية وسيف بن ذي يزن وشيج صلب، هو هذا النسر الحجر الذي انتقل من الرايات والدروع القديمة إلى جدران الجامع الكبير .

ومع الأسطورة وتهاويلها، يكون الليل سيداً، أنت في صنعاء (أأقول القديمة؟) تخفف الوطء، متمهلاً، في دروب تكاد تأخذك إلى معناك، إلى عروقك المنسية، فيضطرب بين أضلاعك الطائر، وإن أنفاسك لتتلاحق . . . وإن في عينيك لندى أو ما هو كالندى . . . الدمع؟ لماذا؟ . .

نسر سيف بن ذي يزن يرتفع من حجر في جدار الجامع الكبير، وترتفع معه سحابة متوهجة من رايات وصندل ولبان . . . ها هي ذي الشمس تغيب وأمامك وحولك يتألق الزجاج الملون في زخرف عريق. المدينة العتيقة ترتدي أسطورتها . . .

أية نافذة كانت أمام عيني وضاح اليمن؟
وأي باب سيدخل؟

■

في الطريق إلى حجة

يقول لك الصديق الكريم: «اليوم نذهب إلى حجة». ويضيف، ان ترودو رئيس الوزراء الكندي قال حين زار صنعاء: أريد أن أرى حجة . . .

حسناً. ما بالنا نحن إذن؟ نخرج من صنعاء لنبلغ مشارفها. هنا أوقف الصديق الكريم السيارة، ودعانا إلى النزول. قال: «تفرجوا على هذه البساتين». ونسأل: «أي شجر هذا؟». يجيب: القات . . . هذه الأرض كانت أعناباً وبنّا . . . لكن القات يزحف، ومن يدري، فربما بلغ بساتين صنعاء ذاتها!

وندخل في بستان القات، نتحسس الوريقات السحرية، ونمضع أثنتين أو ثلاثاً، وتدور في أذهاننا كل تلك المعادلات الاقتصادية والاجتماعية عن الوقت المقتول، وإنتاجية الريف، وتبعية المدينة. الريف يأكل المدينة مستنزفاً سيولتها النقدية، والريف يأكل نفسه مستنزفاً أرضه بغلة شيطانية لا تسمن ولا تغني من جوع . . بينما الغذاء مستورد.

وتقول: لا عليك من هذا وأنت في نشوة التاريخ والأماكن.

وتمضي بك السيارة ساعة أو أقل قليلاً، فإذا بك أمام بلاد مسحورة. كل ما حولك قلاع. قلاع حجر ذات أسوار وأبراج ومزاغل. قلاع لا تشبهها قلاع في الدنيا، حتى لتبدو منشآت العصر الوسيط في أوروبا تافهة بالمقايسة.

إن القلعة اليمانية ليست مظهراً ضخماً للسلطة والقهر، تشرف بهولها على أكواخ أقنان.

القلعة اليمانية منتفع يومي للناس، منزل احتاط للطبيعة والظرف، ووهب حيطته هذه جمالاً من حجر وبياض ناصع ومرتبع خضرة. ألم تردد طويلاً: كل منزل.. قصيدة. وكل شجرة.. قات!

■

مدارج السماء

في «حجة» تبلغ الأرض، في تشوّفها العظيم، السماء.

«الجبال بعيدة، حتى ليظن المرء أنه لن يبلغها أبداً»، كما يقول ناظم حكمت.

لكن قنن الجبال بعيدة هنا، جد بعيدة... فكيف بلغها المرء؟

من أقدام الجبل العريضة، إلى القنة السامقة حيث الضباب أزرق - أخضر...

كيف ارتفعت هذه المدرجات، المستدقة، الدقيقة كشغل النمل؟ كيف ارتفعت هذه المدرجات، وكيف استوت شجراً وثمراً ومنازل في النجم؟

والدروب العجيبة التي تصل بين الأرض والسماء، هذه المعارج المعاجز من مهّدها وسوّاها؟

لكنك في طرقات «حجة» ترى الناس الذين مهدوها وسوّوها... لقد هبطوا إلى المدينة في «الجمعة»... بشرٌ مثلك... أناسٌ قهروا الطبيعة، واستنبتوا بذرة معطاء للعزيمة والدقة والمثابرة. إنهم في السوق الآن، وسوف يؤدون صلاة الجمعة بعد حين، ليسلكوا من جديد، معارجهم إلى السماء. هؤلاء الناس المتواضعون الدؤوبون الشجعان هم عُدة اليمن وكنزها، مثلما كانوا دائماً عبر مسيرة التاريخ العربي.

وفي «القلعة» المطلة على المدينة، القلعة التي كانت سجناً، تعرف صورة أخرى للناس المتواضعين الدؤوبين الشجعان، الذين ظلوا يحلمون، حتى

في أقسى الأوقات وأصعبها، حتى وهم مغلولون في هذه القلعة، بيمن أجمل وأسعد. . .

٢٠/ ١٢/ ١٩٨٣ م

محاولات في مذاق النص

الروليت الرُّوسي

من شاهدوا فيلم «صائد الغزلان» الذي تدور أحداثه في الحرب الفيتنامية وحولها، فلا بد أنهم قد أصيبوا بالرهبة وهم يتابعون جلسات «الروليت الروسي» في تلك المقمرة البشعة التي لا يمكن أن توصف إلا بأنها كابوس. ففي مكان غير بعيد عن «سايغون»، تقوم دار القمار هذه، ويقوم على حراستها حراس أشداء. الدخول إليها يكلف غالياً. والخروج منها يكلف أغلى. بل ربما كلف المرء حياته. فلا يخرج منها إلا جثة مضرجة بالدم نتيجة رصاصة واحدة في الرأس. دار القمار السايغونية هذه «متخصصة» بالروليت الروسي:

يجلس اللاعبان متقابلين، وبينهما طاولة. يلف كل من اللاعبين رأسه بعصابة حمراء. يأتي «الوسيط» بمسدس ذي مخزن دوار. يتأكد الجميع أن المخزن فارغ. آنذاك يدخل الوسيط رصاصة واحدة فقط في المخزن، ثم يدير المخزن بسرعة، فلا يعرف أحد موضع الرصاصة. يقدم الوسيط المسدس إلى أحد اللاعبين. يأخذ اللاعب المسدس.

يضع الفوهة على صدغه. ثم يضغط على الزناد. ان احتمال الموت وارد تماماً. وبعملية حسابية بسيطة. فإن كان المخزن يتسع لتسع إطلاقات مثلاً، كان احتمال الموت بنسبة واحد إلى تسعة. وإن كان يتسع لست إطلاقات، كان الاحتمال بنسبة واحد إلى ستة. فإذا نجا اللاعب الأول من الموت الماثل، انتقل المسدس إلى اللاعب المقابل الذي يضع هو الآخر الفوهة على صدغه، ثم يضغط

على الزناد.. وتستمر اللعبة المرعبة، يستمر الروليت الروسي، حتى تخترق الرصاصة المنتظرة صدغ أحد اللاعبين، فيسقط مضرجاً بدمه، بين صيحات المراهنين والمقامرين.. ليجلس مكانه لاعب آخر.. والروليت الروسي يدور... أحياناً يزداد مبلغ المال المقامر عليه زيادة هائلة، تتدرج مع عدد الرصاصات الموضوعة في مخزن المسدس. قد توضع رصاصتان، وربما ثلاث... هنا يكون احتمال الموت أقوى. بنسبة واحد إلى ثلاثة مثلاً.

فيلم «صائد الغزلان» يحكي عن ثلاثة مجندين أمريكيين في الحرب الفيتنامية متحدرين من أصول شرق - أوروبية. بعد انتهاء المهمة، يعود أحدهم وقد أصيب بعاهة. بينما يعتبر ثانيهم مفقوداً، والثالث فقط هو الذي يعود إلى امريكا في حالة طبيعية. بعد فترة يقرر الثالث البحث عن صديقه الذي اعتبر مفقوداً، فيعود إلى فيتنام، ويتقصى أخبار صديقه المفقود وآثاره (وقد كان أصيب بخلل عصبي)، ليتوصل إلى أن صديقه (الذي كان يصطاد معه الغزلان أيام زمان) قد احترف لعبة الروليت الروسي، في دار قمار. يدفع رشوة كبيرة لقاء أي طرف من معلومة، وشيئاً فشيئاً، وخطوة إثر خطوة، يستطيع أن يدخل دار القمار تلك، ويحاول الاتصال بصديقه فيمنعون عنه ذلك، لكنه يذلل هذا الأمر أيضاً بالرشوة، لكنه حين يقابله يجد نفسه أمام شخص آخر، لا صلة له بذلك الصديق العزيز المفعم حيوية ونبلاً ورهافة. انه الآن في أعماق الجحيم. لم يعد لديه إلا الزمن الرهيب للحظات الروليت الروسي. أخيراً يضطر - في محاولة أخيرة لإنقاذ صديقه - إلى أن يلعب معه اللعبة. يضغط الصديق زناد المسدس فلا تنطلق الرصاصة، ويتناول الثاني المسدس ويضغط الزناد ولا تنطلق الرصاصة أيضاً. وفي اللحظة التي بدأ فيها «المفقود» يعود إلى وعيه، ويخرج من كابوسه، تعود اللعبة إلى قواعدها ليتناول المسدس، ويضغط الزناد ثانية.. لكن الرصاصة تخترق الصدغ. ويسقط «المفقود» المستعاد، ويلفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعي صديقه... لحظة التماع واحدة... ثم الفقدان الطويل.

أوردت هذا التفصيل عن اللعبة الرهيبة، رغبة في تسليط ضوء على خبر

قرأته مؤخراً في صحيفة «التايمز» اللندنية. يتعلق الخبر بلقاء مشهورين ثلاثة في العاصمة الكوبية هافانا، هؤلاء الثلاثة هم: فيديل كاسترو، والروائي البريطاني جراهام جرين، والروائي الكولومبي الحائز على جاهزة نوبل في الآداب لعام ١٩٨٢ جابرييل جارسيا ماركيز. كتب مراسل «التايمز» في بوغوتا عاصمة كولومبيا قائلاً:

جراهام جرين والرئيس كاسترو رجلان يمكن القول عنهما، بلا جدال، أنهما عاشا دائماً في الخطر. ولهذا لم يكن عجيباً، حين زار جرين كوبا مؤخراً، أن يدخل الكاتب والثوري في حوار طريف عن سر العمر الطويل الممتلىء عافية.

لقد أمضى جرين حياته مسافراً إلى مناطق الاضطراب في العالم باحثاً عن أرضية لرواياته. والدكتور كاسترو ناضل وانتصر في ثورة كانت تقف أمامها صعاب خارقة، ومنذ انتصاره وجد نفسه هدفاً لعدة محاولات اغتيال.

لكن الاثنين نجوا - جرين في التاسعة والسبعين، ودكتور كاسترو في السادسة والخمسين - وهما في صحة جيدة.

حين التقيا في هافانا، كان ثمت ثالث يغبطهما هو جابرييل جارسيا ماركيز ذو الرابعة والخمسين، الروائي الكولومبي الحائز على جائزة نوبل لعام ١٩٨٢، وهو صديق قديم للاثنين.

كان جراهام جرين قد توقف لمدة عشرين دقيقة في هافانا أثناء رحلة على طائرة رسمية نيكاراغوية، برفقة الشاعر البنامي خوزيه دي خيسوس مارتينث. كان جراهام جرين والدكتور كاسترو قد التقيا قبل عشرين عاماً لقاءهما الأول، في الأيام الأولى للثورة الكوبية، حين كان الكاتب يزور الجزيرة ليراقب تصوير فيلم «رجلنا في هافانا» المعتمد على رواية له بهذا الاسم، وهو الفيلم الذي أخرجه كارول ريد ومثل شخصيته الأولى «اليك جينيس». واستمر الرجلان يلتقيان في زيارات جرين اللاحقة لكوبا في أوائل

الستينات . ومع أن الكاتب الانجليزي زار كوبا مرتين بعد تلك الفترة، إلا أن لقاءه هذا مع كاسترو كان الأول خلال ستة عشر عاماً.

ان الدكتور كاسترو رجل خجول بصورة فظيعة، كما أن جرين ـ كما يرى ماركيز ـ رجل متحفظ نوعاً ما . ولذا كان على الروائي الكولومبي أن يكسر الجليد، وهكذا وجه سؤاله إلى جراهام جرين حول ألعابه الشهيرة في الروليت الروسي.

التمعت عينا جرين، وأجاب أنه قامر حقاً على الموت بمسدس حين كان في التاسعة عشرة.

كان كاسترو المندهش يجهل الحادثة، فأخذ يسأل جرين عن عدد المرات التي لعب فيها الروليت الروسي، وعدد الطلقات المستعملة.

وبعدها، أغمض القائد الكوبي عينيه، في تركيز واضح، وأخذ يغمغم بصوت مرتفع عمليات حسابية . وأخيراً التفت إلى جرين وقال له وهو ينظر إليه بدهشة:

«حسب تقدير الاحتمالات، كان يجب أن تكون ميتاً».

وهنا يكمل جارسيا ماركيز القصة فيقول «ابتسم جرين ابتسامة السرور الذي يعرفه كل الكتاب حين يشعرون بأنهم يحيون مشهداً من كتبهم، وقال . . . حسناً، لقد كنت دائماً سيئاً في الحساب».

ربما لأن موضوع الحديث هو الموت، فقد سأل كاسترو جراهام جرين عن مظهره المليء بالعافية والفتوة، وعن أي تمرينات رياضية يمارسها . وكان هذا السؤال طبيعياً بالنسبة لكاسترو المتعصب في الحفاظ على لياقته البدنية والذي يتدرب عدة ساعات يومياً . . لكن جرين أجاب، أمام دهشة كاسترو الواضحة، أنه لم يقم طوال حياته بتمرين رياضي واحد، وأنه لم يلتزم بأي نظام غذائي، وأنه ينام سبع ساعات أو ثماني كل ليلة، وأنه يشرب ما يشاء.

ماذا يعني «الروليت الروسي» بعد هذا كله؟

أمغالبة الخطر؟ لكن مغالبة الخطر تعني فيما أرى، نفياً لاحتمالات الموت، من أجل الانتصار الكامل للحياة.

أتدريب النفس على الشدة؟ لكن الفسحة الضئيلة التي تقدمها اللعبة ليست، بأي حال، فرصة تدريب وتعويد. انها لحظة... واللحظة ليست حياة.

أتلذذاً بالنهايات القصوى للمغامرة؟ حقاً.. اللعبة ذات نهايات قصوى. لكنها ليست مغامرة. فالمغامرة قد يصيبها النجاح أو الاخفاق. النجاح والاخفاق هما طرفا المغامرة. أما الروليت الروسي فطرفاه وجوديان: الوجود أو العدم.

أدفعا بالحواس إلى أقصاها؟

أتحريراً للإنسان الخارق من أغلال الاعتياد؟

أإثباتاً للمنفي؟ للذات البشرية التي أرهقها العماء؟

أنا أعتقد أن السؤال الذي وجهه جابرييل غارسيا ماركيز إلى جراهام جرين «حول ألعابه الشهيرة في الروليت الروسي» ـ حسب النص الذي أورده مراسل «التايمز» في بوغوتا، هو أبعد من استعادة تجربة شخصية حدثت لجراهام جرين قبل حوالي ستين عاماً. ان سؤال ماركيز، كما أرى، يتصل بتجربة الكتابة لدى جرين نفسه. بتجربة هؤلاء الناس الذين يضطربون في روايات جراهام جرين اضطراباً عجيباً، مفعماً بالدلالات، والصبوات، لكن هؤلاء الناس «يدورون» أيضاً.. أو أن شيئاً يدور بهم... قوى لعينة تتربص بهم. وأنهم ليسقطون، قتلى في أحيان كثيرة..

لماذا؟ الآن «الروليت الروسي» يطبق قواعده واحتمالاته؟

ترى، أيبتعد مسافرو «قطار اسطنبول» كثيراً عن هذه اللعبة؟

بل... أيبتعد جراهام جرين كثيراً عن شكسبير؟

ولم لا نتذكر «هاملت»؟

مخزن المسدس دوار. والزناد عند الصدغ. والرصاصة تنتظر!

سنة ١٩٢٥، وبعد ثلاث سنوات من الدراسة في أكسفورد، نشر جراهام جرين مجموعة قصائد «نيسان ذو الخرير». في هذه المجموعة قصيدة عنوانها «المسدس في الخزانة»:

أضع المسدس في رأسي
وأجذب الزناد.
هل سيأتي الضباب والموت.
في إنحناءة هذا الدرب ذي الشمس الغاربة.
أو أن الحياة ستقوى
باقتراب الموت؟
كلا الأمرين ربح
انها لمقامرة لا أستطيع أن أفقدها.

يعقب الناقد ديفيد بريس جونس قائلاً:

«اللعب وحيداً، بالروليت الروسي، كان ترياق هذا الضجر. وقرقعة الفجوة الفارغة تقابل القناعة الداخلية بأن على الوجود البشري أن يجد تبريره في صيغ أخرى غير الضجر أو الشر».

صباح الخير أيها الروليت الروسي!

قطار اسطنبول

كلما دار الحديث عن جائزة نوبل في الأدب، أو اقترب موعد من مواعيد إعلانها، تساءلت - ربما ليس مع متسائلين كثار - عن السبب في أن جراهام جرين لم ينل الجائزة حتى اليوم، وهو المرشح لها منذ أمد بعيد. والبالغ من العمر واحداً وثمانين عاماً. جراهام جرين روائي انجليزي.

ولد سنة ١٩٠٤، ودرس في ثانوية كان يديرها أبوه س. هـ. جرين، ثم في كلية «باليول» بأكسفورد حيث نشر في نهاية الفترة الدراسية مجموعة قصائد عام ١٩٢٥. اشتغل مساعد محرر في «التايمس» مدة ثلاث سنوات، وترك العمل عام ١٩٢٩ بعد صدور روايته الأولى «الرجل في الباطن». لكن شهرته الروائية لم تتوطد إلا مع روايته الرابعة «قطار اسطنبول» ١٩٣٢، هذه الرواية التي سماها «تسلية» مثلما فعل مع أعمال أخرى، تمييزاً بينها وبين الروايات الأكثر جدية.

في ١٩٣٥ قام برحلة إلى ليبريا (أفريقيا) مع ابنة عمه بربارا جرين، وكانت حصيلة السفر المنهك كتابه «رحلة بلا خرائط» حيث العاصمة «مونروفيا التي بدأ بناؤها مغلوطاً»، وحيث القسوة والفساد والرثاثة. وبعد عودته عين ناقداً سينمائياً في صحيفة «سبكتيتر». كتب عن المكسيك رواية «القوة والمجد». وفي ١٩٣٨ صدرت روايته الشهيرة «صخرة برايتن». عام ١٩٤٠ صار المحرر الأدبي للصحيفة. عن فيتنام كتب «الأمريكي الهادىء»،

وعن كوبا «رجلنا في هافانا». . . على أي حال، الحديث عن المؤلفات يطول، إذ أن لجراهام جرين حوالي ثلاثين مؤلفاً بين رواية ومسرحية ومجموعة مقالات وكتب أطفال وأسفار. ثلاث عشرة رواية من رواياته ظهرت في السينما ومن بينها «الرجل الثالث» التي كتبت خصيصاً للفن السابع.

■

آخرما قرأت لجراهام جرين روايته «العامل البشري» الصادرة عام ١٩٧٨. أما أول ما قرأت له فـ «قطار اسطنبول». . . منذ ربع قرن تقريباً. لم العودة إلى قطار فات؟ الأنني شاهدت الرواية وقد غدت فيلماً؟ إلا أنني أعدت اقتناءها كمن يحتفظ بتذكرة قطار ذات مناسبة أثيرة؟ أم لأن ما تثيره الرواية من أسئلة ما يزال قائماً؟ ان قولة جورج سانتيانا التي تستهل بها الرواية تقبل النقاش لكنها لا تتقبل الاهمال:

«كل شيء في الطبيعة غنائي في جوهره المثالي، مأساوي في قدره، هزلي في وجوده».

وثمت أمر لصيق بطبيعة القراءة. فقارىء أمس ليس كقارىء اليوم، بل الكتاب ذاته يغدو مختلفاً وهو يخضع لقراءة مختلفة. ان تذوق عمل فني معين يستدعي عدة ثقافية مناسبة. وهكذا: كلما زادت عدتنا رهف تذوقنا. والعمل الفني ليس عسلاً بالطبع.

قبل ربع قرن، حين قرأت «قطار اسطنبول» للمرة الأولى، استهوتني لأسباب قد لا تكون هي هي الآن، أو أنها أمست سبباً بين أسباب استجدت بفضل خبرة أو عمر.

ومن يدري، فلعل هناك من يخالفني، ويرى في إعادة قراءة سالفة مضيعة للوقت والجهد، ولعله يرى أن ما فات فات وأن المطابع التي تدور في هذا العالم المتعجل لم تترك لنا من اختيار إلا اللهاث وراء جديدها، محاولين اللحاق بصاروخها الذي لا يمهل ولا يهمل.

وفي هذا كله، أنصت الآن إلى صوت قطار يقترب. ثلج. محطة ضائعة. صافرة ثم أخرى. القضبان تنبض. وبخار القاطرة المحاصر بالثلج يجعل الوجوه عجيبة في ليل مكتنز.

■

المسافر من انجلترا إلى اسطنبول يمر، أو يتوقف، بخمس محطات هي على التوالي:

أوستند ـ كولونيا ـ فيينا ـ بلغراد ـ اسطنبول. (يتوقف هنا في سبوتيكا اليوغسلافية). هذه المحطات الخمس تشكل الفصول الخمسة لرواية «قطار اسطنبول». كما أن الشخصيات الأساسية هي خمس:

كورال موسكر ـ راقصة شابة تريد الوصول إلى اسطنبول للحاق بفرقة منوعات هناك.

كارلتون ميات ـ شاب يهودي من أسرة تجارية يقصد اسطنبول لأمور تتعلق بالشركة..

يوسف جرنليخ ـ لص نمساوي شهير يقتل شخصاً في آخر عملية سرقة، ويهرب من فيينا.

ريتشارد تشنر ـ ثوري يوغسلافي متنكر يريد العودة إلى بلاده لقيادة انتفاضة عمالية.

ميبل وارن ـ صحافية شاذة استقلت القطار لتغطي أنباء الانتفاضة.

■

كيف اختار جراهام جرين شخصياته هكذا؟ ليس أمامنا، ونحن نقدم هذا السؤال، سوى إجابات محدودة: إما أن تكون هذه الشخصيات نماذج خمسة أو أن الروائي يخضعها لتصورات فكرية متباينة، أو أنها أطراف لعبة فنية محبوكة.

لكننا حين نمضي قدماً في الرواية، نجد أن أية واحدة من الاجابات الثلاث هذه لا يمكن أن تنطبق على «قطار اسطنبول».

وقبل «الايغال» في عملية الاستنتاج يتعين أن نعرف ما جرى في رحلة القطار.

■

كورال موسكر تغادر بحراً إلى الساحل الأوروبي لتستقل قطار اسطنبول. انها فتاة نحيلة تبحث عن مكان لها في فرق رقص المنوعات، انها فقيرة، بريئة، وهي ذاهبة إلى اسطنبول كي ترقص هناك مع فرقة تضم لدات لها. البرد قارس. ومعطفها الخفيف وجسمها الناحل لايقيانها. كما أنها ليست مسافرة في عربة نوم، فالتذكرة من هذا النوع غالية. الشاب اليهودي كارلتون ميات يلتقي بها، يدعوها إلى عشاء فاخر، وإلى مقصورة نومه المدفأة. كورال موسكر تفقد براءتها معه. وهو يتعرض لما يمكن أن ينتشله من ضعة. لكنه يضيع كورال في محطة سبوتنيكا. يحاول العثور عليها لكنه لا يصل، فيواصل طريقه إلى اسطنبول، حيث فرع الشركة، وحيث يلتقي بفتاة أخرى، جانيت باردو القريبة من عالم مصالحه، فيتزوجها، ولا تخلف كورال لديه إلا ذكرى فتاة عابرة من فتيات الكورس، وما أكثرهن!

يوسف جرنليخ، اللص النمساوي الشهير، يقتل شخصاً في احدى عملياته، ولا يجد سوى قطار اسطنبول مهرباً. في «سبوتنيكا» اليوغسلافية يلقى عليه القبض، لكنه يستطيع الهرب. ميبل وارن، صحافية شاذة، تعاشر جانيت باردو، وتستقل القطار في احدى محطاته، لتغطي أنباء انتفاضة عمالية سوف تنشب في بلغراد، وهي معنية بملاحقة ريتشارد تشنر، القائد المفترض للانتفاضة، والذي كان يعيش في انجلترا، متنكراً بهيئة المدرس جون تشنر، والذي يحمل جواز سفر بريطانيا مزوراً. تلاحق ميبل وارن، د. تشنر، وتكتشف أنه هو القائد الشيوعي الشهير بمحاكمته منذ خمس سنين. جانيت باردو تتخلص من مخالب ميبل وارن. أما هذه فتستغل متاعب كورال موسكر وتوقعها في مخالبها. تريد منها تحقيق أمرين: السبق الصحافي باعتبار أن

كورال شهدت حتى اللحظات الأخيرة من حياة د. تشنر، وأن تكون بديل جانيت باردو. «سبق صحافي. أريده سبقاً. انه قصتي» وفي الوقت نفسه، كانت ترى «خلف ذهنها، خلف العناوين البارزة، وحروف الرصاص، حلماً يتشكل. كورال بالبيجاما تصب القهوة. كورال بالبيجاما تمزج الكوكتيل، كورال نائمة في الشقة المرممة، مجددة الديكور».

ميبل وارن تصطحب كورال موسكر، بعد محنتها: مشاهدة قتل القائد الشيوعي اليوغسلافي، تصطحبها إلى فيينا، بالسيارة، بينما تدور في ذهنها وعينيها، جانيت باردو البديل: كورال موسكر بالبيجاما.

د. تشنر قائد شيوعي يوغسلافي، كان طبيباً بأحد «أحياء بلغراد العمالية. ألقي عليه القبض هناك وقدم إلى المحاكمة. في المحكمة يلقي دفاعاً شهيراً، ويستطيع الهرب من بين حراسه، والوصول فيما بعد إلى انجلترا. أما الآن فهو يغادر انجلترا بجواز سفر مزور، تحت اسم جون تشنر، ويأخذ القطار ليبلغ بلغراد، حيث الانتفاضة القادمة. في القطار، يغمى على كورال موسكر النحيلة بسبب البرد والجوع فيستدعى د. تشنر للعناية بها. كما أن الصحافية ميبل وارن تكتشف شخصيته الحقيقية فتلاحقه كي تحصل منه على مقابلة لصحيفتها اللندنية. الانتفاضة تندلع في بلغراد قبل وصوله بيوم أو يومين. يحتل العمال مركز المدينة ومبنى البريد المركزي، لكن الجيش يحاصرهم ويبيد معظمهم. نبأ وجود د. تشنر في قطار اسطنبول يبلغ السلطات اليوغسلافية. في محطة «سبوتيكا» الحدودية يتوقف القطار. يلقى القبض على د. تشنر وكورال موسكر ويوسف جرنليخ. يحاكمون محاكمة سريعة. العقيد هارتيب الذي لفق المحاكمة السريعة بمحطة سبوتيكا، يتلو أحكامه:

«يحكم على السجين ريتشارد تشنر بالموت، ويقوم الضابط المناوب في حامية سبوتيكا بتنفيذ الحكم خلال ثلاث ساعات». أفاقت كورال موسكر. لم تستطع أن تفهم ما يجري حولها. كان الضباط يتكلمون فيما بينهم ويقلبون أوراقهم. ثم أصدر أحدهم أمراً، ففتح الحراس الباب، وأشاروا ناحية الريح والثلج والأبنية المجللة بالبياض. خرج السجناء ملتصقين ببعضهم

اتقاء العاصفة الثلجية. أمسك يوسف جرنليخ بذراع د. تشنر: لم تخبرني ماذا سيحل بي. أنت تسير فقط ولا تقول شيئاً. «سجن لمدة شهر ثم تبعد إلى بلدك». وسألته كورال: وأنا؟ ماذا سيحل بي؟ «سيرسلونك إلى بلدك غداً».

يسجن الثلاثة في مبنى بانتظار الفجر، حين تنفيذ الاعدام. لكنهم يهربون، ويخرجون في العاصفة الثلجية. يوسف جرنليخ ينجو. د. تشنر تجرحه رصاصة يطلقها أحد الجنود الذين كانوا يطاردونه. كورال موسكر تبقى إلى جانبه في مخزن لأكياس الحبوب يلتجئان إليه. د. تشنر يموت متأثراً بجراحه. يلقى القبض ثانية على كورال ويطلق سراحها. جندي يطلق رصاصة من مسدسة في فم د. تشنر.

■

يقول الناقد ديفيد بريس جونز عن رحلة «قطار اسطنبول»:

توقف الرحلة ليس سوى وهم. لقد ولد أحدهم، شأن الآخرين، كي يبلغ مصيراً ومستقراً. وسوف يدفعون بالقوة طيلة السكة... تشنر الثوري، كورال الراقصة التي ينتظرها رفيقها في اسطنبول، وميات اليهودي الذي يحمل معه صفقة زبيب سوف تضع احتكاراً ما في مأزق. ومع أن للجميع غاياتهم النهائية من هذه الرحلة، إلا أن حقيقة السفر ذاتها، تحولهم، أو تجرفهم في الأقل، عن غاياتهم. هذا من طبيعة الحياة. يكتشف تشنر في ميبل وارن صحافية سكيرة ذات شذوذ جنسي تريد أن تستفيد إلى أقصى حد منه كسبق صحافي. ميات يغوي، أولاً، كورال، بصورة مؤلمة، ثم يلقى القبض على كورال مع تشنر الذي دس في يدها رسالة أثناء أخذه من القطار.

براءة تشنر هي براءة المثالي. وسقوطه هو أردأ سقوط، لأنه قدم أكثر الحسابات زيفاً بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون. لم تحلم كورال إلا بزواج ناجح، وحلم ميات بتجارة أكثر ربحاً، أما تشنر فبعالم أكثر عدلاً. تبلغ الرواية قمتها بخطبة تشنر أمام العقيد هارتيب ممثل قوى القانون الرجعية المؤسسة على الجبروت. يقول تشنر: «أنت تضع اللص الصغير في السجن،

لكن اللص الكبير يعيش في قصر. ثروة العالم تعود إلى الجميع، ولو أنها قسمت فلن يكون ثمت أغنياء، لكن سوف يستطيع كل إنسان أن يأكل كفايته، ولا يشعر بالخجل وهو إلى جانب جاره».

■

جراهام جرين الكاثوليكي يجيد ترتيب كاثوليكيته وإخفاءها. وها هو ذا د. تشنر الشيوعي مسيح يستشهد بين خاطئة ولص.

جنتلمان سان فرانسسكو

كان جنتلمان سان فرانسسكو ـ لا أحد يتذكر اسمه في نابولي أوكابري ـ في طريقه إلى العالم القديم مع زوجته وابنته، ليمضي هناك سنتين كاملتين مكرستين تماماً للمتعة. لقد كان مقتنعاً الاقتناع كله بأنه مؤهل للراحة والمتعة، ولرحلة ممتازة في كل شيء. وكانت له أسبابه في هذا الاقتناع، فهو أولاً غني، وهو، ثانياً، لم يبدأ الحياة إلا الآن مع أنه في الثامنة والخمسين. حتى هذه الرحلة لم يكن ليحيا، كان يعيش حسب، عيشة ليست سيئة على الإطلاق، غير أنها لم تكن سوى عيشة على أي حال، إذ كان ركز آماله كلها على الأيام التي سوف تأتي. لقد اشتغل بلا هوادة. والصينيون الذين استوردهم بالآلاف ليعملوا عنده..؟ يعرفون جيداً معنى الشغل بلا هوادة!

وأخيراً، رأى أنه قد حقق الكثير، وأنه قد بلغ مبلغ أولئك الذين وضعهم أمثولة أمامه ومقتدى، آنذاك قرر أن يتمتع بعطله.

وكان من عادات أبناء الطبقة التي ينتسب إليها أن يبدأوا الرحلة إلى أوروبا والهند ومصر حين يكونون مهيئين للتمتع بالحياة. فقرر أن يفعل الأمر ذاته.

طبيعي أن همه الأول كان مكافأة نفسه على ما بذل من جهد في أعوام الكد، لكنه كان مبتهجاً أيضاً لزوجته وابنته وهما تصحبانه في رحلته.

كان طريق الرحلة الذي اختطه جنتلمان سان فرانسسكو مديداً بعيداً. فخلال شهري ديسمبر ويناير كان يأمل في التمتع بشمس الجنوب الايطالي والآثار، ورقصة الترنتيلة، وسيرينادا المغنين الجوالين، وكذلك التمتع بما يتشهاه من هم في مثل سنه: حب الفتيات النيابوليتانيات.

كما أراد أن يشاهد أسبوع كرنفال في نيس ومونت كارلو حيث تلتقي نخبة المجتمع لتنغمس في سباق السيارات واليخوت، أو في لعبة الروليت، أو «العبث الخفيف»، بينما ينشغل آخرون في قنص الحمام الذي يطلق من أقفاصه ليحوم تحويمه الجميل فوق منبسط العشب الأخضر كالزمرد، وخلفه البحر الأزرق الفاتح.. ثم ليسقط على الأرض مثل كرات بيضاء صغيرة.

قرر جنتلمان سان فرانسسكو، كذلك، أن يمضي النصف الأول من شهر مارس في فلورنسا، ويصل إلى روما في «أسبوع الآلام» ليسمع الميزريري تغني هناك. كما تضمنت خططه، فينيسيا وباريس، وأشبيلية حيث مصارعة الثيران، والجزر البريطانية حيث يسبح، ثم أثينا، وفلسطين ومصر، وحتى اليابان.. في طريق العودة بالطبع..

وقد بدأ كل شيء بداية ممتازة!

كان شهر نوفمبر في نهايته. وقد رافقهم الضباب والعاصف الثلجي طوال رحلتهم حتى جبل طارق لكن الرحلة كانت آمنة، وسفينة الركاب «أطلانطس» مثل فندق هائل. كان البحر يرعد ويموج مثل جبال سوداء، والسفينة تشق طريقها، كالمحراث في تلك الجبال. وفي جوف السفينة كانت الأفران الضخمة تلتهم طناً من الفحم بعد آخر، يلقيه فيها رجال يتصبب منهم العرق، قذرون، أنصاف عراة، تختلط أشباحهم باللهب المتقد.

أما هنا، حيث يجلس جنتلمان سان فرانسسكو، في المشرب، فالسيقان مرمية بلا مبالاة على أذرعة الكراسي، والأشربة تحتسى على مهل، وأدخنة عطرة معلقة في الهواء. وفي قاعة الرقص كان البريق، والنور المتألق، والدفء والبهجة، والراقصون يدورون مثنى مثنى.. وبين هذا الحشد:

مليونير معروف، وكاتب اسباني شهير، واحدى جميلات العالم . . ،وعاشقان لا يكتمان أمرهما، يرقصان أجمل ما يكون الرقص، لكن جنتلمان سان فرانسسكو علم من قبطان السفينه أن هذين العاشقين مأجوران لشركة لويدز كي يمثلا دورهما طوال الرحلة ويمنحاها بهجة مضافة .

■

ويحل الجنتلمان في جزيرة «كابري» . . . وسط ترحاب كبير، حتى كأن هذه الجزيرة الصخرية الرطبة في البحر المتوسط قد بعثت فيها الحياة خصيصاً له . وجاء مالك الفندق . . . ليبلغ الجنتلمان أن شخصية شهيرة كانت تسكن جناحاً خاصاً في الفندق قد رحلت اليوم، وأن الجنتلمان سيسكن في هذا الجناح النفيس ذاته، وسوف يتولى العناية به جيش من الخدم .

وفي اليوم التالي كان موعد العشاء .

أخذ الجنتلمان يرتدي ملابسه، وشعر ببعض الضيق من ضغط الياقة على عنقه . . لكنه تحامل على نفسه، وهو يفكر بتلك الراقصة الخلاسية في ثوبها البرتقالي . هبط درجات السلم المفروش بسجادة حمراء، قاصداً غرفة القراءة، بانتظار أن تتم زوجته وابنته ارتداء ملابسهما . كانت أمامه امرأة مسنة مثل دجاجة عجوز . جلس في أريكة جلدية عميقة، وتناول صحيفة، وأخذ يقرأ بعد أن ثبت نظارتيه، واختفى تماماً خلف الصحيفة، وفجأة رأى السطور تلتمع أمامه ببريق زجاجي، وتوترت رقبته إلى أمام، وجحظت عيناه، وسقطت نظارتاه . حاول أن يتنفس الهواء، واهتز بعنف، وفغر فاه المليء بالأسنان الذهبية، ثم سقط رأسه إلى الخلف على كتفه، وأخذ ينحدر إلى أرضية الغرفة وهو يرفس السجادة بقدميه في نضال مستميت .

ولولا تواجد شخص ألماني مصادفة هناك في غرفة المطالعة، لتسترت إدارة الفندق تستراً كاملاً على الحادثة، ولجرت جنتلمان سان فرانسسكو من رجليه ورأسه عبر دهاليز الفندق الخلفية بحيث لا يراه واحد من النزلاء . لكن الألماني اندفع إلى قاعة الطعام صارخاً، وقفز نزلاء عديدون من كراسيهم،

وانقلبت كراسي، واندفع الكثيرون إلى غرفة المطالعة صارخين: ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

أما صاحب الفندق فكان يسرع من نزيل إلى آخر، محاولاً تهدئة الحال، قائلاً انه إغماء بسيط. لكن الجنتلمان كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، فحمل إلى أتعس غرفة في الفندق، الغرفة ٤٣.

■

كان جنتلمان سان فرانسسكو ممدداً في سرير حديد رخيص، مغطى ببطانية صوف خشنة، وكان مصباح شاحب وحيد ملتصق بالسقف يلقي ضوءه الواهن. كيس مطاطي للثلج كان على جبهته.. ووجهه كان يبرد، وأخذت حشرجة فمه المليء بالذهب تخف تدريجاً.

لم يعد ذلك الجنتلمان من سان فرانسسكو. انه الآن شخص آخر. ووقفت زوجته وابنته والخدم والطبيب ناظرين إليه. وفجأة، حدث ما كانوا ينتظرونه، حدث ما كانوا يخشونه ـ انقطعت الحشرجة. وببطء، ببطء شديد، وأمام أعينهم انتشر الشحوب على وجهه، وبدت ملامحه أرق وأرهف.

دخل مالك الفندق. وأخبره الطبيب همساً: لقد مات.

اقتربت السيدة والدموع في عينيها من مالك الفندق، واقترحت بخجل أن ينقل المتوفى إلى غرفة في الأعلى. لكن المالك رد بسرعة: مستحيل يا سيدتي. وبين لها أن سمعة الجناح الشهير ستتضرر، ولن يسكنه سائح فيما بعد.

أخذت البنت تشهق منتحبة. أما السيدة فقد ازدادت نبرتها حدة، وهي تصر على طلبها نقل المتوفى إلى غرفته العالية. لكن المالك قال بلهجة مؤدبة: إن كانت السيدة تضيق ذرعاً بتعليمات الفندق، فهو لا يجرؤ على التمسك ببقائها مقيمة في الفندق.

وأصر على أن الجثة يجب أن تنقل من الفندق، صباحاً. كما أن الشرطة قد أعلمت بالخبر، وتمت كل الشكليات اللازمة. وسألت السيدة: هل

بالامكان نقله من هنا في تابوت حتى لو كان بسيطاً؟ أجاب المالك: آسف يا سيدتي. لكن قناني الصودا الانجليزية قد شحنت له في صناديق واسعة طويلة، وبالامكان وضعه في أحد تلك الصناديق بعد إزالة القواطع الداخلية.

وأخيراً يعود جنتلمان سان فرانسسكو في تابوته بأسفل السفينة «أطلانطس» وهي في رحلة العودة إلى أميركا، بينما قاعة الرقص تتقد بالأنوار، وتبتهج لمرأى عاشقي شركة لويدز وهما يرقصان.

■

ما قدمته كان تلخيصاً ما لقصة شهيرة في اثنتين وعشرين صفحة، القصة تحمل العنوان نفسه، أما كاتبها فهو إيفان بونين (١٨٧٠ - ١٩٥٣)، الحائز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٣٣. والمتوفى بباريس عام ١٩٥٣.

قال الكسندر تفاردوفسكي الشاعر السوفياتي المعروف وهو يتحدث عن بونين «انه آخر الكلاسيكيين الروس». وقد كتب تفاردوفسكي مقدمة «مجموعة أعمال» بونين التي صدرت بين ١٩٦٣ و ١٩٦٧ بالاتحاد السوفياتي في تسعة مجلدات، وحوالي ربع مليون نسخة.

ويقول تفاردوفسكي متحدثاً عن سنوات المنفي لدى بونين:

«ليست المسألة أن بونين أمضى نصف حياته في المنفى.. إذ أن هرزن وأوغاريف كليهما قد هاجرا من روسيا، شابين، وعاشا حياتهما كلها هناك، وماتا في المنفى، ومع هذا فإن موهبتهما قد ازدهرت في الخارج، وعادت عليهما بالشهرة والمنزلة في أوروبا وروسيا. كما أن أجيالاً بأسرها من الثوريين الروس كانوا مهاجرين، ولينين من بينهم، فقد عاش وعمل في الخارج سنين عديدة.

المسألة هي أننا لا نغادر الوطن إلا من أجله، من أجل قضية حريته ورفاه شعبه، وآنذاك تكون حياة المنفى مهما قست، مجدية.

أما إيفان بونين فكان لحياة المنفى أثر تدميري عليه. لا حاجة إلى

التفاصيل هنا. دعونا نتحدث، بدلاً منها، عن بونين الذي سنظل نعتبره معلماً بارزاً يليق بأسلافه العظام في الأدب الروسي. كاتباً أسهم بنصيبه الكبير القيم في ثقافتنا الوطنية».

أرى أن تفاردو فسكي قد وضع يده على الموضع الدقيق الحساس في النظر إلى ظواهر معينة، وشخصيات معينة في الثقافة، والتراث الروحي لأمة من الأمم.

وبإمكاننا أن نستفيد من هذه النظرة ذات الأفق الواسع في معالجة بعض ما يمر بنا (أتذكر بدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور ونازك الملائكة مثلاً)، كما أتذكر الأخذ والرد العنيفين في مسائل مماثلة.

ان الحرص على الثقافة الوطنية مسؤولية بالغة التعقيد، شائكة التفصيل. وليس بالحماسة وحدها تؤخذ الأمور.

لقد عمدت إلى تلخيص «جنتلمان سان فرانسسكو» كي أتقدم بصوت ملموس إلى جانب تفاردوفسكي، وكيلا أترك المسألة دائرة في لا مساحة التعميم، هذه اللامساحة التي تستوعب دائماً، الحماسات، حتى الزائدة منها.

وما الذي نخرج به من «جنتلمان سان فرانسسكو»؟

أكيد أننا لن نقف، بالنتيجة، مع الرأسمالية، التي شوهت الإنسان، ونبله، وتطلعه... شوهت حتى هذا الجنتلمان الذي تشبث بالمثل الرأسمالية. حتى آخر حياته، مستغلاً عرق آلاف الصينيين وكدهم.. ليسقط في النهاية صريعاً في غابة الوحوش، هذه الغابة التي كان الجنتلمان نفسه وحشاً بين وحوشها.

■

كيف نقرأ، إذن، نجيب محفوظ؟

يتحسس الطريق . . . يمسك بالخيط

في الغرفة ضوءٌ استوائيّ من أربع حبات جوافة . . و «أفعال مضارعة»* تنبجس من هنا وهناك . من بلدات وعواصم ومقاهٍ وبيوت وأرصفة ، ووحشات محددة مطلقة .

الفعل المضارع مضارع ، لأنه يضارع المصدر . زمن مديد حتى كأنه اللازمن ، كأنه المصدر : النبع الذي لا يكفّ .

وفي القرآن الكريم جاء المضارع ماضياً وحاضراً واستقبالاً . لكن المضارع باعتباره فعلاً لا يرد متواتراً بمثل ما يومىء العنوان : في قصيدة «انشغالات » ستة أفعال مضارعة ، وفي قصيدة «انتماء» ثلاثة ، وفي قصيدة «المنازل» ثلاثة ، وفي قصيدة «الصمت» صفر ، وفي «فجأة ، عميقاً عارماً» اثنان ، وفي «ما يشبه الصليل» ثلاثة ، وهكذا . .

أردت أن أقول ان وليد خازندار ليس معنياً بالفعل المضارع في ما هو فعلٌ مضارع متصيّغ ، محدود ، محدد . إنه معني بالتزامن أكثر من الزمن :

لنعترف بأنها شوارع موحشة
في بلاد بعيدة

* «أفعال مضارعة» مجموعة شعرية لوليد خازندار ـ منشورات ابن رشد ـ بيروت ١٩٨٦ .

ولنعترف بأننا متعبان

الاعتراف، والوحشة، والبعد، والتعب. كل عامل من هذه العوامل الأربعة، هو أقل من عنصر وأكثر. أقل من عنصر لأنه أعصى على التحديد، وأكثر من عنصر لأنه لم يجيء أصلاً، بل جاء نتيجاً مستمراً لعمليات وأفعال عميقة مديدة عديدة. هنا، علينا العودة، ثانية، إلى القصيدة «في بلاد بعيدة - ص ٧» من أولها:

لنفترض أنها حديقة
ولنفترض أننا نلعب
تخيلي مثل زوبعة صغيرة تستدرج شعرك وقلبي
مثل نهر، في آخر الحديقة، يسكر
مثل أرجوحة، واننا نعلو..
أنظري:

هذه فراشة سافرت أكبر من جناحها
تدور، زرقاء، حمراء، بنفسجية الارتباك لنفترض
قد تبدأ الشجيرات، فجأة، وتبدأ البراعم
وقد ننتهي، متواطئين، هكذا. وراعفين، في ممر من الشجيرات ضيق
لنقترب
ما تزال بيننا مسافة لشفرة
ما يزال بين خطونا والرصيف شيء من الحذر
يدك!
ما الذي أفعل عندما يدك ترتاح كفوضوي مطارد
على كتفي؟
وفي النهاية:
لنعترف بأنها شوارع موحشة
في بلاد بعيدة
ولنعترف بأننا متعبان

■

الافتراض يعني، موقفاً، وحكماً، ومفتتحاً، والافتراض هنا (في بلاد بعيدة) يمد يديه كلتيهما إلى ثمار صعبة.. لقد جرت مياه كثيرة تحت الجسور، وانشطر المرء شطرين (نصف للمراكب التي أقلعت/ ونصف لهذا النحيب الذي يروع المدينة) ص ١٧ «محارة الأفق»، والمقاعد الثلاثة في آخر الصف حيث (كانت الضوضاء والحلوى تجيء من وله، وثلاثة قمصان مفتوحة من دفتر واحد يدور) ص ٨١ «علبة الكبريت»، هذه المقاعد الثلاثة تفحم خشبها الآن، وربما استقر أحد شاغليها في إطار أسود تحت خريطة البلاد المتنائية.. لم تعد الفتوة في براءتها. إذن، على وليد خازندار أن يتحسس الطريق، معلماً، معلماً، وتفصيلاً إثر تفصيل. والكل مفترض، الكل في بهجة الافتراض الصعب، والمغري، في آن. لنعد إلى الحديقة، لنله.. الأرجوحة تعلو، ونعلوا بها، وشعر البنت في زوبعة صغيرة. لكن ثمت فراشة سافرت أكبر من جناحها.. هكذا يأتي الارتباك في أوائله، إلا أن الصبوة أقوى، من يدري.. لعل الشجيرات تبدأ، فجأة.. ولعل البراعم.. الباب ضيق، والتوتر عال، ما تزال بيننا مسافة لشفرة.. ويا لليد المباغتة! يا للدّغة! وينهار الافتراض الصعب، افتراض الفتوة في براءتها الأولى، وندخل مباشرة، وكأننا مخطوفون، في واقع أردنا سواه.. (ما الذي أفعل عندما يدك ترتاح كفوضوي مطارد على كتفي؟) فليأخذ الاعتراف مكان الافتراض. لنعترف بأنها شوارع موحشة في بلاد بعيدة ولنعترف بأننا متعبان.

قلت ان وليد خازندار يتحسس الطريق، وقد قطعناه معه. لكن الأمر أبعد من تحسس الطريق فقط. فالأعمى أيضاً يتحسس سبيله بالرغم من فقدانه حاسة. على المرء أن يتحسس الطريق. ممسكاً، مثل ثيسيوس، بالخيط الذي هو ضمانته في الخروج من «اللابرينث».. من المتاهة.

وحين يتعلق الأمر بالمبدع، يتعين عليه أن يخلق متاهته وخيطه منذ البداية.. أي ان عليه، أساساً، أن يضع شروطه الصعبة، ويمضي في جدل هذه الشروط، حتى يبلغ المنتهى الذي قد يكون ارتآه.. أو تراءى له، في أحسن الأحوال.

ألم يكن وليد خازندار يعرف أن الشوارع موحشة في تلك البلاد البعيدة؟ ألم يكن يعرف، منذ البداية، بأنهما، كليهما، متعبان؟ هو يعرف ذلك أكيداً، لكن، أي معنى للعمل الفني إن قلت لك بتلك الفظاظة المتداولة: أغرب عن وجهي.. أنا تعبان؟

العملية الابداعية تتضمن نتائجها: الاقناع الفني.

وبدون الاقناع الفني المؤسس على تناول أخلاقي للواقع وأشيائه، وعلائق الواقع، وعلائق الأشياء، يكون القفز على العملية الابداعية ذاتها، وتجيء محاولة الارغام الفاشلة.

فلنعد إلى القصيدة من أولها، مترصدين الخيط الخفيّ الذي ظل الشاعر يمسك به حتى نهاية الطريق!

■

وليد خازندار غير مغرم بالدعاوى (الكبيرة؟)، أو لعله مغرم بها إلى حد التوجس.

بؤر اهتمامه صعبة: الوحدة. الدهشة الأولى، مراقبة اللحظة. ولادة الاحساس. المرأة غير المعلنة. الهامش/ اللافتة. وصعوبة هذه البؤر متأتية من ناحيتين مشتبكتين، أولاهما تجميع الأشعة، الضائعة، المتباعدة، المتنافرة أحياناً، جعلها تسكن البؤرة، وهو أمر ليس هيناً، إذا حاولنا أن نكون في أية خطوة نخطوها أمناء على مقتضيات العملية الفنية، وثانيهما أن المرء حين ينطلق من البؤرة ذات الأشعة المتجمعة، المتباعدة، المتنافرة أحياناً، فإنه يجهد من أجل أن يطلق وينشر شآبيب جديدة من أنوار جديدة، انطلقت؛ من البؤرة حقاً، إلا أنها ذات نوعية غير متماثلة والأشعة التي جرى تجميعها من قبل.

قد تصلح قصيدة «علبة الكبريت» ص ٨١، إلى هذا الحد أو ذاك أرضية للتطبيق:

المكان/ غزة.

المشكلة/ أول الوعي.

جاك بريفير، لن يقدم لنا عوناً كبيراً هنا، ان مشكلة تلميذه مختلفة نوعياً تمام الاختلاف. نحن في «علبة الكبريت» إزاء قضية أعمق بكثير. نحن هنا إزاء تشكل الوعي الطالبي المطلبي، في غزة، هذا الوعي الذي سيضع ميسمه الواضح على الحركة الوطنية/ الشعبية هناك (بداية اللافتات العريضة؟).

الأشعة التي جرى تجميعها في البؤرة، أشعة منتقاة وظيفياً، صف، ضوضاء، قمصان مفتوحة. شبابيك، خيزرانة. أصابع. . الخ.

وهنا، تعيّن على الشاعر أن يدخل هذه العناصر في بوتقة عجيبة، وأن يحرص على قيادة عملية تفاعل العناصر المذكورة، بحيث تنطلق أمامنا شآبيب جديدة.

القصيدة تسعة عشر بيتاً. الأبيات من ١ ـ ٤ تضعنا إزاء التحريك الأول للعناصر: التشوش. الأبيات من ٥ ـ ٩ مجموعة تقابلات، أبيض/ أسود، سواد/ نهار، ناب/ سن غزال، هنا المقايسة ضرورية بغية الوضوح بعد التشوش، الأبيات من ١٠ ـ ١٥ بداية تشكل السؤال في مراحله الأولى، بداية الرفض:

كيف للصرخة أن توقف الخيزرانة قبل أن تهوي؟ (ص ٨٣).

لكن في هذه البداية رافعة واضحة، غريبة، لأنها منفردة، هذه الرافعة هي في الدخول المفاجىء للدوري: كيف للدوريّ أن يقول: لا؟ هذا الدوري يمهد، بدون مسبقات واضحة، لحنجرة الشوارع، للهتاف المنطلق، لتظاهرة الطلبة في شوارع المدينة.

أن الأبيات من ١٦ ـ ١٩ هي النتيج المشروع لاعداد متأنٍ.

■

الواقع هو ما نصنعه.
هذا، حلمنا الأثير، في الفكر، وفي السياسة.
إلا أن عبارة «الواقع هو ما نصنعه» هي القاعدة والهدف، معاً، حين

يتصل الأمر بالجهد الإبداعي، وليس من قاعدة أخرى أو هدف. ان مصطلح «الواقع الفني» يبدو لي ملتبساً إلى حد معين.

والمبدع لا يصنع «واقعاً فنياً» مقابل «واقع غير فني» كما يشي المصطلح الأول. الواقع الذي صنعه المبدع، هو ذلك الواقع الذي مرّ به آخرون ولم يروه. بهذا يكون الواقع الذي صنعه المبدع هو الواقع الوحيد (بالنسبة له؟ لكن المبدع ليس وحيداً، ليس وحده).

قصيدة «الغريب يعرفها ـ ص ٢٥» تصلح أنموذجاً:

الليل يمعن/ الحافلات، بطيئة، تبتعد/ البنات صغيرات ويختفين، مسرعات في العتمة/ والشبابيك، قارباً قارباً/ أسرجت مصابيحها/ وأقلعت/ المقاهي عدائية/ والشوارع التي أضاع فيها مفاتيحه تغلق الآن انعطافاتها/ الحجارة شافته وأنكرته/ وأنكره المقعد الخشبي الأخضر الطويل، قبالة البحر، أيضاً/ وأنكره بائع الكستناء/ ما الذي يسرق العصافير ريشها الجميل/ في طقس العواصم؟/ ما الذي يفعل الغريب في مدينة يعرفها؟

قد يمكن لهذه القصيدة أن تعود بنا إلى حديث ما سمي التباساً «قصيدة التفاصيل»، بينما الشعر، منذ هوميروس، لصيق بأشياء الحياة وتفاصيلها. التفصيل، في العمل الفني، ليس قيمة مضافة. القيمة المضافة هي كيفية استخدام التفاصيل بغية صنع الواقع.

في قصيدة «الغريب يذكرها» جرى إنتقاء ذكي لتفاصيل مشعّة (أو كابية فالأمر لا يختلف كثيراً من ناحية الوظيفة) من أجل تأصيل الغربة في تلك المدينة البحرية.

نحن نمضي في رحلة الليل، كل شيء يرحل: الليل. الحافلات. البنات. الشبابيك. المقاهي. الشوارع. الحجارة. المقعد الخشبي. بائع الكستناء، والبحر أيضاً.

آنذاك حين يأتي السؤال: ما الذي يفعل الغريب في مدينة يعرفها؟

يكون السؤال مباغتاً جداً، لأنه غير مباغت، لقد أقنعتنا التفاصيل بالمباغتة، بحيث غدا السؤال، سؤال النص، سؤالنا نحن، والسؤال الذي يطالب به الواقع.

إذن، من صنع الواقع؟
من أتى بالمدينة الراحلة إلى عتبة البيت؟

■

الضجيج حرفة لها أهل وساحة، وأسواق.
أما الصمت فما أهله بالكُثر.
وليس للصمت من ساحة. ليس للصمت من أسواق أيضاً، إذ لا باعة ولا شراة.

والشعر العربي، شأن الشعر القديم في أرجاء العالم، ولد في السوق والساحة. عكاظ، والفورم الروماني، وساحة القرية الأفريقية. ومع تراجع الانشاد عن النص، ثم انفصاله باعتباره فناً متميزاً. أخذت منازع معينة تؤثر في النص الشعري تأثيراً أعمق، من هذه المنازع معالجة ما لم تكن معالجته في الساحة والسوق.. وأعني هنا الاحتفاء بالصمت، كما الاحتفاء - طويلاً - بالصوت.

خذ هذه القصيدة، مثلاً:

غرفتها الفارغة/ كرسي أسود جلدٌ إلى اليمين/ كرسيّ أسود جلد إلى اليسار/ كنزةٌ سوداء خضراء/ ملولة/ مستهامة/ على رخام النافذة/ لا شيء: غرفتها الفارغة/ لا ريح/ لا نأمة/ البنفسج لائذ بالجدار/ والغيم يوغل، خلف الزجاج، في الزرقة الغامضة/ فجأة../ وقعٌ خفيضٌ ناعم في الممر/ فجأة../ عميقاً عارماً/ يملأ الغرفة/ غيابها.

«فجأة، عميقاً عارماً» ص ٤١ هنا، تمّ انتقاء الأشياء كلها، من أجل الوصول إلى صمت. صمت عميم عميق. ليست الأصوات وحدها التي توقفت. الغرفة توقفت. الألوان أيضاً. سواد الكرسيين والكنزة. السماء

أيضاً زرقة غامضة يوغل فيها الغيم. البنفسج (وهو غير المنسجم) حتى البنفسج يلوذ بالجدار. والمفاجأة. المفاجأة تنتظرنا. ثمت صوت خفيض ناعم.. ونود في لهفة صادقة أن نلتقي القادم.. حتى إذا جاء لم يكن إلا الغياب.

أظن التنويع على الصمت، هذا التنويع الذي يستغرق المجموعة، سجيّة جديرة بالاعتزاز والاعتزاز.

■

ملحوظة لي: هذه المجموعة الشعرية الفلسطينية المتفردة، وهي مجموعة أولى، لم تلوّح باسم فلسطين، وإنما ضنت به على أي مكان سوى العروق.

■

«رجل» أوريانا فالاتشي: بحث مغلق عن الحرية

● أوريانا فالاتشي، صحافية ايطالية عرفت بمقابلاتها الشهيرة للشخصيات السياسية، وهي مؤلفة كتب عديدة من بينها «مقابلات مع التاريخ» و «رسالة إلى طفل لم يولد البتة» و «بنيلوب في الحرب». لكن أوريانا فالاتشي هذه المرة مع «رجل» اغريقي في رواية ترصد صفحاتها الخمسمائة سيرة مريرة في عالم يضج بالعذاب، عذاب الجسد والروح، عالم يريد فيه الطاغوت أن يطفىء آخر التماعة في النفس، وأن يمنع حتى الدمعة من الانبجاس، لكن إرادة الحرية تتألق هائلة، تماماً في اللحظة التي يوشك فيها الجسد الضعيف أن ينهار. حتى في انهيار الجسد المنهك المرمي على الاسفلت البارد مثل خرقة مدماة. . حتى في هذا الانهيار تتعالى الروح، سامية، بهية، معلنة في مفارقة داكنة، إرادة الحرية. الرجل الذي أحبته فالاتشي سنوات ثلاثاً قبل مقتله في حادثة مدبرة، هو الشاعر والمناضل الاغريقي الكسندر باناغوليس المحكوم عليه بالاعدام إثر محاولته اغتيال الدكتاتور بابادوبولوس. لقد صدر العفو عن باناغوليس عام ١٩٧٣ وأطلق سراحه بعد حملة وطنية وعالمية. التقت فالاتشي باناغوليس في أثينا العام نفسه، وكان هذا اللقاء بداية علاقة مكثفة مفعمة بالحيوية استغرقت السنوات الثلاث التي سبقت مقتله.

«لقد حلت ساعة الرحيل، ونحن نمضي، كل إلى طريقه ـ أنا لأموت وأنت

لتعيشي. ووحدها الآلهة تعرف أي الطريقين أفضل». القول قديم، قدم اليونان، أنه لأفلاطون، وكان على أوريانا فالاتشي في أواسط السبعينات من هذا القرن، أن تتقرى، كلمة كلمة، هذا القول، وأن تعيشه بكل امتلائه الكامد، امتلاء الرماد حين تنطفىء الشعلة.

الرواية تتسم بتوتر شديد، في الحركة، وكذلك في المحاكمة الفكرية، بل ان توتر الحركة والمحاكمة يأتي متشابكاً بحيث لا يعود بالإمكان أن تعزل الحركة عن المحاكمة. ان الذهن يتقد في ضوء الانفجارات، وترتطم الأفكار وتتصادم مثل صخور مقذوفة بلغم أرضي، وفي هذا التوتر يختلط التسجيل والسيرة والمسعى الروائي.

كان باناغوليس ينتظر، وراء صخرة، مرور موكب الدكتاتور بابادوبولس: سيارة اللنكولن السوداء تجتاز القنطرة، عادة، في الساعة الثامنة. الساعة الآن هي السابعة وخمس وأربعون دقيقة تقريباً. شرع ذهنك يعمل بسرعة الكومبيوتر. السيارة تنطلق عادة بسرعة مائة كيلومتر في الساعة. مائة كيلومتر تعني مائة ألف متر. والساعة الواحدة هي ثلاثة آلاف وستمائة ثانية. وحين تقسم مائة ألف على ٣٦٠٠ تكون النتيجة حوالي ٢٧. كل عُشر ثانية متران وسبعون سنتيمتراً. لكن كيف يمكن أن تعد عشر الثانية ذاك؟ اعتاد جورغازيس أن يعد بصوت عال: ألف وواحد. ألف واثنان. ألف وثلاثة. وهذا ما سوف تفعله. استعدت التدريب مرتين لتعين الفترة بين ألف وواحد، وألف واثنين، وبين ألف واثنين، وألف وثلاثة. ألقيت نظرة أخيرة على المتفجرتين. وصلت السلك. وأنت الآن مستعد. الساعة هي السابعة وخمس وخمسون دقيقة. خمس دقائق لتستريح، ولتسأل نفسك.. اسمه جورج بابادوبولوس.. الرجل الذي سوف تقتله بعد خمس دقائق، وربما نُسفت معه. أي نوع من الرجال سيبدو لو رأيته عن قرب، من لحم ودم؟ أنت لم تره قط من لحم ودم. رأيته في الصور الفوتوغرافية فقط. في الصور الفوتوغرافية يبدو مثل عنكبوت صغير، يبدو مضحكاً. ذلك الشارب الصغير الحقير. تلكما العينان الصغيرتان البراقتان. لكن الدكتاتوريين مضحكون

دوماً، وذوو عيون صغيرة براقة. انهم يفتحون عيونهم واسعة كأنهم يريدون إخافة الأطفال - أطيعوا وإلا عاقبتكم! مرة قلت وأنت تتفحص احدى صوره الفوتوغرافية: أود أن أحدق في وجهه. لكن هذا حدث قبل اعداد الاغتيال. بعد اعداد الاغتيال لم تقل هذا لنفسك ثانية. خلال الأسبوعين الماضيين مثلاً، حين أخذت موضعك من الطريق لتضبط التوقيت والمسار، لتتأكد من الوقت المحدد لمغادرته دارته في لاغونيسي، ومن سرعة سيارته، وعدد السيارات في الموكب، خلال الأسبوعين كان بإمكانك أن ترضي تلك الرغبة في التحديق بوجهه. لكنك - بدلاً من ذلك - سرعان ما استدرت حين اقتربت سيارة اللنكولن السوداء. استدرت كي لا يعرفوك. لكن الأكثر أنك لم ترد التحديق في وجهه. لو نظرت إلى عدو في وجهه، وعرفت أنه رجل مثلك بالرغم من كل شيء، فإنك ستنسى ما يمثله. سيصبح قتله صعباً. والخير أن تضلل نفسك وتتخيل أنك تقتل سيارة. حتى حين كنت تصنع المتفجرتين، وتدرس الأوقات والمسافات، وتقسم مائة ألف على ثلاثة آلاف وستمائة، كنت تفكر بسيارة، لا برجل داخل سيارة. والحري برجلين، فهناك السائق. السائق، بحق المسيح! أي نمط من الرجال هو؟ نغل أم إنسان بريء؟ فقير يريد أن يعتاش؟ انه نغل بالتأكيد، فالناس الطيبون لا يصبحون سواقاً عند دكتاتور. أم تراهم يفعلون؟ عليك إلا تفكر بذلك، ففي الحرب لا تسأل نفسك أسئلة معينة. في الحرب أنت تطلق الرصاص، ومن عليه أن يتلقاه، سيتلقاه. في الحرب، العدو ليس إنساناً. انه هدف. مؤطر في العيون. لا غير. لكن سيكون الأمر في غاية السوء لو أن فقيراً كان إلى جانبه أو طفلاً. اللعنة! أمر في غاية السوء.. أصحيح أن نحارب الظلم بالظلم، إراقة الدم بإراقة الدم؟ لا. وحين تفكر بالأمر فإن من الغلط المقارنة بالحرب. لا شيء أكثر غباء ورجعية من فكرة الحرب. ترى متى اجتذبتك الحرب؟ انك لم ترد حتى أداء خدمتك العسكرية، وتأجيلاً بعد تأجيل، ارتديت البزة العسكرية أخيراً، وأنت في الثامنة والعشرين. حتى الامساك ببندقية كان ما يزال يثير لديك الغثيان. حينما فكرت بالسائق أحسست بالمرض، والعار. كان عليك أن تبذل جهداً لتكرر على نفسك ما كررته في مسامع رفاقك: العنف يولد

العنف. غضب المضطهد على المضطهد مشروع. ان ضربك أحد على خد فلا تدر له الخد الأخر، بل اضربه. هذا الرجل اغتال الحرية. وفي اليونان القديمة كان قاتلو الطغاة يكافأون بالتماثيل وأكاليل الغار. والقول الذي حفظته عن ظهر قلب: أنا غير قادر على قتل إنسان. لكن الطاغية ليس إنساناً. إنه طاغية. فجأة كان رنين القول زائفاً. كذبة تقريباً. ألهذا أحسست بالبرد؟ هراء. شعرت بالبرد لأنك كنت عارياً ولأن الدنيا البرد. زحفت بين الصخور. كم الحياة غير معقولة. انك تصل بين القطب السالب والقطب الموجب، و.. صوت اقتراب الموكب يبلغ أذنيك. نهضت. كان موكباً حقيقياً. كوكبة دراجات نارية تقوده. ثلاث من اليمين، وثلاث من اليسار. ثم تأتي السيارات المرافقة، سيارتا جيب الواحدة وراء الأخرى. ثم أربع دراجات نارية، وأخيراً اللنكولن السوداء. خلفها سيارة جيب أخرى. وكوكبة دراجات نارية. انها منطلقة على الجزء الأخير من الطريق المستقيم وهي تتقدم بالسرعة المألوفة. وسرعان ما ستختفي وراء المنحنى، وستجتازه، لتظهر ثانية. ازداد الضجيج، واتلعت عنقك لتنظر بصورة أفضل. راكبا الدراجات النارية الأولان كانا يبرزان ويتقدمان نحوك، واضحين بحيث كنت تميز ملامحهما.

عند اللوحة، صار هؤلاء ظلاً مشوشاً، وأدركت آنذاك أنه لم يعد بإمكانك تمييز أي شيء، وأن عليك الاعتماد على مبادهتك فقط، وعلى حسابك الزمن متذكراً أن المسافة بين اللوحة والمتفجرة الأولى ثمانون متراً، ولكي تقطع ثمانين متراً بسرعة مائة كيلومتر فسيكون الزمن ثلاث ثوان تقريباً. تقريباً! كان ذهنك يعمل بسرعة وحشية، وتصلب جسدك متوتراً: المشكلة تكمن في تلك الكلمة «تقريباً». إن كانت سبعة وعشرون متراً تقطع في ثانية، فإن الثواني الثلاث تعني واحداً وثمانين متراً، ولا ثمانين: هكذا ستنفجر المتفجرة الأولى جد متأخرة، والثانية كذلك، لأنها تبعد عن الأولى متراً واحداً، على مبعدة واحد وثمانين متراً لا ثمانين. الخلاصة: يجب تأخير التفجير. كم؟ الأمر بسيط: إن كان عُشر الثانية يعني مترين وسبعين سنتيمتراً، فيجب إذن تأخير التفجير ثلث عشر الثانية. تقريباً، تلك الـ «تقريباً» مرة

أخرى . . كل هذا بافتراض أن سيارة اللنكولن السوداء تظل منطلقة بسرعة ثابتة! بحق المسيح! كم يطول ثلث عشر الثانية هذا؟ طرفة عين؟ لا . أقل . ثلث عشر الثانية قدرٌ، وعليك أن تسلم نفسك للقدر ولا تضيع الوقت. لا تنظر إلى ساعة الايقاف. كن أبطأ في العد. ألف وواحد. ألف واثنان. ألف وثلاثة. ابطأ؟ ولكن ماذا تعني «ابطأ»؟

مضت سيارتا الجيب. مضت سيارة الاسعاف. مضت سيارة الراديو. مضى راكبو الدراجات النارية. والآن . . هي تأتي. سوداء. انها تقترب. تقترب أكثر فأكثر. سوداء. انها تغدو أكبر فأكبر، أشد فأشد سواداً. سوف تبلغ اللوحة بعد لحظة، وستكون ظلاً غامضاً. فلتتمن ألا تسرع اللنكولن، وألا تبطىء. انها لا تسرع. أنها لا تبطىء. انها لتكاد تصل. انها تصل. لقد وصلت. ألف وواحد. ألف واثنان. ألف وثلاثة. اتصال! لبرهة أبدية لم يحدث شيء. ثم مزقت طبلتا أذنيك بإنفلاقٍ حادٍ فظيع، وتفجر هدير حجر، وارتفعت سحابة غبار كالح. سحابة واحدة، انفجار واحد. متفجرة واحدة فقط انفجرت. أممكن ذلك؟ لم يمسسك حتى حجر واحد. أممكن ذلك؟ تحسست جسمك. شيء لا يصدق.

■

على أي حال. ينجو الدكتاتور من محاولة الاغتيال لأن المتفجرة الثانية خيبت أمل صاحبها فلم تنفجر. ويلقى القبض على باناغوليس بعد أن هرب الزورق الذي كان ينتظره عند شاطىء البحر، وتبدأ سنوات العذاب والتعذيب. تقول أوريانا فالاتشي متسائلة في رواية أخرى هي «رسالة إلى طفل لم يولد البتة»: «هل العدم أفضل من المعاناة؟ حتى حين أبكي لإخفاقاتي، لخيباتي، لعذاباتي، فإنني متأكدة من أن المعاناة أفضل من العدم. وعندما أنقل هذا إلى الحياة، إلى حيرة أن أولد أو ألا أولد، فإن كل عصب في جسدي يصرخ بأن الأفضل أن أولد لا ألا أكون».

لقد حقق باناغوليس لحظة حرية، ليقضي سنوات قيد. وحقق حريته مرة أخرى ـ بعد إطلاق سراحه وخوضه معارك سياسية ـ ليقضي إلى الأبد مهشم

الأضلاع في سيارته اثر تعرضه لحادث مدبر.

«إلى المستشفى سريعاً. المستشفى أم المشرحة؟ كان المستشفى جد بعيد. على أي حال.. لا فائدة منه الآن. في منتصف الطريق، هناك، حركت شفتيك للمرة الأخيرة، وقلت بوضوح: آه يا رب.. يا ربي! ثم سحبت نفساً طويلاً جداً، عميقاً جداً، وانفجر قلبك».

كانت خيبة بلا حدود. ان باناغوليس البطل الوطني يجد نفسه، بعد تبديل الحكم، محاصراً بأذرع الأخطبوط. أخطبوط السلطة الجديدة. حتى الذين كانوا يطاردونه داخل اليونان وخارجها عادوا يطاردونه داخل اليونان وخارجها عادوا يطاردونه الآن بعد أن وضعوا خبرتهم القديمة في خدمة السلطة الجديدة. وجاءت الأحزاب. جاء منفيو كندا، وجاء منفيو ألمانيا.. وها هي ذي لافتاتهم وراياتهم تملأ الشوارع.. انهم يملأون جيوب أنصارهم بالمال، ويحتلون الشارع. البطل الوطني منسيّ في هذا الكرنفال. مكتب صغير وهاتف صامت وسكرتيرة قلقة. أحياناً يرن الهاتف، ويأتي الصوت المكتوم: سنسحقك! الوثائق السرية التي بحوزة باناغوليس هي وثائق رسمية تبين تعاون وزير الدفاع الجديد، أفيروف، مع زمرة العقداء التي اغتالت حرية أثينا. وقد كان باناغوليس اتفق على نشرها في صحيفة أثينية. لهذا أصدر أفيروف أمره باغتيال البطل الوطني.

حتى الموت القاسي ذاته لم يقدم لحرية باناغوليس شيئاً. ان مشيعيه أنفسهم ليسوا سوى أذرع الأخطبوط.

رواية «رجل» بحث مغلق عن الحرية، لكنها شهادة مفتوحة عن بشر يناضلون في أوقات صعبة، من أجل حرية طاهرة.

انصات واحد في تسعة مواسم

مواسم الشرق لمحمد بنيس*

● من بين شعراء الحداثة المغاربة، يمكن للمرء أن يرصد لدى محمد بنيس سجيتين: مواصلة مسعى شعري (عبر عشرين عاماً)، وصلة بالمشرق تنتظم إشكالاته الشعرية والسياسية في تواشج مؤسس.

لم تكن هينة، هذه الدرب التي ظل يطرقها.. لقد كان في المفترق الذي طالما توقف عنده الشعراء المغاربة المحدثون المتشوفون إلى طليعية ما: التمتع الرخي بمنجزات القصيدة الأوروبية الغربية (الفرنسية والاسبانية) والأطلال والحذر. عبرها ـ على مشهد شديد التعقيد (وربما القسوة)، مشهد لن يكون الفولكلور تعبيره الأمثل.. أو البحث الدائب عن أشكال ومقاربات أعمق صلة بهذا الواقع الضاج «محا الطرائق وانتشى لم يسترح. جمعته أعياد الخطوط بلعبة من أين يبدأها» (ص ١٦). هكذا سيتم الانطلاق «من سهل الشاويّة» إلى خراب الشرق «تفضل يا خراب الشرق أنت ولايتي»، وهكذا ستتصل الأنهار: أبو رقراق ـ سبو ـ دجلة ـ بردى ـ الفرات ـ النيل. المدن والأماكن ستتداخل هي أيضاً وتتدافع: فاس، سبتة. تطوان. الدار البيضاء. عين الرمانة. تل الزعتر. القيروان. القدس. بيروت. دمشق. بغداد. عكا. الخرطوم. ظفار. يافا. مراكش. السيبة. الأطلس. الخليج. الشياح.

شارع الرشيد. وزان. زرهون. ورززات «ها هي المدن القريبة والبعيدة تلتقي في النار. كل مدينة تهوي وتخطف موتها. نسيت هتاف العشب بين دروبها. في القتل هذي الرقعة المجنونة اكتملت» (ص ٥١). وفي هذه «الرقعة المجنونة» يضطرب السجناء والسجانون، وتتشابك الأشياء والأحداث.. هكذا سنرى غسان كنفاني مع المهدي (لم يستشهد غسان في السيارة)، وثمت عبد اللطيف (اللعبي؟)، ومثلما تشابكت الأشياء والأحداث والمدن، سيتشابك الشعراء على امتداد المغرب العربي والمشرق، وسوف يكون محمد بنيس في المملكة المغربية من أكثر ممثلي هذا التشابك صراحة.

في الموسم الأول، موسم الطريقة (ص ١١ ـ ص ١٩)، يواجه الشاعر الكتابة «بطيئاً مرتبكاً»، وهو في ارتباكه يستعين بالتكوين الأول، الطفولة «حين أحب أواني الفخار، الزرابي، مسك الليل، الوشم، الزغاريد»، آنذاك لم يكن البرنوس البني متخذاً هيئة. الشاعر ينصب لوشوشة مترقبة (الصوت ما زال مشوشاً). من أين تبدأ اللعبة إذن؟ أنه يضع أمامه خطوطاً ثلاثة: البياض. الخوف المسموع. «وبينهما حجاب الضجة الأولى» ذلك المختزن في ذاكرة طريئة. عليه أن يحتفل بالهدوء. لكن «كيف احتفالك بالهدوء؟» ويأتي الجواب: خطوته السؤال، وتلك النخلة المباغتة. الشرق يومىء، وثمت عين الرمانة والملصقات، ثمت نخيل ودخان. ويعلو التساؤل عن هبوب يحرق الكف. هل «موسم الطريقة» تدريب على الانصات، على التلقي؟ إن كان الشعر ـ وهو كذلك ـ فناً صائتاً، فإن على الشاعر أن يحسن الانصات. المعادلة بين الانصات، والأصوات اللاحقة، تجد، في النص، تبريرها الذهني. أما تبريرها الفني فأمر مختلف. ذلك لأن الشاعر في القصيدة (بعامة) ينشىء ولا يبوح. انه يعالج مواد خاماً يبني منها النص وعلائق النص. كلنا قادر على البوح. كلنا مثقل بمحتشد الذكر والذاكرة والمصطلح والمجرد والصفة. لكن المبدع قاصد مقتصد. من هنا يقدم الموضوع المعين، بما هو موضوع معين، قوانينه الخاصة، آليته، التي لا تتماثل وموضوعاً آخر. ان الطفل الشرقي المباغت على عتبات الدباغين، الصباغين، العطارين، وعند باب المحروق، هذا الطفل الذي نسي التوشيح

في مباغتته . . كيف نراه؟ كيف نتابع «ملموس الوقع» لديه؟ انه ينصت أكيداً. لكن الطفل مثقل ببوح محمد بنيس . إذن ، نحن نراقب بوح الشاعر لا صورة الطفل . ان الصوت الكريم القادر على إيقاظ سوسنة ، كما هو قادر على إنشاد الملحون . . هذا الصوت ضاع في هدير الكلمات الكبيرة ، ويتعين علينا ، أن نستنقذه ، أو نترك البحث عنه ، في ما سيأتي من مواسم .

في «موسم الحال» (ص ٢٣ ـ ص ٣٠) ، يعود الانصات ، مكتمل المعادلة الذهنية أيضاً. لقد غدا الطفلُ صبياً (كنا صبياناً نلعب بالكلمات ص ٣٠) . وعند ضفاف نهر سبو ينهض كل شيء من نسيانه . الصبيان يهللون ويرتمون في الماء . خطوط اللعبة الثلاثة ما تزال هي هي : البياض (هل أصابعي ارتمت على البياض؟) ص ٢٣ ، الخوف المسموع (قرأت صرخته) ، وبين البياض والخوف المسموع . . تلك الضجة الأولى ، مشاهد النهب والحرائق وغبار العربات والعساكر.

المقطع الرابع من «موسم الحال» جدير بالاهتمام . إنه بانوراما تاريخ مغربي يفور بالدهشة مثلما «تفور ضفاف سبو بالرؤوس التي قطعت غدرةً» ص ٢٦ ، وهو تاريخ يمتد ويتمدد مع الملثمين . وجدل الجبال والسهول ، حتى ليبلغ القيروان ومصر والعراق ، بل أنه ليبلغ توقنا إلى تغيير العالم «وكان معي فتية في الشوارع . يستأذن الماء في رحلة ، والجهات اشتهت كيف نرتبط» (ص ٢٧) .

لكننا ، مرة أخرى ، نراقب بوح الشاعر ، لا صورة الصبي .

«موسم الحضرة» (ص ٣٣ ـ ص ٤٠) ، هو موسم الوعي . لقد اكتملت الأعضاء والذاكرة . . اكتمل العنف وتشخص «صباح الخير يا عنفي المدون بين حاضرة على قربي وبين النيل» (ص ٣٣) ، وجاء الحلم الأعظم «فابتهجي ، لنا حلمٌ يدمر خيلهم وقلاعهم . . أنت الحريق» (ص ٣٦) . لكن «موسم الحضرة» يحمل فجاءته الأخرى ، عبر «مواسم الشرق» على امتداد صفحاتها وأعمدتها (النصوص مصفوفة في هيئة أعمدة لا أبيات) ، هذه

الفجاءة الأخرى هي في مشهد الطفولة الصافي، المقطع الرابع ص ٣٨ - ص ٣٩:

كان لي القرار يقول هذا
الشرق حين لمحته يدنو
وينفخ في سماق اللوح
يفرش لي الحصير يصوغ
كفي عن رنين الحرف كان
الحرب أين طفولتي اختبأت
وكيف أقص عن غسقٍ
يصاحبني إلى باب دخلت
الجامع السفلي عند الصحن
كان الضوء منحدراً وجلبابي
يلف الركبتين لمحته يختار
لي قصباً يقول أكتب كتبت
الجرح ثم مشيت لم أذكر
حنين أصابعي والشهوة
الأخرى على شفتي سأذكر
سيد الكلمات يقرئني هواء
غامضاً يا سيد الكلمات
لا تغضب نسيت أصابعي بين
الذهول مربع الزليج رائحة
تسمى الياسمين لك القرار
طفولي انتسبت لمحنتها.

فجاءة الطفولة هذه، تتحمل تساؤلاً: أليست أقرب إلى الموسم الأول «موسم الطريقة»؟

«موسم الموت» (ص ٤٥ - ص ٥٥)، مهدى إلى الياس خوري. وفيه

عودة إلى عناصر الانصات المتوافرة في «موسم الحال»، المقطع الرابع بخاصة. المغاربة هنا يسيرون في طابورهم التاريخي (طابور طليعة هنا):

«يأتونك في جلباب بني هل تعرفهم لا تشغل سمعك هذا موكبهم هل تعرفهم يتقدمك الزيتون النخل تعلم كيف تسير إلى بوابة كوكبك البحري هواء قنطرة هل تعرفهم في كفهم الحنّاء انتبهت لزغاريد النسوان الفت عمامتهم هل تعرفهم نطقوا صامتاً وأشاروا فاس أشاروا بيروت أشاروا».

محمد بنيس مستريح الآن. والواقع يدفع عنه، بالملمس الخشن، الكثير من فضول الثقافة والكلام. أهذا الموسم أكثر صفاء؟ لا شك.

ليت البلاد تضيق
حتى نشرب الشاي المنعنع
ثم نرحل في اتجاه الموت
هذا الموت

لكأن بنيس نفسه أدرك ما يفعله:
«فلي الآن انصرفت كلماتك طائعة حتى اكتملت في طاعتها الأضواء» (ص ٥٥).

هكذا يكتمل الموسم.
قلت في إشارتي عن «موسم الحضرة»، انه موسم الوعي، هكذا سيتصاعد الوعي، ليجد، متردداً، مفرداته وعناصره، في أول الأمر، وليتثبت أكثر في «موسم الموت»، ثم لنراه في «موسم الصفات» (ص ٥٩ - ص ٦٧) واضحاً متألقاً، بقدر ما هو جارف جارح:

تكدست الشوارعُ لم يعد فصلُ
وجدت النور يسبقني ويركض بي
هنا قد حلت البيضاء في بيروت
وتم ظهور عكا في أزقة فاس
وانفجرت على أعتابها الكلمات.

كأن «موسم الصفات» الجدير بحديث أكثر تفصيلاً، هو أقل مواسم محمد بنيس تدفقاً، وبالتالي أوضحها مسؤولية فنية، ما دام الكبح والاقتصاد عاملين أصيلين في مسار العملية الانشائية (الشعرية هنا).

هكذا تمكن إحالة المواسم الأربعة إلى إشكالية محمد بنيس، هذه الاشكالية التي نجح في تقديم حل لها عبر «موسم الصفات».

محمد بنيس يجيد الانصات. انه يهجس حتى أخفى الأصوات وأدقها. بل ان الصوت الجوهري هو الذي يغريه بالانصات أكثر من سواه..

ومن جديد، تكتظ المحارة البحرية بـ «الضجة الأولى»، من جديد يكون البياض، والخوف المسموع، الخوف الخارج.

وحين يحسن محمد بنيس تطبيق معادلته، يكون قريباً، ذلك القرب الآسر لنا، الموهم بسذاجة عجيبة.

لكن الأمر ليس هكذا دائماً.. أحياناً، يكون بعيداً، ذلك البعد الآسر له، الموهم بتثاقف عجيب.

إنه جدل الحياة، جدل الشعر.

ومحمد بنيس يكتب دائماً، يجرب دائماً.. مثل كل من يحاول المستحيل، مثل كل من يحب الشعر.

(*) مواسم الشرق - محمد بنيس - دار توبقال للنشر - الدار البيضاء - المغرب - الطبعة الأولى ١٩٨٥ - ١٢٢ صفحة من القطع الوسط.

عن الشعر وأهله

«أمل» الشعر المصري

السبت، الحادي والعشرين من مايو (أيار) ١٩٨٣، فارق سرير الآلام، إلى الأبد، أمل دنقل، وهو في ذروة من إبداعه. لقد فقد الشعر المصري أمله في تطور الخطوة التالية لصلاح عبد الصبور تطوراً حاسماً، بعد أن اخترم السرطان الخبيث الجسد الناحل لأمل دنقل، ولسوف ينتظر الشعر المصري طويلاً حتى يبزغ فيه شاعر له سمات أمل دنقل الأساسية.

أهي نادرة هذه السمات؟

أهي عجيب؟
نادرة وليست عجيبة.
الاعتزاز بالمتحدر الطبقي مثلاً.

أمل دنقل ـ شأنه شأن يحيى الطاهر عبدالله الذي غادرنا مبكراً أيضاً ـ لم يفارقه لحظة اعتزازه بمتحدره الطبقي، بأنه فقير جاء إلى المدينة كي يكمل رحلة أردناها طويلة، وكان أمل أميناً إلى فقره، فكراً وسلوكاً وحركة... كان بعيداً عن تلك «الفهلوة» التي يتصف بها أولئك المثقفون الذين وضعوا أنفسهم في خدمة آلهة روما الجديدة، من أجل أن ينالوا بعضاً من فتات، وشيئاً من حظوة، ولقمة يحسبونها دسمة بينما هي لا تكفي كي يتبلغ بها كلب السيد نفسه. ان شريحة سائدة من المثقفين المصريين في الوقت الحاضر قد اتخذت «الفهلوة» الثقافية صنعة وحرفة، رفضها أمل دنقل بوضوح عجيب

وإصرار أعجب، بينما كان يتضور جوعاً، ويطوف كل ليلة باحثاً عن مأوى، ووسادة يريح عليها رأسه، حتى لو امتد تطوافه إلى الفجر. وقد كان يعرف المعرفة كلها أن طريقه إلى «الفهلوة» سالكة ـ لو أراد ـ وأن لديه من الموهبة والمثابرة ما يتفوق به على أولئك حتى في ميدانهم.

■

أمل دنقل لم يدخل «لمطبخ».

وأقصد بالمطبخ هنا، الفخ الذي أعدته البرجوازية وأجهزتها، للإجهاز على خطر المبدعين الذين يدفع بهم الشعب المصري إلى الواجهة. «المطبخ» ليس سوى العمل الصحافي في مبتدئه. وتمكن الإشارة في هذا المجال إلى الدور الذي قامت به كل من «روز اليوسف» و «صباح الخير». كان المبدع (الفقير غالباً) يطرق أبواب الصحافة بحثاً عن عمل، والمنافسة شديدة في مصر، فيلتقط رئيس التحرير الفطن، هذا المبدع، ويدخله في الدورة الجهنمية المرسومة.

أول مكان يلجه المبدع في المؤسسة الصحافية هو «المطبخ»... أي الصفحات المتعلقة بالمجتمع ونجومه وتغطية الحفلات. آنذاك يدخل المبدع عالماً غريباً، فيه كل الإغراءات التي راودت أحلامه زمناً طويلاً... أحلام الجائع. إنه عالم يمثل دورة ترويض للوحش الذي ما يزال خطراً. المرتب ضئيل، و «المطبخ» مفتاح إلى السهرات والبذخ. المبدع مجهول.. والمطبخ مفتاح إلى عالم السادة والمسؤولين الكبار، والشقق الفاخرة ونجوم السينما والمسرح والغناء. المبدع مكبوت والمطبخ مفتاح إلى «الحياة الحلوة»... الدولشي فيتا التي تتحدث عنها الأقلام والأفلام. وفي مسار الأمور اليومي، تستجد علائق، وتتوثق أخرى، وثمت من يتبنى، ومن تتبنى. أنه أول السلم إذن، وما عليك إلا أن توطد قدميك في الخطوة الأولى، وأن تتشبث بالمرقاة بكلتا يديك... كي تغدو جزءاً من هذا العال، ما دمت قد اعتدته، فلم يعد بمقدورك العيش خارجه.

ألم يكن صلاح عبد الصبور ضحية أنموذجية؟

أمل دنقل . . . رفض «المطبخ» .

■

أمل دنقل التزم .

ولا أعني هنا أنه أصبح «كادراً» في حركة أو حزب .

لكني أقصد أنه التزم بمفاهيم صارمة في المواطنة والوطنية وحركة التحرر العربي .

فهو محب لمصر إلى حد أنه لم ينبهر بتلك الجهات القومية التي اتخذت المزايدة على حب مصر شعاراً بينما لم تكن لتهدف، في الأساس، إلا إلى مكاسب معينة اضرت حتى بالحركة الوطنية المصرية التي لها، وحدها، الحق في التعبير عن مصالح مصر العليا، والنضال في سبيلها .

أمل دنقل ليس أحمد عباس صالح .

وأمل دنقل اختار الأرض المصرية . فيها أبدع، وناضل . وما كان محباً للمبالغة حتى وهو يقف مواقف مشهودة ضد التعسف، والتطبيع، ومن أجل الثورة الفلسطينية . لم يكن ليريد أن يمسي «شخصية» . . . تقابل السادات، أو تحاور مبارك . كان مكتفياً بنقائه، عازفاً عن الكرنفال، مطلقاً كلمته حرة، حقيقية، عميقة الجذور. أن قصيدته «لا تصالح» صيحة مناضلة في زمن صعب .

وما كان أمل دنقل يحب مغادرة مصر كثيراً، خاصة حين تهافتت «جهات» معينة على شراء المثقفين المصريين خدمة لأغراضها الضيقة .

جاء إلى بيروت مرة، لكن ليشارك في «مهرجان الشقيف الشعري» الذي نظمته الثورة الفلسطينية، حيث ألقى قصيدته «لا تصالح» . وحينما طلب منه أن يطيل إقامته ضيفاً على الثورة، اعتذر، لكنه زار دمشق أيضاً، ليشارك في فعاليات المهرجان نفسه حين امتدت إلى العاصمة السورية .

وبعد . . . ألم يكن أمل دنقل الشاعر الأكثر صلة بحزب التجمع ؟

■

أتذكر جيداً كيف التقينا .

كان ذلك في أوائل ١٩٨١ ، ببيروت . قبيل انعقاد «مهرجان الشقيف الشعري» .

المكان : فندق بوريفاج .
الزمان : ضحى مضطرب .

كنت سمعت بأن أمل دنقل سوف يحضر المهرجان . ما كنا التقينا من قبل ، لكن صورته واضحة لدي . وأسأل أحد الأشقاء المصريين : وأين أمل ؟ ، يجيبني : انه متعب ، نائم في غرفته .

نلتقي بعد حين . نتحدث عن الشعر طويلاً .

والحق أن حديث أمل دنقل في الشعر لا يشبهه حديث شاعر آخر . فإلى جانب الذكاء المفرط في الإشارة إلى دقائق الحرفة عبر هذه القصيدة أو تلك ، ترى كلامه يدور في مهرجان من الفرح والغبطة ، لم أجد شاعراً يحب قصائد أصدقائه الناجحة مثل أمل دنقل . وكأن تلك القصائد قصائده هو ، بل هي كذلك ، فله حق امتلاكها ، ما دامت قد اجتازت كل الحدود والحواجز كي تستقر في فؤاده . في إحدى الليالي سهرنا طويلاً . كان عدلي فخري يغني . وهو يتابع تطور الأغنية عنده . حتى ساعات الصبح الأولى بقينا معاً ، وغادرنا المكان معاً . اتذكر أن الفجر كان بارداً . وحين سألته : أهو ماض إلى الفندق؟ ، أجابني : لا . . . سأسهر في مكان آخر!

أية حيوية رائعة يتمتع بها الجسد النحيل والعينان الواسعتان المتقدتان!

طوال لقاءاتنا في بيروت لم أسأله عن صحته .

كانت أنباؤه تصلنا من القاهرة ، وكنا قلقين .

■

ترافقنا في الرحلة إلى دمشق. كنا في سيارة تقطع «ضهر البيدر» المغطى بثلوج كثيفة.

ـ الست بردان يا أمل؟

ـ لا...

وأشار إلى «الفيلد» العسكري الذي كان يرتديه. قال: إنه هدية من الثورة.

كنت في زيارة لمعسكر، وقد أهدوني إياه... إنه مبطن جيداً. لقد أصبحت فلسطينياً الآن!

والحق ان أمل دنقل ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالثورة الفلسطينية.

في نيسان (أبريل) من هذا العام ١٩٨٣، كنت في دمشق. التقيت بـ «فتحية العسال»، وأول سؤال وجهته إليها كان عن أمل دنقل. أجابتني: انه في المستشفى. أهو بخير؟

قالت: نزوره دائماً

وروت لي حادثة استشففت منها أن «أمل» ليس في وضع مريح. قالت لي اننا نظمنا، خلال حصار بيروت، مهرجاناً للتضامن مع الشعب الفلسطيني. ألقى أحمد عبد المعطي حجازي قصيدة عن صلاح عبد الصبور، أما أمل دنقل فلم نكن لنظن أن باستطاعته حضور المهرجان التضامني، لكنه حضر معتمداً على عصا، ورفض القاء قصيدته جالساً، لقد ظل واقفاً يلقي قصيدته، معتمداً على عصاه... وكانت القصيدة «لا تصالح»... لقد ضجت القاعة بالتصفيق، وظل الناس يهتفون وقوفاً لأمل. بعدها، عاد مباشرة إلى المستشفى.

في يوم سفرها، سألتها ثانية عن أمل، راجياً أن تبلغه تحياتي. قلت لها انني سأزور القاهرة كي أعوده في المستشفى إن لم يكن في الأمر مخاطرة.

لكنها قالت لي: الخير ألا تراه... إن حاله مؤلمة.

■

السبت، الحادي والعشرين من مايو (أيار) ١٩٨٣، فارق سرير الآلام، إلى الأبد، أمل دنقل. لقد فقد الشعر المصري أمله في تطور الخطوة التالية لصلاح عبد الصبور تطوراً حاسماً.

كيف؟

قبل «شجر الليل»، كان المرء يحس، وهو يقرأ قصيدة صلاح، أنه ذو أنامل تتشبث بأدواتها، مخافة فقدان السيطرة على الأدوات، أو اضطراب هذه السيطرة. . . يظهر هذا الأمر جلياً في نوع من «التعثر» في انسيابية النص أو تكامل منظومته العضوية، وربما كان أبسط مظهر للتعثر المعني «استهانات» عروضية تبلغ أحياناً مبلغ «الاختلالات». . . هل كانت «الخلخلة» مقصودة؟ أعني هل تسمو بالنص ذلك السمو الذي رأيناه في قصيدة «المغرب العربي» لبدر شاكر السياب؟

ان أية مقارنة، حتى لو كانت متعجلة، بين «الناس في بلادي» و «شجر الليل» سوف تبين الطريق الشاق الذي قطعه صلاح عبد الصبور في مسيرته الشعرية.

لكن من القادر، فنياً، على مواصلة الطريق الشاق؟ من المؤهل لتجاوز العثرات التي كانت في طريق عبد الصبور. والتي لم يتغلب عليها إلا قبيل وفاته؟

إن المشهد الشعري المصري ليس بالفتنة المرجوة. أمل دنقل وحده كان المستجيب للتحديث غير المصطنع، ووحده الذي استطاع أن يصل القصيدة المصرية بتطور القصيدة العربية والعالمية بعد صلاح عبد الصبور.

من هنا قلت أن الشعر المصري سوف ينتظر طويلاً حتى يبزغ فيه شاعر له سمات أمل دنقل الأساسية، إنساناً وشاعراً.

محمود والجائزة . . .

للمرة الأولى عربياً، تتألق «جائزة لينين الدولية»، تألقها الشعري.

وكالة نوفوستي أذاعت النبأ الأخاذ، بأسلوبها:

«أعلنت لجنة جوائز لينين الدولية التي تضم كبار ممثلي الرأي العام السوفياتي والعالمي أسماء الشخصيات البارزة التي جرى منحها هذه الجائزة الرفيعة لقاء نشاطها خلال الفترة ما بين عامي ١٩٨٠ - ١٩٨٢.

وقد منحت اللجنة الشاعر الفلسطيني «محمود درويش» جائزة لينين الدولية لتعزيز السلام بين الشعوب اعترافاً وتقديراً رفيعين لخدمات الشاعر المناضل من أجل المستقبل السلمي للشعوب. صحيفة «البرافدا» السوفياتية قالت عن «محمود درويش»: إن إبداع هذا الشاعر يترك أثره الكبير على حياة الشعب العربي الفلسطيني الروحية.

قصيدة محمود درويش «بيروت» حظيت بتقييم عال ورفيع باعتراف واسع.

والجدير بالذكر أن الجائزة الدولية الرفيعة هذه أسست منذ ما يزيد على ٣٠ عاماً، ومنحت للعديد من مواطني دول العالم من شخصيات الدولة والسياسة والمجتمع المرموقين وممثلي حركات التحرر الوطني والعلماء والكتاب البارزين ورجال الدين». انتهى.

■

للمرة الأولى عربياً، تتألق «جائزة لينين الدولية» تألقها الشعري.

فهي قد منحت الآن لشاعر تتقد فتوته المتمكنة بآفاق جديدة يستطيع الاندفاع عبرها واثقاً مكتشفاً في آن، وبهذا يتحقق الشرط الأول للمطابقة بين المثل والواقع في منح الجائزة التي تحمل اسم لينين.

والجائزة منحت لشاعر أكد في موقف حاسم شجاع (صموده في بيروت المحاصرة) تلك الروح المقاتلة التي وضعته في ضمير شعبه، وفي ضمائر الناس الطيبين، على امتداد مسيرته، مناضلاً وإنساناً وشاعراً. وهنا أيضاً يتحقق شرط ثان للمطابقة بين المثل والواقع.

والجائزة منحت باسم محمود درويش للشعب الفلسطيني وهو في ذروة من مصاعبه، ولمحمود درويش وهو في ذروة احتراقه الخلاق، فتحقق شرط ثالث للمطابقة. إن البحث عن مطابقات أخرى ممكن جداً.

■

في «أوراق الزيتون» الصادر عام ١٩٦٤ يمكن للمرء أن يتلمس (بعد أن يقطع رحلة الأعوام العشرين معكوسة) جانباً أساساً من شخصية محمود درويش، وطبيعة شعره، هذا الجانب، الذي أثر ويؤثر كثيراً في تطور القصيدة ويطبع الشخصية، أكثر فأكثر، بطابعه.

هنا لا أجد كلمة أدق تعبيراً عما أريد الإشارة إليه من: المشاكسة. محمود درويش شخص مشاكس.

شاعر مشاكس:

لا أريد الموت ما دامت على الأرض قصائد
وعيون لا تنام
فإذا جاء، ولن يأتي باذن، لن اعاند
بل سأرجوه لكي أرثي الختام!
يخيل لي أن عمري قصير

وأني على الأرض سائح
وأن صديقة قلبي الكسير
تخون إذا غبت عنها
وتشرب خمرا
وتكتب شعرا
لغيري،
لاني على الأرض سائح!

وأخيراً، أخيراً جداً، في «مديح الظل العالي»:
ما أضيق الدولة.
ما أوسع الثورة!

المشاكسة عند محمود درويش تجد تجلياتها في السياسة، والفن.

في السياسة، نراه المناضل الذي يتحمل مسؤوليته وما هو أكثر من مسؤوليته، لكنه يظل على منأى معين من الاحتراف. هذه المسافة ـ الفاصلة الواصلة ـ بين موقعي المناضل والمحترف، تكون في كثير من الأحيان الساحة المفضلة للعبة محمود، السياسية، والفنية أيضاً:

ستقول طالبة: وما نفع القصيدة؟ شاعر يستخرج.
الأزهار والبارود من حرفين. والعمال مسحوقون.
تحت الزهر والبارود في حربين. ما نفع القصيدة.

في الظهيرة والظلال؟ تقول شيئاً ما وتخطىء: سوف يقترب النخيل من اجتهادي، ثم يكسرك النخيل.

على امتداد الحياة الشعرية لمحمود، تشق الأسئلة السياسية الناتئة، والنابية أحياناً، طريقها إلى النص الشعري، مانحة هذا النص قدرة الخطاب والتوجه إلى الناس بتلك الأسئلة السهلة الصعبة التي تؤرقهم والتي يرددونها باستمرار. مما يوطد وشائج قربى وقرب بين قصيدة محمود والجماهير

(الجماهير فعلاً). ومحمود بارع في السؤال، جارح، وقاس. إنه مشاكس، يرى في هدهدة النعاس خطراً عليه، وعلى القصيدة والناس أيضاً. قد يبالغ أحياناً، لكنها المبالغة المدروسة لصانع ماهر، ومناضل عنيد.

في الفن محمود مشاكس أيضاً.

خرج من الأرض المحتلة، متوجاً بهالة من أزهار البرتقال.

طلب منه أن ينشد قصيدته: سجل أنا عربي. رفض. قال: في الأرض المحتلة معنى لقولي: سجل أنا عربي. أما هنا، في أرض عربية غير محتلة. فأي معنى لهذا القول؟

كان يكتب قصائد بسيطة، موقعة، معتنية اعتناء فائقاً بالتقفية... قصائد تحفظ رأساً تغني، وتردد...

لكن... أي جنون الجأ محموداً إلى قصيدة النثر؟

أمشاكسة أم بحث عنيد عن القصيدة الموعودة؟

كان المحبون الساذجون للقصائد البسيطة تلك يضعون أيديهم على قلوبهم خوفاً، وربما أشاح بعضهم بوجهه عن محمود. كانوا متعلقين بالذكرى، لكن الشاعر مجنون بالمستقبل. وقد رأى هؤلاء المحبون الساذجون قطيعة متزايدة بينهم وبين محمود، منذ «المحاولة رقم ٧»، وبالتأكيد في «أعراس» والقصائد التي تلت مروراً بـ «أحمد الزعتر»، ووصولاً إلى «قصيدة بيروت»، دون أن ينسى المرء، ولو للحظة، قصائد العلامات: سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا، وعز الدين قلق، مثلاً...

المشاكس ما يزال مشاكساً، لكنه يكتسب محبين جدداً، وقراء جدداً، وطرقاً جديدة.

■

في يونيو (حزيران) ١٩٨٢، كنا في بيروت.

وفي يوم الجمعة، الرابع من حزيران، كنا على موعد مع محمود درويش

وفواز طرابلسي وكريم مروة في منزل محمد دكروب بالرملة البيضاء.

ذلك اليوم كانت الغارة الإسرائيلية/ الأمريكية على المدينة الرياضية.

تحدثت مع محمود، بالهاتف. أجلنا اللقاء إلى يوم الأحد. لكننا لم نلتق. إذ كانت الرملة البيضاء هدفاً مفضلاً لطائرات العدو.

لكننا أخذنا نلتقي أحياناً. وكنت معجباً برباطة الجأش التي يتحلى بها الرجل.

مرة كنت عائداً إلى مسكن لي، وكان علي أن أقطع شارع الحمراء المعتم تماماً إلا من المصابيح اليدوية، وأضواء السيارات القليلة. إن المرء ليتعثر، حقاً، في سراه. فجأة في العتمة المكتنزة المشحونة، رأيت محموداً ينتظر سيارة أجرة، وحيداً. قلت له: كيف تغامر بنفسك هكذا؟ قال: وماذا أفعل؟ سألته: إلى أين تريد؟ أجاب: إلى «السفير». أوقف سيارة. قلت له: هل أمضي معك؟ لا أريد أن تذهب وحيداً...

بعد أن ازدادت كثافة القصف الجوي والبري والبحري، اضطر محمود إلى ترك شقته، ليسكن في فندق «كافالييه»، حيث كنت.

في الصباح يخرج محمود، ولا يعود إلا في المساء. ماذا تفعل يا محمود في شقتك القديمة؟

ـ أكتب. لا أستطيع أن أكتب إلا فيها.

ويقرأ علي أبياتاً مما كان يكتب.

باسم الفدائي الذي خلقا
من جزمة أفقا.

كان محمود يكتب «مديح الظل العالي» في بيروت الممزقة أشلاء، بيروت التي لم يكن أحد منا يصدق أنه سيغادرها حياً.

■

حين بدأ المقاتلون يغادرون بيروت، كان على محمود أن يغادر هو أيضاً. سجل اسمه في قائمة معينة. في الليل جاؤوه بملابس عسكرية وكلاشنكوف وجعبة وكوفية، أي بمستلزمات المقاتل المغادر.

سأل محمود: أي طريق سنسلك؟

أجابوه: البحر.

في الصباح لم يكن محمود مع المقاتلين على ظهر السفينة. وفيما بعد قال لي ان البحر يذكره بأشياء لا يحبها.

هكذا، بعد أن غادرنا جميعاً، كان على محمود أن يظل في بيروت ليشهد دخول الغزاة الإسرائيليين.

كانت حياته في خطر ماثل. والقلق يزداد. لكن الشاعر العنيد مضى بالأمر إلى نهايته. واستطاع الإفلات بأعجوبة من طوق المحتلين.

إنه لزمن كثيف.

وعن ذلك الزمن الكثيف كتب محمود درويش قصيدته «مديح الظلّ العالي» ماذا يمكن أن أقول عن «مديح الظلّ العالي»؟.

في فبراير (شباط) من هذا العام، التقينا بدمشق. اشتركنا في الأمسية التي أقامها اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين على مدرج الجامعة. بعدها سهرنا مع أصدقاء.

قلت لمحمود: لقد خرجت يا محمود على القصيدة. إن «مديح الظل العالي» خارجه على مألوفيات القصيدة.

أكنت محقاً؟

ولكن... أليس الشاعر خارج المألوف؟

نتنفس قليلاً خارج الكابوس

فـي «الأحـد الثقافـي» من «السـفير»، وبتـاريخ ٢٣ ـ ٥ ـ ١٩٨٢، كان محمود درويش مصلوباً على ثلاثة أعمدة، يتلوى في وجع نغار، أما القضية التي صلب نفسه من أجلها، وأحرق أصابعه، فهي القضية ذاتها: الشعر. وما دمنا لا نتوقع من أعلى هذه الأعمدة الثلاثة تهدجات المسيح الناصري. فعلينا أن نهدأ كثيراً كي نستطيع أن نلم ما يساقط وينهمر، في سلة واسعة بالتأكيد:

ـ إن ما نقرأه منذ سنين ليس شعراً.

ـ لعب طائش. لعب عدمي. تجريبية فضفاضة. صبيانية. جهل باللغة. ومثابرة منهجية على تدمير الشعر العربي. نمطية. انحطاط. رتابة. رجعية. سلفية. ظلامية. ارتزاق. احتيال.

وأخيراً... سطوة الرمادي، والثورة المضادة.

ماذا تبقى لنا، إذن؟

ـ «وماذا جرى للشعر؟ سيقال. كما قيل من قبل. إن سؤال الشعر هو جزء من سؤال المسألة الثقافية العربية الراهنة، التي هي جزء من سؤال الوضـع العربي برمته. وسيقال أن الإنهيارات التي تصيب بنى المجتمعـات العـربية تشمل الشعر أيضاً. ربما.. ربما، ولكن تاريخ الشعر يقدم لنـا الـكثير من الأدلة على أن ازدهار الشعر، أو انحطاطه، ليس مشروطاً، دائماً، بمستوى

تطور المجتمعات، وأن في وسع القصيدة العظيمة أن تنهض من الخراب. إذا كان يحركها أمل عظيم، أو يأس عظيم».

وماذا نفعل؟
- الدفاع عن أدوات الشعر الأولية.
- محاولة استنباط بعض القواعد والضوابط.

هكذا ترتسم اللوحة الشائنة، بألوانها الثقيلة. لوحة كابوسية، لا نصد عنها، ولا نصدها، فهي السلطان والسطوة والمنبر. . . وليس بين يدي محمود درويش ما يدفع به عن الشعر سوى حجرين صغيرين، كتب على أحدهما «أدوات الشعر الأولية»، وعلى الثاني «القواعد والضوابط». هل الأمر مريع إلى هذا الحد؟

ربما كان لحماسة محمود درويش ما يبررها، والحق أن الشعر العربي الجديد لا يكاد يجد ملامحه الأساسية، إلا بعد تدقيق وتأن، وإلا بعد استبعاد طبيعي للكثير مما ينشر، وهو ما لم يختص به الشعر العربي وحده. . ترى، كم شاعراً كان يكتب أيام ماياكوفسكي؟

وهنا، لا بد لي من إشارة صغيرة، فقد أحسست أن حديث درويش موجه، فيما أرى، نحو ما ينشر في الصحافة اليومية، ويخرج من بين أيدي أولئك الذين سماهم «موظفي الأقسام الثقافية». مما يبقي لنا مساحة للشعر غير التي يسيطر عليها من قصدهم درويش، حتى داخل الصحافة اليومية ذاتها. فلنتنفس قليلاً خارج الكابوس. . .

إن الحركة الشعرية الجديدة لم تأت على صهوة جواد أبيض، ولم تركب رغوة موجة بيضاء، ولم تشق طريقها عبر «الصحافة اليومية»، وستظل هكذا، دؤوبة، عنيدة، أصيلة بعيدة عن بهارج المهرجان وساحة السوق، تختار منابرها بالدقة التي تختار فيها عناوين القصائد، وتبني ملامحها شيئاً فشيئاً بتلك الأناة التي تشكل معها بنية النص الشعري، وتشكل قوة واقع لا بد لها من الأخذ بأيدي النقاد الذين لا بد لهم آنذاك من «محاولة استنباط بعض القواعد والضوابط».

ولدينا منابر أصيلة : «الطريق »، «الكرمل »، «مواقف» وأضيف «البديل» ضيفاً.

فلنتنفس قليلاً خارج الكابوس.

ما زالت لنا «أفراحنا القليلة». والناس لا يسخرون بنا يا محمود، الناس الذين نكتب لهم وعنهم يعرفوننا، يقرأوننا، ويحفظوننا... أتذكر يوم كنا في «صور»، أو بين الطلبة في دمشق وجامعة عدن؟ أو في العديد من اللقاءات الحميمة الأخرى؟

تقول : والمهرجانات؟

مهرجان القصيدة، يا محمود، هو في الالتماعة الخبيئة للعينين، وهما تقرآن. في انشدادة الخيط المرهف مع نبضة القلب... الخيط المرهف الذي نسجناه دقيقاً رقيقاً عبر «ربع قرن» ويزيد.

فلنتنفس قليلاً خارج الكابوس..

■

في «أنقذونا من هذا الشعر» مسعى للنقاش (علي هنا أن استبعد ردود فعل أولى يحكمها التشنج)، وهو نقاش ضروري، ما دمنا نؤمن بطلاقة الشفتين، والتعدد في زوايا النظر. إن «السلة الواسعة» يمكن أن تقلب، فعلاً، على عدد من الرؤوس، فهذه الرؤوس لن تعتمر إذاك سوى قبعاتها ذوات الزخرف الفذ، لكن النقاش، كما أرى، ما يزال قادراً، عبر العملية الجدلية، على إزاحة الأبخرة المتكاثفة داخل رؤوس أخرى حولها، ما يزال قادراً، كذلك، على تجنيب حركة الشعر الجديد، والجيل الفتي، خسارات أخرى. ما المرتكزات التي يمكن أن نعتمدها فننطلق منها إلى نقاش هادىء؟

- الجهل باللغة.
- النمطية.
- الظلامية.

- الاحتيال .

لست في حاجة إلى التفصيل .

لكن قد يكون مفيداً أن أشير إلى التداخل بين هذه الظواهر الأربع ، وهو تداخل منطقي مسبب ، وإلى ما يفرزه هذا التداخل من النصوص .

فالجهل باللغة (تركيباً وفلسفة) يبعد الكتابة عن مشروعيتها . الكتابة تغدو آنذاك شيئاً خارجاً، أمراً بلا علاقة . وتعاملاً مع لا واقع ، ومن هنا - ومع استنفاد مجموعة الألعاب الأولى - يأتي التشابه ، وتحل الشبهة ، فلا أشياء ، ولا مواضيع ، ولا موضوعات . إن كتابة مثل هذه في زمن صعب ، وواقع ضاج ، واحتمالات لاهثة ، أقول ان كتابة مثل هذه ، منفصلة عن زمانها ومكانها ، لا يمكن لها إلا أن تسقط في ظلامية الاختيار ، ما دامت قد انتبذت لها موقعاً قصياً عن المتحرك والجوهري والمتقدم والمناضل في عصرنا .

امرؤ يرتكب هذه الكتابة ، ويعرف أنه يرتكبها ، هو الأشد خطراً على حركة الشعر العربي الجديد ، لأنه يتوسل بالحيلة والاحتيال ، في محاولة إخفاء ما ارتكبه ، وتضليل من قرأه ، وإفساد من اتبعه .

أما الآخرون الذين لا يفقهون ما يفعلون ، فأمرهم أيسر ، وشأنهم أهون ، وربما انتفعوا بنقاش كهذا .

لنتنفس قليلاً خارج الكابوس . . .
وبدلاً من اللعنة نتقاذفها مثل كرة من نار . . .
وليدخل القراء والنقاد والشعراء في النقاش المجدي .
بدلاً من التشنج ، ورد الفعل السريع .
بدلاً من دفع التهمة بمثلها . .
بدلاً من العداء والاستعداء . .
لنتنفس قليلاً خارج الكابوس . . .

إننا في الواد المقدس . . في مملكة الشعر ، ولسنا في أرض أخرى .

عالم مليء بالشرفات
أمدينة للشاعر؟*

بينك وبين أبي تمام، قربى المنتأى المستمر. وبينك وبينه تلك الإطلالة على المدن الجهمة. لكنك تحاول أن تجيء مدينتك، لا كما جاءها حبيب. انت تحاول أن ترى البيوت بيوتاً لا أجداثاً... وها انتذا تطل على مدينة:

الحجر والرمل، في هذه المدينة العربية التي تراها اليوم في زورة أولى بالرغم من نصف القرن الذي أمضيته، الحجر والرمل في لقاء هو إلى صدام الأزل والتحول أقرب، كأن للمواجهة ألف وجه، وكأن أي وجه من هذه الوجوه الألف مواجهة كاملة. ثمت الشجرة والعوسجة، والقائم والقادم، وثمت... إلى الغرب منها، ولا أقول المغرب: ماء الأردن حيث المسيح والفدائيون خطوات صلاة. تدخل المدينة كمن يدخل نفسه، كمن يتوزعها.. هذه جبال مكة، وتلك نيراننا، مضافة وقاعدة. وحلم يلتم ويلتئم. ذكرى وذاكرة. وشرفات مفتوحة على عالم نلتمسه بأصابع متحرقة، حتى لنكاد نمسه وإن ظل في المنتأى.

عمّان، بهذا المعنى، معدن يتشكل في جهد بشر مفعمين توقاً، إنها مدينة يحق لها، ويحق لنا فيها، أن يكون التوق مؤسساً، وأن يغدو المجرد محدداً.

هكذا تصبح صبوة الحرية شرعة حياة أثيرة.

---

* من الكلمة التي ألقيت في تسليم جائزة عرار بعمّان، الخامس والعشرين من آب ١٩٨٦.

هكذا تغدو مدننا، وعمان بينها، ملاعب وأعمالاً فذة، عزة واعتزازاً، لا بتاريخ تقادم حتى انقطع أو كاد، إنما بتاريخ يتأصل بقدر ما يتأسس، لحظة لحظة، ويوماً بعد يوم... آنذاك لن آتي عمان من نيقوسيا، بل سآتيها من ثغور العرب وعواصمهم... من الدار البيضاء أو البيضاء، من الجبل الأخضر أو الحديّدة، من أبها أو بسكرة.

آنذاك سيرتفع النشيد، سترتفع التهاليل... ملايين الأصوات تتعالى، ويمتلك الناس أجنحة.

آنذاك سيعود مصطفى وهبي التل، فتى، وستكون مساواتية بشرّ بها في شعره ومسلكه أقنوم كون وكائنات.

أي نور سيصعدون إلى السماء...
وأي مقصف هائل ستكون هذه الأرض...
أي فولكلور ستغدو الحياة!.

قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وقعت بين يدي نسخة من «عشيات وادي اليابس»، نسخة من تلك الطبعة الأولى المتواضعة. وأتذكر أن رفيق دراسة أردنياً جاءني بها.. وكنا في بغداد، نقطع أولى الخطوات المتوجسة في طريق الشعر الطويل...

من يدري... لعل هذا الصديق الأردني القديم، هنا، في هذه القاعة أو تلك المدينة...

لأقل لهذا الصديق أن هديته كانت، وتظل، واضحة الأثر والجبين. لأقل له أن تلك النسخة من «العشيات» علمتني، حينها، أموراً عزيزة متصلة بمثل الشعر وعوامله، بل إن هذه الأمور العزيزة ترسخت حتى أمست قداسات...

وإن كان لا بد من تفصيل، فلتكن الإشارة إلى مبدأ التحديث، إلى حرية النظر والتناول، إلى قرابة الناس ومقاربتهم، باعتبارهم منهلاً أساساً للنص، وليس معبراً له.

تعلمت من مصطفى وهبي التل أن أسمي الأشياء بأسمائها، الشجرة شجرة، والمكان مكان، والأسود أسود.

تعلمت منه احترام الحواس «هذه البوابات الخمس للمعرفة . . .»، باعتبار الشعر، أيضاً، واصلاً، مسعى نوعياً نحو المعرفة. تعلمت منه أن احترام اللغة متصل بتفعيلها، لا بتقليلها إلى ما يسمى «لغة شاعرية».

الشعر كدح في مادة خام.
لا ملامسة مرمر صقيل.

■

أشرع مصطفى وهبي التل يشق مجراه الأعمق في القصيدة الأردنية؟ وهل سيكون له ما كان لوالت ويتمان في القصيدة الأمريكية؟ لقد وضع عرار شروطاً صعبة للقصيدة النيوكلاسيكية، شروطاً ما كانت هذه القصيدة قادرة على المضي بها، بدون أن تتخلخل فتتحول. كان على عرار أن ينتظر طويلاً . . . أن يمد قوساً يعبرنصف قرن، ليلتقي مع النهوض الشاب للقصيدة الأردنية الجديدة. عبثاً نبحث عن الرجل وميسمه فيما سبق هذا النهوض.

إن المثل الأكثر عمقاً وحياة في شعر عرار نراها في جهود شعراء الأردن الشباب: إبراهيم نصرالله، يوسف عبد العزيز، زكريا محمد، غسان زقطان، أمجد ناصر، وسواهم، ممن يشقّون على أنفسهم، ويشقون، من أجل قصيدة عربية جديدة، أمينة لملامح هذه الأرض وتاريخها وتلاوينها مقدمين اسهاماتهم في الحركة الواسعة لتحديث الشعر العربي.

رائحة معتقة

أساطير الأوّلين

حوار خطر

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف :

«لقد انحبست السماء هذا العام ، يا بيدبا . وأخلفنا الغيث . وصار الناس في عنت من أمرهم وضنك عيش . فهل الجباية واجبة»؟

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك :

«أعانك الله أيها الملك . أنت رأيت الرأي الحق . فوجدت الجباية غير واجبة . فلم سألتني»؟

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف :

«لي رأي وللبلاد رأي . ان للجنود معاشات وارزاقاً وسلاحاً . . . فمن أين لي أن أصيبها لو أعفيت الناس من جباية هذا العام»؟

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك :

«وماذا تراك صانعاً بالجنود؟ أنت في جزيرة صغيرة بعيدة لا يطمع بها أحد . وأقرب الممالك إليك يتولاها أشقاؤك وأبناء عمومتك الأقربون . . . ماذا لو أعفيت الناس من الجنود فتعفيهم من الجباية إلى أبد الآبدين»؟

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف :

«أتظن يا بيدبا أني سأظل ملكاً بعد أن أعفي الناس من الجنود»؟

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

«العيش بين الناس مثل الناس، خير من الموت بين الجنود بأيدي الجنود».

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

«خير لي أن أموت ملكاً من أن أعيش متصعلكاً».

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

«أصلح الله الملك... وهل الامارة إلا بالجنود؟ أوليس العقل والعدل فيض الله على عباده؟ ومن يكون الجنود إذا غمر فيض الله البلاد والعباد وأنبت الصحراء جناناً، وبرأ الإنسان حنانا، وهيأ لكل أمرىء من أمره رشداً»؟

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

«كأني أراك مقتولاً يا بيدبا... بأيدي الجنود. لو سمع سواي قولك».

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

«لتقر عينا أيها الملك... ولتثلج فؤاداً... ولتطب نفساً، لم أحدث سواك. ولن تحدث سواي. ما خوفي أنا من القتل... لكنه خوفي عليك».

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

«الحكم عقيم يا بيدبا...»

نبات الأرض

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

«انت يا بيدبا. جئتنا من بلاد بعيدة. فأقمت بيننا، وصرت واحداً من بيتنا. لكني لا أراك واحداً منا...»

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

«أعلم أيها الملك الهمام، أن نبات الأرض مختلف، وان أشبه بعضه بعضاً. ألا ترى أن الرمانة في سمرقند هي غيرها في شيراز أو بلاد مصر. ان الثمر يغتذي ماءه وهواءه من الأرض التي نبت فيها. ولو اقتلعت من سمرقند شجيرة رمان وازدرعتها في شيراز، لكان لرمانتها طعم شيراز ولونها. ان للمرء عروقاً، كما أن للشجرة جذوراً».

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

«لكن الحكمة يكسبها المرء، يا بيدبا، من أهل الأرض جميعاً. . . ألا ترى إلى نجم الصباح يتطلع إليه الملأ نوراً وبشيراً، أينما كانوا في البحر أو على الغبراء»؟

قال بيدبا الفيلسوف:

«صدقت أيها الملك. . . لكن من منا بالغ ما بلغه نجم الصباح»؟

الزهرة والنجم

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف، وهما جالسان في حديقة القصر «أراك تنعم النظر فيما لا يستحق عناء النظر.

أنت تتملى الزهرة التي ترتعيها حملان الربيع،

كمن يتملى سر الحياة. . .».

قال بيدبا الفيلسوف:

«أثلج الله فؤادك أيها الملك. . . إن في هذه الزهرة التي ترتعيها حملان الربيع، أسراراً.

أخفى من أسرار النجم البعيد. . .

ألا ترى أن النظر في الأرض يبلغنا السماء،

كما أن النظر في السماء يبلغنا الأرض»؟

قال دبشليم الملك:

«لكن الأرض ما تزال خافية علينا، شأنها شأن السماء...».

قال بيدبا الفيلسوف:

«نبدأ بالزهرة والنجم».

نصيحة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

«الأعداء يحيطون بنا، ويكيدون لنا. كتائبهم عند الثغور، ورسلهم على الأبواب... فماذا ترانا فاعلين»؟.

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

«أعزك الله أيها الملك. وحفظ البلاد والعباد. أيها الملك الهمام... حصّن الثغور، وأغلق الأبواب. فإن حصنت ثغورك، وأغلقت أبوابك، وقف الرسل عند الثغور، وغفلت الكتائب عما يدور. ولينطلق سعاتك ودعاتك، أيها الملك، يبصرون الناس بأمرهم، ويعدونهم ليوم الشدة والعـدّة، فإن تركتهم غافلين لم تغن الثغور والأبواب شيئاً. فالسلاح بأهله، والثغر بجنده، والباب بحماته».

الأمير والتمساح

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

إلا قصصت علينا قصص الأولين، لعلك تزيح عن صدرنا غم هذه الليلة وهمها، فقدقيل: «لا يبهج النفس مثل خبر سالف، ونجح طارف»... وربما صار خبرك نجحاً، ألم يبلغك قول القائل «الملك المغموم ملك مهزوم»؟

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

من أثار مصر، أيها الملك الهمام، ومن مبانيها العجيبة، حائط العجوز، واسمها دلوك القبطية. إذ ولدت ولداً، فأخذت له الرصد، فقيل لها: يخشى

عليه من التمساح. فلما شب الغلام خافت عليه، فبنت الحائط، وجعلته من العريش إلى أسوان، شاملاً لكورة مصر من الجانب الشرقي، وقيل بنته خوفاً على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها. وقد قيل أنها أرادت أن تخوف ولدها من التمساح حتى لا ينزل البحر، فصورت له صورة التمساح، فرآه شكلاً مهولاً، فأذهله، وأخذه الفزع والهم، فضعف وانسل إلى أن مات.

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

اتراك أردت أن تقول ان الهم الكبير منجاة. والهم الصغير مهلكة؟

قال بيدبا: أجل، أيها الملك.

قال دبشليم الملك من ذكّرك بضّرك.

حلم بيدبا

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

أنت تقول بدولة الإنسان، وأنا بدولتي، ولست أرى بين الدولتين فرقاً أو فراقاً... فماذا ترى؟

اعلم أيها الملك الهمام أن دولتك، مهما عدلت وأصلحت وأنت العادل الصالح تظل دولتك أنت فأنت الآمر الناهي، وأنت المحيي المميت وأنت المغني المفقر. أما الناس، في دولتك أيها الملك الهمام فليسوا غير حجارة الوادي لا تصدر الصوت إلا صدى ولا تنبت النبت إلا حين يأتيها غمامك ندى.

قال دبشليم لبيدبا الفيلسوف؟

هذه دولتي فما دولة الإنسان؟

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

اعلم أيها الملك الهمام، أن ليس في دولة الإنسان ملك ولا مالك. الأرض وكنوزها للناس لسواد الناس، والعامة تختار من بينها ملاء يعينها في التسيير والتدبير واحقاق الحق واقامة الحد إن كان لا بد من حد واجماع الأمر في الملمة إذا دهمت والداهية إذا ألمت... دولة الإنسان يشيدها الإنسان... ومن رآها رأى الجنة.

فتنة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

«ها انتذا، يا بيديا، في هذه الجزيرة، تتوسط الغياض والأمواه والحور العين، فهل تراك فاقداً شيئاً لو تركناك هنا وارتحلنا».

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

«وأنت أيها الملك الهمام... هل تراك فاقداً شيئاً لو تركناك هنا وارتحلنا؟»

قال دبشليم الملك: «أفقد قصري هناك وملكي».

قال بيدبا الفيلسوف: «كوخي هنالك أيضاً وقومي».

قال دبشليم الملك: «أراك تساوي بين القصر والكوخ، والملك والقوم، بل تكاد تفضل الكوخ على القصر، والقوم على الملك».

قال بيدبا الفيلسوف: «ليس ما أقول مفاضلة».

قال دبشليم الملك: «سألتك عن الجزيرة، فنهيتني عن القصر».

قال بيدبا الفيلسوف: «لو كنت شدت قصرك بيديك أيها الملك ما نهيتك. لكني شدت كوخي بيدي، فمن ينهاني عنه؟»

قال دبشليم الملك: «لنترك الجزيرة، ولنبحر عائدين إلى المملكة فوالله لئن استطال حديثك لفتنتني عما أنا فيه».

يا له من بائس ذلك الشاب!

حكى القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي في كتابه «أخبار المذاكرة ونشوار المحاضرة»، قال حدثني أبو محمد يحيى بن محمد بن فهمة، قال حدثني بعض الكتاب، قال:

«سافرت أنا وجماعة من أصدقائي نريد مصر للتصرف، فلما حصلنا بدمشق، وكان معنا عدة دواب عليها ثقل غلمان لنا، ونحن على دوابنا، أقبلنا نخترق الطريق، لا ندري أين ننزل، فاجتزنا برجل شاب، حسن الوجه، جالس على باب دار شاهقة، وبناء فسيح، وغلمان بين يديه، فقام إلينا وقال أظنكم سفراً وردتم الآن، فقلنا نحن كذلك، قال فتنزلون علينا، وألح علينا، فاستحيينا من محله وحسن ظاهره وهيئته فحططنا على بابه، ودخلنا...».

المهم أن هؤلاء المسافرين ظلوا أياماً سبعة، في هذا المنزل الدمشقي، يتقلبون على فرش النعيم وأفخاذ الجواري، متمتعين بجميع ما يحتاج إليه الضيف «من طعام وشراب وجماع»، وحين استأذنوا في اليوم السابع، أرادوا أن يتعرفوا مضيفهم، فروى لهم قصة طويلة، كيف احتضر أبوه الغني، وكيف سأله قبل موته إن كان سيتدبر أمره، وأي حرفة سوف يحترف...

قال الابن: أكون قواداً.

بكى الأب ساعة، ثم مسح عينيه، وقال لولده:

«لست بصارف عنك هذه الصناعة، فإنها ما جرت على لسانك إلا وقد دارت في فكرك، ولا دارت في فكرك إلا وأنت لا تنصرف عنها أبداً بعدي . . . » .

ثم يوصي الأب ابنه هذه الوصية البارعة :

«تجلس إذا أنا مت أياماً. فإذا انقضت انفذت وصيتي، وتجملت بذلك عند الناس، وقضيت حقي، ثم تظهر أنك قد تبتلي فتشتري من الجواري المغنيات والسراري كل لون، ومن الغلمان المردان والخدم السود والبيض ما تحتاج إليه وتشتهيه، ودارك كما تحب في السرور، وتنوف على سرور من تريد أن تعاشره.

ولا تدخل إلا الأمير والعاقل، وادعهما مرة كل شهر أو شهرين، وهادهما أيام الأعياد بالألطاف الحسنة، وألقهما في كل أسبوع مرة، واجتهد أن تعاشرهما على النبيذ في دورهما، والقهما بالسلام وقضاء الحاجة، واتخذ في كل يوم مائدة حسنة، وادع القوم ومن يتفق معهم، وليكن ذلك بعقل وترتيب، فإن ذلك أولاً لا يظهر مدة، فإذا ظهر صدق به أعداؤك، وكذب به اخوانك، وقالوا هذه على سبيل المجون، والشهوة على طريق التخالع أو مسامحة الأخوان، وإلا فأية لذة له في ذلك، وليس هو مجنوناً ولا مخنثاً ولا فقيراً ولا محتاجاً إلى هذا، فيبقى الخلاف فيك مدة أخرى وقد اتصلت مع سلطانك، ولعل العشرة بينكما قد وقعت، فيستدعي مغنياتك، ويسمعهن في منزله، فيصير لك بمنادمته رسم، وجاهك باق بملاقاتك لهم، فهم يحتاجون إليك، وسيحافظ عليك الأمير، فتصير في مراتب ندمائه، وفي جملته، وتصير قيادتك نفعاً عليك بغير ضرر، وتخرج عن حد القواد المحض الذين يؤذون وتكبس منازلهم» .

والآن يأتي دور المضيف في الحديث إلى ضيوفه:

«اعتقدت في الحال أن الصواب ما قاله. ومات في علته. فجلست ثلاثة أيام، ثم أنفذت وصيته وما فيها، كما أمرني، ثم بيضت الدور، وهي هذه،

وزدت فيها ما اشتهيت، واستزدت في الآلات والفرش والأبنية كما أردت، وابتعت هذه الجواري والغلمان والخدم من بغداد، ودبرت أمري على ما قاله لي من غير مخالفة لشيء منه، وأنا أفعل هذا منذ سنين كثيرة، ما لحقني منه ضرر ولا خسران، ولا فيه أكثر من إسقاط المروءة وقلة الاكتراث بالعيب. وأنا أعيش أطيب عيش وأهنأه، وأمر معاشي عليهم، ودخلي بهم أكثر من خرجي، ونعمتي الموروثة باقية بأسرها ما بعت منها شيئاً بحبة قط فما فوقها، وقد اشتريت من هذه الصناعة عقاراً جليلاً، اضفته إلى ما خلف علي. وأمري يمشي كما ترون»...

الضيوف الذين لم يعودوا مبهوتين يتحدثون الآن إلى مضيفهم

«يا هذا... فرجت والله عنا، وأريتنا طريقاً إلى قضاء حقك»... ومازحوه قائلين: «فضلك في هذه الصناعة غير مدفوع، لأنك قواد ابن قواد، وما كان الشيخ ليدبر لك هذا الأمر إلا وهو بالقيادة أحذق منك»...

وينهي الضيوف حكايتهم: «فضحك وضحكنا، وكان الفتى أديباً خفيف الروح وبتنا ليلتنا على تلك الحال، فلما كان من الغد جمعنا له من بيننا ثلثمائة دينار، وحملناها: إليه. ورحلنا عنه».

ها نحن أولاء نشهد ظاهرة عجيبة في طرافتها حد الكاريكاتير، وإن كانت في جوهرها ممكنة الحدوث، إن لم نقل كثيرة الحدوث، متوافرة الأخبار.

لدينا أولاً هذا الشاب القواد الذي أورثه أبوه نعمة. انه على أي حال قواد.

وإزاءه يقف الأمير، بجنوده وشرطته وعسسه وحاشيته. للوهلة الأولى يبدو التناقض بين الاثنين مستحكماً، (تناحرياً) كما يقال هذه الأيام لكن هذا الشاب الذي ينفذ وصية أبيه البارعة، يستخدم الأمير (بالألطاف وقضاء الحاجة فيغدو الأمير عوناً له في هذه الصناعة...) إن الأمير ليقترب من تفصيلات الحرفة ليدخل فيها دخولاً.

أما الشاب. فيغدو بفضل صناعته المربحة المريحة (في مراتب ندماء الأمير وجملته . . .) أي انه يقترب من تفصيلات حرفة الامارة، ليدخل فيها دخولاً . . . أي ثمن دفعه الشاب؟

(لا أكثر من إسقاط المروءة، وقلة الاكتراث بالعيب).

لكن الأمير أيضاً يدفع الثمن سواء علم بهذا أم لم يعلم:

(لا أكثر من إسقاط المروءة وقلة الاكتراث بالعيب).

إن الأفكار لتتغير في هذه العملية، ويتغير معها القانون الفعلي. فلم يعد الشاب من القوادين الذين (يؤذون وتكبس منازلهم) . . .

سوف يكون من التعسف أن يعمد المرء إلى إسقاط هذه الظاهرة سريعاً، على ما يدور حولنا.

كما أن الظاهرة وإن كانت بالغة الطرافه إلا أنها غير بالغة الأهمية.

ومن ناحية أخرى، لا أراني أتمتع بمزاج البحث السياسي ـ الاجتماعي أو بالاستعداد له.

لكني لا أجد بداً من الاشارة إلى أن العديد من المتنفذين والساسة في أرجاء الوطن العربي، يتوسلون إلى الثراء السريع والحياة الحسية الخسيسة، بـ «صناعات» لا تختلف في الجوهر عن «صناعة» ذلك الشاب الدمشقي.

إن وسائل هؤلاء المتنفذين والساسة، متنوعة، غريبة رهيبة . . .

ولن نبتعد عن الحقيقة إذا ذكرنا بين هذه الوسائل:

استيراد الرقيق الأبيض، إدارة المباغي المترفة، استغلال كازينوات القمار، الاتجار بالمخدرات، تهريب الوسكي، العمولات الضخمة، التجسس، تهريب الأسلحة . . . إلى آخر القائمة السوداء: التعامل مع العدو.

يا له من بائس مسكين ذلك الشاب الدمشقي!

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

كنت استمع البارحة إلى وصيفة تقص علي أخبار السندباد وأسفاره، وذكرت طيراً دعته «الرخ»... فهل تعلم من نبأ هذا الطير شيئاً؟

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

لا أكتمك أيها الملك انني لا أعلم من هذا الطير إلا ما تداوله الناس، فإن شئت رويت لك بعضه، وليس الراوي كالقائل.

قال دبشليم الملك.

الرواية للنظر. والقول للبصر.

قال بيدبا الفيلسوف:

«قال أبو حامد الأندلسي، ذكر لي بعض المسافرين في البحر أنهم أرسوا بجزيرة فلما أصبحوا وجدوا في طرفها لمعاناً وبريقاً، فتقدموا إليه وإذا هم بشيء مثل القبة، قال فجعلوا يضربون فيه بالفؤوس إلى أن كسروه فوجدوا كهيئة البيضة وفيه فرخ عظيم، قال فتعلقوا بريشه وجروه ونشبوا القدور، وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطباً يقال له حطب الشباب. فلما أكلوا ذلك الطعام أسودت لحية ولمة كل ذي شيب، قال فلما أصبحوا جاءهم الرخ، فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا. فذهب وأتى في رجليه بحجر عظيم، وتبعهم بعدما ساروا في البحر، وألقاه على سفينتهم فسبقت السفينة، وكانت مشرعة بتسع قلوع، ووقع الحجر في البحر فنجاهم الله تعالى، وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم. قال وقد كان بقي معهم أصل ريشة قيل انهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قربة، فسبحان الخالق الأكرم».

قال دبشليم الملك:

إن بين ما رويته وما قصته الوصيفة سبباً.

قال بيدبا الفيلسوف:

أظن هذا القصص كله ذا أصل واحد، هو ابتغاء الناس العيش إلى أبد الآبدين. ألم يبلغك نبأ جلجامش الذي اهتدى إلى عشبة الخلود، وكاد يخلد، لولا الحية التي سرقت عشبته، ألم أحك لك يوماً عما اعتقده الأفارقة من أن الناس في القديم القديم كانوا يبدلون جلودهم إذا هرموا جلوداً أخرى. فيعودون شباباً...

أوليس لهذا الرخ شبه بذلك الطير الذي يقال له: الفينيق ... ويقال عنه إنه إذا بلغ الأوج اتقد فاحترق، ثم قام من رماده، وهو في أجمل هيئة وألطف ريش وأبهى لون؟

كل الحكايات التي سمعناها عن الرخ لم تقل برخ مات. حتى هذا الرخ في البيضة كان يبث الحياة في الموت، فتسود لحية ولمة كل ذي شيب...

ولولا أن هؤلاء القوم يدينون بدين لا يرى الخلود إلا في جنة الخلد أو نار جهنم، لقالوا بخلود البشر كما قال سواهم.

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

ألا ترى أن الآخرة هي بمنزلة الدنيا المبتغاة؟

قال بيدبا الفيلسوف:

أيها الملك الهمام، ألم بي طائف ليلة، وحدثني حديثاً كنت أتمنى أن أقوله، وألقى في أذني من الحكمة ما جهدت في سبيله فلم أبلغ منه شيئاً.. وكان بالباب غلام لي يرعاني، ويسهر على راحتي، فأيقظني هذا الغلام، وحين سألته عن الأمر، قال انني كنت أتكلم بصوت عال فظنني أدعوه لحاجة..

قال دبشليم الملك:

يا للإنسان، يا بيدبا... كلما أراد أمراً انتحل له صفة، أو ابتدع عالماً.

قال بيدبا الفيلسوف:

صدقت أيها الملك.

محيي الدين بن عربي

إنه الشيخ، أو الشيخ محيي الدين، في النطق اليومي للناس، وعلى لوحات الحافلات المتجهة، صعداً، من «الميدان» الدمشقي، إلى هذا السفح الداني من قاسيون، حيث الحي الشعبي، والسوق الطويل المتعرج بين المنازل ودكاكين الحرفيين وباعة الزهر والقماش وتمر المدينة المنورة... الحي الذي يحمل اسم الشاعر منذ أكثر من سبعة قرون، ويضم رفاته، ويحتفظ له، بالنبضة الناصعة للولي أو القديس، ويحفظه، كما يحفظ القلب، بين الستائر الخضر والبخور النافذ، والغلائل البيض للصبايا المتعبدات جوار الضريح... صبايا الحي، اللواتي سوف ينقلن إلى أبنائهن وبناتهن مثلما فعلت الأمهات طوال هذه القرون السبعة ـ قداسة الشيخ، وبهاءه، وبيتاً له، أو قولاً: «القدرة للبشر لا للحجر» مثلاً.

محيي الدين بن عربي (١١٦٤ ـ ١٢٤٠ م)، يعز عليك أن تحيله إلى الذاكرة.. صحيح أنك تتذكر نفحته القدسية الأولى، حين دهمتك وأنت صغير... أولم تبق أبياته، في القلب، وعلى طرف اللسان منذ سمعتها للوهلة الأولى؟

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان، ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه، فالحب ديني وإيماني
لنا أسوة في بشر هند وأختها وقيس وليلى، ثم مي وغيلان

وها انتذا تستعيد قولته: «اتبعوني يحببكم الله»... وأنت الآن في دمشق. والشيخ بعيد... والمسعى لا يكلفك إلا صعود حافلة...

فلتتبعه، ولتباه بهذا اليسر الذي لم يتح له:

لا أبالي شرق الوجد بنا حيث ما كنت به أو غرباً
كلما قلت: الا، قالوا: أما وإذا ما قلت: هل؟ قالوا: أبى
ومتى ما أنجدوا أو اتهموا أقطع البيد أحث الطلبا.

وقت للتأمل.

وقت للعصب يعود إلى موضعه. وللعينين تستقران حيناً وللقلب يشف ويشفى في هدأة النور الوارث.

وقت في حضرة الشيخ وحماه.
«اتبعوني يحببكم الله»...
إلى أين أيها الشيخ؟

أحب بلاد الله لي، بعد طيبة ومكة والأقصى، مدينة بغدان
وما لي لا أهوى السلام، ولي بها أمام هدى ديني وعقدي وإيماني.

لكن بغداد بعيدة، يا بن عربي...

هذه البغداد، بعيدة... فمن تراه يبلغ بغدادك؟

«قوله: ومالي لا أهوى السلام، أراد مدينة السلام، فإن الله يدعو إلى دار السلام...» انتهى.

بغداد بعيدة أيها الشيخ...

والله ما خفت المنون، وإنما خوفي أموت، فلا أراها في غد.

بغداد بعيدة أيها الشيخ . . . وأنا الآن ، في حضرتك وحماك ، مهاجر مجاور . . .

«والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون» .

سورة النحل الآية . . .

«تفسير الجلالين» بين يدي ، وأنت ابتهال في الشفتين ، وألق هادىء في الثريات الخفيضة . .

وبغداد بعيدة ، بعيدة مثل دار السلام . . .

«اتبعوني يحببكم الله» .

لم أزرك ، بعد ، يا محيي الدين بن عربي . . .

كنت أوطن نفسي ، وأوطي مسلكي ، وأوازن ما اختل من عصب ، وما نتأ من عرق . إلى جدار الزاوية استند ، ونحو مبعث النور أنظر . واتملى في الهدوء السابغ ، صورة تتشكل ، شيئاً فشيئاً ، صورة لانسان سوف يرتقي ، في لحظة ، أو برهة سلم القرون السبعة . . . بياض ملبس ناصعاً ، وهالة من نور شفيف ، وتمتمة خفيضة . . .

وها انتذا . . . يا محيي الدين بن عربي ، ها انتذا تخطو خطوتك المباركة ، كسائر على الماء إني أراك تجلس في الزاوية المقابلة . تكويناً من الأنوار . . . وإذا بالزاوية «ربوة حمراء» . . .

وإذا بها «مقام الجمال . . . لأن الذين قسموا الألوان يقولون لون الحمرة أجمل» . . .

إنني أنظر إليك يا محيي الدين بن عربي . . . أنظر إليك ، ولا أبصر . . .

هبني البصر أيها الشيخ .

إن عيني غائمتان .

و «مقام الجمال» الذي أنت فيه لم يتجل إلا لحظة . . .
أريد أن أبصرك . . .
أريد أن اتملاك حالاً ومقاماً.
أم تراك تقول لي:
«اجتنب الملاحظة لئلا تذهب بنور بصرك المقيد»؟

■

اهبط سلم القرون السبعة، وادخل ضريحك.

شميم بخور، وستائر خضر، وتلاوة في الضحى.

وفي الضريح، أنت الشهيد والشاهدة. ليس سوى «محيي الدين بن عربي» . . .

الكون حولك: أبيض وأخضر.
كون صغير أيها الشيخ.
كون تلم به النظرة العجلى.
هل للألوان أن تلتبس يا محيي الدين بن عربي؟

بغتة . . . أعمى عن كل شيء. بغتة توقر اذناي فلا أسمع شيئاً.

بغتة تنقطع أنفاسي في الضريح فأكاد أختنق.

أردت أن أجلس قبالتك طويلاً.

أردت أن تحدثني فأسمع. وأن تنورني فأبصر. وأن تشير إلي فأشهد. وتستنطقني فأنطق.

أردت أن تعلمني كيف أضع الحرف مع الحرف، فأضع دنيا مع دنيا.
أردت أن تعلمني كيف أقلب الظاهر، وأتغلب على الحس.
أردت أن أقول الصدق، وأن أبلغ الحسرة.
أردت الحظوة يا محيي الدين بن عربي.
لكن الكون حولك: أبيض وأخضر.

الكون حولك صغير، أيها الشيخ.

الآن أريد أن أرتقي سلم القرون السبعة، فأخرج إلى الشارع والسوق... أريد أن أرى الناس... أريد أن أرى النسوة يساومن على حفنة الفول الأخضر، وقطعة الجبن الأبيض...

فهل نمضي معاً أيها الشيخ؟
هل نمضي معاً يا محيي الدين بن عربي؟

■

«هو محيي الدين بن عربي الحاتمي، الطائي، الأندلسي، ولد بمرسيه، وهي بلدة من بلاد الأندلس وانتقل إلى أشبيلية في الثامنة من عمره، فقرأ بها العلوم على مشاهير زمانه. ثم سافر إلى مصر ودمشق وبغداد، وجاور في مكة، وأقام في بلاد الروم طلباً للعلم والسياسة. توفي وهو في السادسة والسبعين. وكانت وفاته بالشام وقبره بالصالحية في مسجد يعرف باسمه في سفح جبل قاسيون».

ترك ابن عربي مؤلفات كثيرة تبلغ نحواً من مئتي كتاب، أشهرها الفتوحات المكية في التصوف. وزعم أن الله يملي له على لسان ملك الإلهام جميع ما يسطره. ومن كتبه ترجمان الأشواق. الذي شرحه بنفسه.

قال ابن مسدي في ترجمته: «ان محيي الدين كان ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات».

«والناس فيه، كما في غيره من منتحلي التصوف حزبان: حزب له، يبرره ويحمل كلامه على محامل حسنة ويتأوله، وحزب يكفره ويؤثمه ويرميه بالزندقة».

وماذا تقول أنت أيها الشيخ؟

«لما نزلت مكة سنة خمسمائة وثمان وتسعين ألفيت بها جماعة من الفضلاء، وعصابة من الأكابر الأدباء والصلحاء بين رجال ونساء»...

ومن هم؟

منهم «مكين الدين أبو شجاع زاهر بن رستم بن أبي الدجا الأصفهاني، وأخته المسنة العالمة شيخة الحجاز فخر النساء بنت رستم» . . .

هل سمعت عليهما يا بن عربي؟

«أما الشيخ فسمعنا عليه كتاب ابي عيسى الترمذي في الحديث وكثيراً من الأجزاء» . . .

وفخر النساء بنت رستم؟

«بعثت إليها، لاسمع عليها، وذلك لعلو روايتها، فقالت: فني الأمل، واقترب الأجل، وشغلني عما تطلبه مني من الرواية الحث على العمل، فكأني بالموت قد هجم، فأقرع سن الندم، فعندما بلغني كلامها كتبت إليها أقول شعراً:

حالي وحالك في الرواية واحد ما القصد إلا العلم واستعماله

فأذنت لأخيها أن يكتب لنا نيابة عنها إجازة عنها في جميع رواياتها».

أتذكر أن الشاعر السويدي المعاصر غونار أكيلف، وهو من أفضل شعراء أوروبا الحديثين، تحدث عن محيي الدين بن عربي في مقدمة ديوانه «أمير امجيون». وأتذكر من حديثه ما معناه أن السريالية والرمزية تجدان أصولهما عند محيي الدين بن عربي. حتى لقد تصدر الديوان السويدي بيتان للشيخ من «ترجمان الأشواق»:

شعرنا هذا بلا قافية إنما قصدي منه حرف ها
غرضي لفظة ها من أجلها لست أهوى البيع إلا ها وها.

ربما أعجب «أكيلف» بالمنظومة الفكرية المتكاملة وراء كل كلمة، أو بيت، أو قصيدة، في «ترجمان الأشواق»، وربما هزته حتى الاضطراب هذه اللوعة المتقدة، الصاعدة نحو السماء، العارفة بالأرض . . . في ديوان الشيخ . . .

لكني لا أتصور إعجاب أكيلف معتمداً «ترجمان الأشواق» وحده.

ترى هل ترجمت «الفتوحات المكية» إلى السويدية، أو إلى لغة أوروبية أخرى يفقهها أكيلف.

إن لاكيلف علاقة باللغات الشرقية . . .
فهل أطلع على «الفتوحات المكية» في لغة شرقية؟

■

ها قد بلغت الحافلة موقفها النهائي.

وانت تهبط، لتدخل السوق شاقاً طريقك بين الناس والنسوة المتبضعات، تسير قليلاً، وتلتفت إلى اليسار جامع الشيخ محي الدين بن عربي. تخلع نعليك وتجتاز العتبة. الوقت صباح، تقطع الباحة وتدلف إلى المصلى الواسع لتجد نفسك وحيداً، مع المنبر والثريات الدانية، وخزانات الكتاب العزيز الصغير المبثوثة عند الجدران . . . تلوذ بزاوية وتتناول . . . تفسير الجلالين وتقرأ في سورة النحل: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق. . ﴾ الآية.

«سلاماً» محيي الدين بن عربي . . .

وعذراً ان وقفت في مقام التقصير. لكني أتعلل . . . ولربما استطعت يوماً أن أهبك شيئاً أتقرب به إليك فأقترب من جلال حضرتك . . .

وداعاً محيي الدين بن عربي . . .
الناس في السوق في عجلة من أمرهم.

وشوارع بيروت مقفرة الآن . . . المقاتلون وحدهم يقفون.

وفي الجنوب يموت حتى الأطفال واقفين.
إنهم لا يتقربون بأنفسهم إلى أحد.
عذراً، محيي الدين بن عربي . . .
لترقد، مطمئناً أو غير مطمئن في ضريحك المعروف باسمك في سفح جبل قاسيون . . .

وداعاً محيي الدين بن عربي . . .

المقاتلون يمضون نحو المنازل والمقامات الصعبة . . . وإن أحدهم ليقول اتبعوني يحببكم الله . . .

أساطير الأولين والآخرين

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: «رأيت فيما يرى النائم أنني في جزيرة خالية، ذات جداول وغياض وأطيار مغردة، وبينما كنت سائراً بين أشجارها وأطيارها، سمعت منادياً يقول: البحر البحر! ، وحين اتجهت نحو الشاطىء، وجدت مركباً صغيراً مما يتخذه الصيادون وقد ربط إلى جذع سدرة هناك، فعجبت لهذا المركب . . . من أتى به؟ وأين ومن أين أتى به؟ ولم تركه في هذه الجزيرة حيث لا أنيس ولا جليس؟ وما زلت أتفكر في أمر المركب حتى شممت رائحة أشجار تحترق، وسمعت جلبة أغصان تتقصب، وأصوات طيور تفزع إلى موضعي من الجزيرة، وإذا بالنار تأكل الجزيرة أكلاً، وهي تنهب طريقها إلي . . فأسرعت إلى المركب وأطلقته من سدرة الشاطىء، وانطلقت به في البحر مبتعداً عن الجزيرة المشتعلة، وحمدت الله على نجاتي من هذا الكرب العظيم، وهذه الملمة الدهياء».

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

اعلم أيها الملك الهمام، أن أحلام النجاة من المحنة كثيرة، مثل حكايات النجاة، والعبرة في الحالين لمن اعتبر.

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

رويت لك حلمي، فهلا رويت لي حكاية!

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

يتوارث قوم «الفلاني»، وهم قوم مسلمون من غرب أفريقية، حكاية بديعة، منها: ان فتى فقيراً تزوج، وبعد شهور رأى أنه أشد فقراً مما كان، وأن زوجته سوف تلد. فضاقت الدنيا في عينيه، ولم يتحمل المكث في مستقره، فهام على وجهه، في الآفاق باحثاً عن نصيبه. تجول حتى أرهقه التجوال، ولم يزل في حاله حتى وجد مخدوماً هو رأس عشيرة. وتتابعت السنون وهو في خدمته، وفي أحد الأيام قال الشاب لمخدومه: أريد أن أعود إلى أهلي. فوهبه رأس القبيلة ثلاثة عبيد لقاء خدمته، وانطلق الشاب في طريق عودته. وما زال يسير ويسير في البرية، أربعة وثلاثين يوماً... وفي اليوم الخامس والثلاثين التقى بشيخ طويل اللحية. سار الإثنان معاً، بدون أن يتبادلا كلمة واحدة. أخيراً قال الشاب: نحن لا يكلم أحدنا الآخر. أجابه الشيخ الملتحي: إن وهبتني واحداً من عبيدك أخبرتك بشيء. رد الشاب: خذ واحداً. آنذاك تكلم الشيخ قائلاً: سوف تبلغ في رحلتك موضعاً للراحة في وسطه شجرة، عليك ألا تنام تحت الشجرة.

وفي اليوم التالي، سارا معاً صامتين أيضاً. وبعد فترة من المسير قال الشاب مخاطباً الشيخ: يا أبي... نحن لا يكلم أحدنا الآخر. أجابه الشيخ: إن وهبتني يا ولدي عبداً آخر أخبرتك بشيء. رد عليه الشاب: خذ العبد.

تكلم الشيخ الملتحي ثانية وقال: سوف تبلغ في رحلتك نهراً صغيراً في قاعه صخور كبيرة يجري فوقها الماء سريعاً... لا تجرب أن تقطع النهر وإلا غرقت.

وفي اليوم الثالث، سارا، طويلاً وهما صامتان كذلك، إلى أن نطق الشاب قائلاً: نحن لا يكلم أحدنا الآخر. أجاب الشيخ إجابته المعهودة: إن وهبتني العبد الثالث كلمتك ثالثة. رد الشاب: خذه.

وسرعان ما افترقا، بعد أن ودع الشاب شيخه الملتحي، وسار كل منهما في طريق.

أما الشاب فقد عاد الآن فقيراً، بعد أن خسر عبيده الثلاثة، عاد فقيراً مثلما كان حين ترك بيته قبل سنين عديدة.

وما زال الشاب يسير ويسير حتى بلغ في رحلته موضعاً للراحة في وسطه شجرة ملتفة الأغصان. لم يسترح الشاب تحت تلك الشجرة، وإنما اختار له مكاناً عند شجيرات غير بعيدة. في المساء وصلت قافلة عظيمة ونصب الناس خيامهم ليبيتوا هناك، أما التاجر، مالك القافلة، فقد نام تحت الشجرة الملتفة. وفي موهن الليل خرج جني الشجرة وقتل التاجر. في مطلع الفجر أيقظ مقدم القافلة، الشاب وهمس في أذنه: أفق مات التاجر، لكن يجب ألا يعرف أتباعه الخبر، سألبسك ثيابه وستمتطي صهوة جواده. نهض الشاب، وساعد مقدم القافلة في سحب جثة التاجر من موضعها تحت الشجرة، ثم غطيا الجثة بورق الشجر. ولبس الشاب ثياب التاجر، واعتلى جواده، وواصلت القافلة، رحلتها.

وما زالت القافلة في رحلتها، حتى بلغوا نهراً صغيراً سريع الجريان. قال مقدم القافلة للشاب: سأتقدم أنا وأجرب أن أعبر النهر.

وافق الشاب على ما قاله الرجل، ونزل مقدم القافلة في النهر، وغرق. آنذاك أمر الشاب القافلة بالتوقف، حتى يهدأ النهر... وبعد أن هدأت مياهه قادهم عبر النهر سالمين، وهكذا أصبح الشاب مالك القافلة.

أخيراً، بلغ الشاب بيته، بكل ثروته العظيمة، حيث رأى زوجته وقد أنجبت ولداً. كان الولد قد غدا فتى. أتراه ابنه أم ابن سواه؟

كان يمسك خنجره بيده ليقتل الولد. إلا أنه توقف وانصت إلى قلبه. قال له صوت: اقتله. إلا أن صوتاً آخر، صوت الشيخ الملتحي، ناداه: أبعد هذا الخنجر!

فكر الأب في مثل خطفة البرق، وقرر ألا يقتل ابنه.

الأب لم يقتل ابنه، لأنه استمع إلى صوت الشيخ الملتحي، إلى العبارة الثالثة.

هذه هي الحكاية.

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قصصت علينا، يا بيدبا، قصص الأولين، فأزحت عن صدرنا غم هذه الليلة وهمها، وقد قيل: «لا يبهج النفس مثل خبر سالف، ونجح طارف...» وربما صار خبرك نجحاً. ألم يبلغك قول القائل: «الملك المغموم ملك مهزوم؟».

لكن، أي أمر يجمع بين جزيرتي التي رأيتها في المنام، وذلك الشاب المرتحل؟

أردتك تؤول الرؤيا، فوجدتك تروي الرواية!

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

العبرة واحدة في الأمرين.

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: لست أرى ما تراه.

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك: أعز الله الملك، ووهبه من أمره رشداً استرشد به. العبرة في رؤياك أيها الملك الهمام هي لغيرك من ملوك الأرض إنك لحاكم عادل، ولهذا هيأ لك عدلك مركباً تنجو به من النار، والنار الموقدة في الجزيرة، أوقدها عدوك، فأحرق الشجر والثمر. الظالم هو عدوك أيها الملك الهمام، فأنجاك الله منه ومن ظلمه. وما هذا بالعجب، فكم من صاحب حق وجد نفسه غريباً في أمة تداركها الله كصالح في ثمود. ألم يبلغك نبأ قائد الأغارقة، وكان يقود جيشاً صغيراً من الفتيان الكماة المتدرعين جسارتهم قبل دروعهم... كيف أحاط به أعداء ما كان ليظنهم أعداء إنما هم أبناء عمومته الأقربون... ما كان ليريد أن يرفع في وجوههم سلاحاً، وكأنه يتمثل بيتي شاعرنا:

قومي همو قتلوا أميم أخي فإذا رميت أصابني سهمي
ولئن عفوت لاعفون جللا ولئن قسوت لاوهنن عظمي!

كان الهم الناصب لقائد الأغارقة من الفتيان الكماة، أن ينجو من محاصرة أبناء عمومته الأقربين، ومن مناوشة أعدائه الموسومين. أبناء عمومته الأقربون يهاجمونه في البر، وأعداؤه الموسومون يناوشونه في البحر. . .

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

وكيف نجا قائد الفتيان الكماة؟

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك: نجا في مركب كالذي رأيته في الجزيرة!

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

وهذا الشاب الفقير المترحل ما أمره؟ ومن يكون ذلك الشيخ الملتحي صاحب العبارات الثلاث؟

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

سيرة هذا الشاب، أيها الملك الهمام، جديرة بالتأمل والتعليل والتأويل، فهو فتى فقير، أراد أن يكون له في الدنيا ما كان لسواه. . . بيت يأوي إليه، ويسكن إلى قرينة له فيه، ويفرح بولد يبقي له ذكراً في القرية. . . وحين أغلقت في وجهه الأبواب التي يعرفها طرق أبواباً أخرى، وكد واجتهد، وتحمل الشظف والنكد، حتى صار في يديه شيء. إلا أنه ضحى بما ملكت يداه من أجل أن يعرف. . . وقد وجد في الشيخ ضالته. . . ربما سألتني: وكيف فعل الشاب ما فعل وهو يعلم فداحة ما فعله؟ أي كيف سكت عن موت التاجر، وغرق مقدم القافلة؟ واستميحك العذر أيها الملك الهمام. . . إن القصص القديم مليء بالإشارة واللمحة والمرمز. . . وعلينا التفسير. أعني، أيها الملك الهمام إننا لا نأخذ تفصيل القصص القديم في ظاهره. والأمر كله إشارات عن مراحل في رحلة طويلة. لقد اجتاز الشاب المراحل كلها، حتى انتصر على الخنجر، فانتصرت الحياة بانتصاره، متمثلة في الإبن الذي كتبت له الحياة، وكتب له الشباب. . .

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

والشيخ الملتحي؟ لقد حيرني، والله، هذا الشيخ ذو العبارات الثلاث، الذي لا يقول عبارة إلا بتضحية!

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

اعلم، أيها الملك الهمام، إن الشيخ الملتحي هو الحكمة والتجاريب والتبصر... والحكمة ليست ملقاة في الطريق يلتقطها من يشاء، كما يلتقط الحصا، ويلفظها من يشاء كما يلفظ النوى. الحكمة نصب وتعب ومخيض حياة.

هذا الشاب نجا أيضاً من التهلكة، كما نجوت أنت من الجزيرة، وكما نجا قائد الأغارقة من حصار أبناء عمومته الأقربين وأعدائه الموسومين. لكنه لم ينج بالحكمة وحدها، وإنما بالجسارة والإقدام والصبر على المكاره. وأنت، أيها الملك الهمام، وقائد الأغارقة، كنتما حكيمين، وجسورين ومقدامين وصبورين أيضاً...

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

ما كنت أظن قصص الأولين في مثل هذا العسر...

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

وقصص الآخرين أيها الملك؟

فهرست

● في العمل الثقافي

الإبحار نحو الجزر الأخرى ٩
متى نخطو الخطوة الأولى ١٥
الجبهة الثقافية التقدمية ٢١
الجبهة الثقافية التقدمية أيضاً ٢٧
الجبهة الثقافية التقدمية . . . ثالثاً ٣٣
الجبهة الثقافية الديمقراطية ٣٩
المثقف وحقوق الإنسان ٤٣
لئلا ينقطع الوتر ٤٩
مشروع ثقافي أم ثورة ثقافية؟ ٥٥
أبعد من القيروان ٦١
الوليد لا سلة الدخن ٦٧

● قابضون على الجمر

جميل والله أن نسأل ٧٥
الكتابة في زمن القتل ٨١
أغنية البدايات ٨٧
قراءة في رأس العدو ٩٣

ماذا يجري أيها الصديق؟ ٩٩
لنتزود فالطريق طويلة ١٠٥
شهادة الأطباء في زمن الحرب ١١١
مساء الغارة ١١٧
«شمس المتوسط» تنتظر ١٢٣
خمسة مدافع ١٢٩

● أماكن

استعادات في زمن غير مناسب ١٣٧
المرساة ١٤٤
الأسد والشمس والوجوه ١٥٠
وريقة خضراء مائلة إلى الحمرة ١٥٦
الإقامة في الأرض ١٦٢
الا رعى الله نخلاً، دخلته بالمكلاّ ١٦٨
قريباً من الأرض البعيدة ١٧٤
حكاية لرأس السنة ١٧٧
الضوء الأول يقترب ١٨٣
يوم أول، يوم أخير ١٨٩
تلك الأيام، ذلك الأرج ١٩٤
موسكو ليست في بهو الفندق ٢٠٠
مساء المدينة الكبيرة ٢٠٦
حسناً، الحياة مستمرة ٢١٢
عن الثلج وسواه ٢١٨
الصعود والنزول ٢٢٤
تلك الجزيرة في المتوسط ٢٣٠
الاصطياد في مياه عدن ٢٣٦
الطريق إلى يافع ٢٤٢

قلب يافع ٢٤٨
سقى الله أيام الكويت وأهلها ٢٥٣
من يوميات صنعاء ٢٦٠

● محاولات في مذاق النص

الروليت الروسي ٢٦٧
قطار اسطنبول ٢٧٣
جنتلمان سان فرنسسكو ٢٨٠
يتحسس الطريق، يمسك بالخيط ٢٨٦
رجل أوريانا فالاتشي ٢٩٤
إنصاتٌ واحد في تسعة مواسم ٣٠٠

● عن الشعر وأهله

«أمل» الشعر المصري ٣٠٩
محمود والجائزة ٣١٥
نتنفس قليلاً خارج الكابوس ٣٢١
أمدينةٌ للشاعر؟ ٣٢٥

● رائحة معتقة

أساطير الأولين ٣٣١
يا له من بائس ذلك الشاب ٣٣٧
محيي الدين بن عربي ٣٤٣
أساطير الأولين والآخرين ٣٥١

من منشورات مؤسسة الأبحاث العربية

* الياس خوري : دراسات في نقد الشعر
* الياس خوري : زمن الاحتلال
* الياس خوري : الجبل الصغير
* فواز طرابلسي : عن أمل لا شفاء منه
* ا . ف . لونا شارسكي : لوحات ثورية، ترجمة أحمد خليفة
* د . عبد العظيم : أنيس علماء وأدباء ومفكرون
* حسين مروة : دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي
* حسين مروة : تراثنا كيف نعرفه

اطلب هذه الكتب وقائمة المطبوعات من :

■ مؤسسة الأبحاث العربية، ص . ب ٥٠٥٧/ ١٣ (شوران) هاتف ٦/ ٨١٠٠٥٥ تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا ـ لبنان .

- **IAR (RAWAFID) Ltd,** P. O. Box 7047 Nicosia, Cyprus , Tel 452670.
Tlx 5223 Rawafid - Cy.

سعدي يوسف

أفكار بصوت هادئ

سعدي يوسف

أفكار بصوت هادئ

* سعدي يوسف، المولود سنة ١٩٣٤ في أبي الخصيب، (البصرة) بالعراق، كانت له إقامات على امتداد الوطن العربي: العراق، الكويت، سوريا، لبنان، الجزائر، عدن؛ وإن اتخذ الآن جزيرة قبرص مقاماً إلى حين.

وله إسهاماته في الثقافة العربية:

سبع عشرة مجموعة شعرية بين ١٩٥٢ و١٩٨٧ هي:

القرصان، أغنيات ليست للآخرين - النجم والرماد - ٥١ قصيدة - تحت جدارية فائق حسن - الأخضر بن يوسف ومشاغله - كيف كتب الأخضر بن يوسف قصيدته الجديدة - الليالي كلها - بعيداً عن السماء الأولى - نهايات الشمال الإفريقي - من يعرف الوردة - يوميات الجنوب يوميات الجنون - مريم تأتي - قصائد أقل صمتاً - الينبوع - الأعمال الشعرية - خذ وردة الثلج خذ القيروانية.

* ونقل نماذج استهوته من الشعر العالمي إلى العربية:

أوراق العشب: والت ويتمان - وداعاً للاسكندرية التي تفقدها: كافافي - إيماءات: يانيس ريتسوس - الأغاني وما بعدها: لوركا - ديوان الأمير وحكاية فاطمة - اكيلف - شجرة ليمون في القلب: فاسكو بوبا - سماء صافية: أونغاريتي - قصائد: فلاديمير هولان.

كما ترجم روايات افريقية هي: «الحوالة»، «تويجات الدم»، «المفسرون».

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص. ب: ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران) بيروت - لبنان